تصوير أبو عبدالرحمن الكردي

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

قارعة سبتمبر

بأقلام

د. أحمد عبدالله
أحمد عثمان
جمال البنا
د. حسان حتحوت
د. خالد أبو الفضل
د. زغلول النجار
د. صفى الدين حامد
المستشار طارق البشرى
عادل المعلم
د. عبد الودود شلبى
د. عصام العريان
د. ماهر حتحوت
محمد صادق الحسينى
د. محمد عمارة
د. مراد هوفمان
ميرال الطحاوى
د. هبة رءوف

مكتبة الشروق الدولية

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرا الثقافى)

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

www. Iqra.ahlamontada.com

منتدى إقراء الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى , عربي , فارسي)

منتدى اقرأ الثقافي
---
www.iqra.ahlamontada.com

قارعة سبتمبر

بأقلام

د. أحمد عبد الله
أحمد عثمان
جمال البنا
د. حسان حتحوت
د. خالد أبو الفضل
د. زغلول النجار
د. صفى الدين حامد
المستشار طارق البشرى
عادل المعلم
د. عبد الودود شلبى
د. عصام العريان
د. ماهر حتحوت
محمد صادق الحسينى
د. محمد عمارة
د. مراد هوفمان
ميرال الطحاوى
د. هبة رءوف

مكتبة الشروق الدولية

قارعـــة سبتمبر

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

القاهرة ـ كوالالمبور ـ جاكارتا ـ لوس أنجلوس

تليفون وفاكس: ٢٥٦٥٩٣٩ ـ ٤٥٢١٠٣٨

Email: sdel almoalem < shoroukintl@Yahoo.com >

مُقَدِّمَة

غـيرت كارثـة سـبتمبر الولايات المتحدة.. على مستوى الشعب، والإعلام، والحكومة (الكونجرس، والبيت الأبيض) ... تغييرات متفاوتة.

كذلـك غـيرت فى علاقة الولايات المتحدة مع العالم .. رسخت محاولات قيام الولايـات المتحدة بدور القطب الأوحد الذى تتبعه أكثر الدول، سواء عن اقتناع أو لنقاع، خوفًا من الغضب، أو طلبًا لمجرد الرضا.

هل فطنها ابن لادن؟

تحكـى قصص التراث الإسلامى عن بطولة طارق بن زياد الذى فتح الأندلس ببضـعة آلاف مـن المقاتليـن الذين عبروا مضيق طارق فى مراكب صغيرة، ثم أحـرق طارق مراكبه وقال للجنود: «العدو أمامكم والبحر خلفكم».. فما كان منهم إلا أن انتصـروا على الإسـبـان، ودانت لهم معظم جزيرة أيبريا التى سكنها ذلك الوقت ما يقرب من عشرة ملايين مسيحى!

اسـتمرت تلك الرواية ــ لا تنازعها رواية أخرى لدخول الإسلام إسـبـانيا ــ حتى صدر فى برشلونة عام ١٩٧٤ كتاب «الثورة الإسلامية فى الغرب»، للمؤرخ الإسـبـانى Ignacio olage ملخصـه أن العـرب لم يفتحوا الأندلس بالقوة، بل دعـاهم لذلك الإسـبـان ــ الذين مزقهم الصراع والتعصب والاضطهاد الدينى ــ وقبل الشعب الإسـبـانى حكمهم لما رأوه من عدلهم وتسامحهم.

خجـل كثير من الإسـبـان من رواية ذلك، وتباهى كثير من المسلمين برواية الفتح العسكرى وبطولات طارق ومن معه.

فأين هى الحقيقة؟

لـم تطلـع الولايات المتحدة العالم على أدلتها القاطعة ضد «ابن لادن» وتنظيم القـاعدة، وبـدأت قصـف أفغانستان.. **وبعد عدة أسابيع أعلنت عن شريط فيديو وجدته فى إحدى المغارات يدين «ابن لادن»، ويؤكد أنه فاعل الجريمة.**

فـى محاكمة قانونية عادلة ، لن يلتفت أحد لمثل هذا الشريط ، ولن يأخذه مأخذ الجد.

مـن الناحية الأخرى، أذاعت قناة الجزيرة عدة تسجيلات «لابن لادن» ... جدد فـيها اتهاماتـه للولايات المتحدة بعدائها للإسلام والمسلمين، وطالب بجلاء القوات الأمريكـية الكافـرة من جزيرة محمد ﷺ(*)، ووقف الدعم الأمريكى لإسرائيل التى تحـتل فلسـطين، وتقـتل الـرجال والنساء والأطفال الفلسطينيين، وتدمر منازلهم واقتصـادهم. لـم يعلـن مسئوليته عن الهجمات، ولكن تفاخر بها وبمن قاموا بها، مرارًا وتكرارًا.

الإمام الأكبر ، شيخ الأزهر والدكتور القرضاوى

أدان، شـيخ الأزهـر، وهو أعلى مرجع إسلامى فى العالم، تلك الهجمات بكل وضوح، وأعلن وأكد أن الإسلام برئ من قتل المدنيين الآمنين.

كذلك أدان الدكتور القرضاوى، وهو عند الكثير من أفضل فقهاء العصر، إن لم يكن أفضلهم، تلك الهجمات، إدانة صريحة واضحة، وقال: إن «ابن لادن» لا يمثل ولا يـتكلم باسـم المسلمين، وأكد أنه هاجم حركة طالبان وأفكارهم عدة مرات من قبل، وأنهم لا يمثلون الإسلام.

ضرب الشعوب لمعاقبة الحكومات

- سـاندت الولايات المتحدة، والغرب بصفة عامة، صدام حسين فى اعتدائه على إيران، وحربه الشيطانية عليها التى استمرت معظم الثمانينيات.

غـزا صـدام الكويت، فسبب للمنطقة كلها نكبة لا تقل عن نكبة فلسطين، ونكسة ١٩٦٧م.

(*) ذهبت تلك القوات بناء على طلبات رسمية من حكومات شبه الجزيرة.

جمـــع جورج بـــوش الأب، أكـــثر العالم، من شرقه لغربه، عربه وعجمه، والأمم المتحدة، وقاد التحالف لتحرير الكويت من الاحتلال.

نجـــح فـــى ذلك، وترك صدام حسين ونظامه الاستبدادى القهرى(*)! ومن يومهـــا، اســـتمرت الحكومـــة الأمريكية، ومعها البريطانية، فى إهدار كافة حقـــوق شـــعب العـــراق ممـــا أسفر عن خسارة مئات الآلاف من أرواح المدنييـــن، خاصة الأطفال، كما بينت إحصائيات الأمم المتحدة، ناهيك عن دمار الاقتصاد.

- أصـــابت هجمات ١١ سبتمبر أهدافًا مدنية وعسكرية فى الولايات المتحدة، **وكان أغلب الضحايا مدنيين أبرياء فى برجى التجارة العالمية بنيويورك، بلـــغ عددهـــم حوالى ثلاثة آلاف،** يزيدون أو ينقصون قليلاً، بينهم ــ طبقًا لبعض الإحصائيات ــ ثلاثمائة مسلم.

يحرم القرآن، فى آيات واضحة صريحة، قتل أية نفس بشرية بريئة، ولا يفرق بين مسلم أو غير مسلم، عربى أو غير عربى.

فلـــيس فـــى حرمة النفس والجسد والمال مبدأ الأغيار الذى يؤكده العهد القديم.

- **هاجمت الولايات المتحدة أفغانستان، فقتلت وأصابت حتى الآن ثلاثة آلاف مـــن المدنيين الأبرياء،** الذين قاسوا حوالى عشرين سنة من الحرب (أدت أفغانســـتان خدمة جليلة للولايات المتحدة والغرب عندما ساعدت ــ بفاعلية كـــبرى ــ على انهيار الاتحاد السوفييتى)، بسبب تدخلات القوى العظمى، وجيران أفغانستان، تحركهم وتساندهم أيضًا القوى العظمى(**).
- لا تختلف الجريمة ضد شعب العراق، والجريمة ضد شعب أفغانستان، عن الجريمة ضد شعب الولايات المتحدة. إلا إذا تملكتنا العنصرية والانحطاط، ورأيـــنا أن دم الأمـــريكى أغلى من دم العراقى أو الأفغانى، بل فى الواقع

(*) أجابنى أحد الكتاب على ذلك قائلاً : خلع صدام حسين هو عمل للشعب العراقى ، أو من تضرر منه ، وفى الحديث « كما تكونون يولى عليكم ».

(**) ساندت بـــاكستان والسعودية والإمارات حركة طالبان لتقف فى وجه تحالف الشمال الذى تسانده روسيا وإيران.

الولايـــات المـــتحدة هى الدولة الديمقراطية الوحيدة بين الدول الثلاث، مما يعنى أن شعبها مسئول ــ لحدٍ أكبر ــ عن سياسة حكومته.

ولا يفوتـــنا هـــنا أن نذكر المظاهرات الأمريكية ضد قصف أفغانستان، والتى جاوزت مجموع المظاهرات المثيلة فى العالم العربى والإسلامى كله !

وظهـــرت آراء المعارضة فى مختلف وسائل الإعلام الأمريكية ، وإن كانت لا تمثل التيار الرئيسى.

كذلـــك لا يفوتـــنا أن بعضًـــا من أسر الضحايا أبدت معارضتها ، وأن قصف أفغانستان أو غيرها لن يجعلهم أكثر راحة.

كارثة سبتمبر
فى مسار مواجهات الشرق(*) والغرب

يشهد الشرق والغرب مواجهة حضارية جديدة.. لعلها الرابعة(**) من نوعها.

يـــتكلم كثـــير مـــن المسلمين عن استفادة الغرب من المواجهتين الأوليين، فى مجـــالات الفكـــر والعلـــوم، حـــتى زعـــم الـــبعض أن فكـــرة الإصـــلاح الدينى (الـــبروتســـتانتية بصفة خاصة) نتجت مما رآه الغرب فى الشرق أثناء الحروب الصليبية.

وأمـــا المواجهـــة الثالـــثة (الحـــركات الاستعمارية خلال القرنين التاسع عشر والعشـــرين)، فقد ادعى الغرب أنه كان رسالة لتحضير الشرق، أو «حمل الرجل الأبـــيض» كمـــا يحلـــو للبعض فى الغرب أن يقول، بينما اعتبره الشرق استنزافًا لثرواته وسلبًا لحرياته واستقلاله.

انتهـــت المواجهة الثالثة بحركات التحرر التى أسفرت عن الاستقلال. كان ذلك الاستقلال فى كثير من الحالات إسميًا أو شكليًا أكثر منه حقيقيًا.

ورأى بعـــض المفكريـــن أن كثـــيرًا من حكومات الاستقلال، فشلت فى معظم

(*) المقصود بالشرق هنا، الشرق الأوسط من بـــاكستان حتى المغرب.

(**) من بعد: انتشار الإسلام فى أوروبـــا ــ الحروب الصـــليبية ــ الاستعمار فى القرنين الأخيرين. ولعل هذه المواجهة ، تتيح فرصة هائلة للمسلمين فى أن يقدموا جوهر الإسلام ، للبشرية المتعطشة لـــه ، خاصة فى الولايات المتحدة.

مشـــاريعها للتنمـــية، ولم تصل ببلادها إلى مستوى الغرب، ولا حتى الدول النامية، فى شرق آسيا مثلاً.

بـــل تجـــد الـــيوم حكومـــات الشـــرق الأوسط تطلب مختلف أنواع المساعدة الأمريكية، من عسكرية إلى اقتصادية، وغيرها.

وأدى زرع إســـرائيل فـــى المنطقة فى منتصف القرن السابق، بدعم غربى ـــ أمريكى بصفة خاصة ـــ فى كل المجالات : سياسيًا ، عسكريًا ، اقتصاديًا ، ماليًا ، واحـــتلالها للبلاد العربية المحيطة بها، وتسلطها العسكرى، وصلاقتها، المبنية تارة علـــى أنهـــا شـــعب الله المخـــتار، وتارة على أنها الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوســـط ومســـط دكتاتوريات متخلفة، إلى زيادة حالة الإحباط لدى شعوب المنطقة، الذيـــن لا يفارقهم تاريخ أسلافهم المجيد، وقيادتهم للعالم طوال خمسة أو ستة قرون، الأمـــر الـــذى لـــم تحققه أية قوى عظمى أخرى، سواء كانت بريطانيا، أو الاتحاد السوفييتى، أو الولايات المتحدة، التى ما زالت فى قرنها الأول.

التيه العربى

تـــاه العقـــل العربى بين ماضٍ مجيد، وحاضر مؤلم إن لم يكن ذليل. فأية عزة تلـــك فى أن تطلب من الآخر حمايتك أو مساعدتك؟ وتتصاعد الأصوات فى مصر، وفى كل بلد عربى:

نريد أن نعطى للغرب صورة طيبة عن الإسلام.

ولم نسمع أحدًا يتكلم عن تصحيح جوهرنا.

فهـــل لـــو اتصلح حالنا، احتجنا لأن نزين تلك الصورة الطيبة؟ أو لنكن أكثر صراحة بل وانتهازية: هل يمكن لإعلامنا أو حتى لمؤسساتنا الدينية ـــ وهى كلها تحـــت قبضـــة الدولـــة ، بأجندتها المحْكَمة بمختلف أنواع المشاكل والعجز ـــ أن تعطى صورة طيبة، لأى شىء، فضلاً عن الإسلام؟ وإذا كان بإمكانهم ذلك، فلماذا لم يفعلوه من قبل؟

أمـــا آن الأوان لأن نصـــارح أنفســـنا ونبدأ إصلاحًا حقيقيًا.. فكريًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا؟

وهل يمكننا اغتنام هذه المواجهة فى إحياء جديد للقيم الجوهرية لتقدم البشرية..

ـ الشورى ، أو الديمقراطية ...

ـ العدل الاجتماعى أو التكافل الاجتماعى أو مجتمع الرفاه...

ـ احترام الحرمات ، أو حقوق الإنسان ...

ـ المؤمن القوى خير وأحب إلى الله ، أو الاعتماد على الذات والفردية...

ـ اليد العليا خير من اليد السفلى.

ـ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، أو التعاون الدولى...

الإقبال على قراءة

القرآن فى الولايات المتحدة

أفادت أخبار كثيرة الإقبال الهائل للأمريكيين على قراءة القرآن؛ ليعرفوا ذلك الدين العجيب.

ومن العجيب أيضًا، أنه طبقًا لتقرير صادر من «مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية ـ كير(*)» فى ٧ ديسمبر ٢٠٠١م:

لوس انجلوس تايمز تقول: نقلاً عن وكالة الأسوشيتد برس أن صورة مسلمى أمريكا فى عيون الأمريكيين قد تحسنت بدرجة ملحوظة بعد ١١ سبتمبر «رغم الخوف من حدوث العكس».

ويشير التقرير إلى استطلاع أجراه مركز أبحاث أمريكى شهير وهو «مركز أبحاث بيو» يستنتج أن **«نسبة الأمريكيين الذين ينظرون نظرة إيجابية لمسلمى أمريكا قد قفزت فى نوفمبر إلى ٥٩% من الأمريكيين مقارنة بـ ٤٥% فقط خلال شهر مارس الماضى.**

وتقول الصحيفة إن الجمهوريين المحافظين كانوا أكثر فئة تغييرًا لنظرتها للمسلمين الأمريكيين باتجاه إيجابى، وأن نسبة الجمهوريين المحافظين الذين ينظرون إلى مسلمى أمريكا نظرة إيجابية خلال شهر نوفمبر الحالى ، وصلت إلى ٦٤% مقارنة بـ ٣٥% خلال شهر مارس الماضى».

(*) واحدة من كبرى المنظمات الإسلامية فى أمريكا، عملها الرد على أى هجوم ضد الإسلام، والدفاع عن حقوق المسلمين.

هل يمكننا ــ بالمثل ــ أن نحاول التعرف بجدية على الولايات المتحدة؟ أسباب قوتهـا ونقـاط ضعفها، كيف يعمل نظامها السياسى والاقتصادى؟ الخلفيات الثقافية والدينـية لشـعبها؟ حـرية العمل الإعلامى فيها وكيف نؤثر فيه؟ أسباب انحيازها لإسرائيل ؟ كيف يمكننا تغيير تلك السياسة ؟

ثقافة الكراهية

مـن بعـد كارثة سبتمبر، تتصاعد من آن لآخر فى الولايات المتحدة والغرب، أصـوات ــ لا يصعب التكهن مَن ورائها ــ تتهم التعليم ــ بصفة عامة ــ والتعليم الدينـى ــ بصفة خاصة ــ فى العالم الإسلامى بنشر ثقافة الكراهية ضد الآخر، بل ويـتمادى الـبعض بالقول بأن الإسلام يحض على كراهية الآخر، وأنه دين عنف وقتل.

ولـيس هـنا مجال تفصيل الرد على ذلك، ولكن فى سطور قليلة سنقرأ بعض آيـات من القرآن، وآيات من التوراة، ثم نطوف بأسرع ما يمكن فى مآسى البشرية خلال القرن الماضى:

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ ﴾ [النحل : ٩٠].

تطهير المحاربين

وقتل النساء الأسيرات

وقال لهم (موسى): لماذا استحييتم النساء؟ ... فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال واقتلوا أيضًا كل امرأه ضاجعت رجلاً.

سفر العدد ــ الإصحاح ٣١: ١٣ ــ ١٨، صفحة ص٢١٨.

شرائع حصار وفتح

المدن البعيدة

وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولاً، فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدًا لكم، وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها. فإذا أسقطها الرب إلهكم فى أيديكم، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم.

سفر التثنية ــ الإصحاح ٢٠: ١٠ــ١٤، صفحة ٢٥٥.

شرائع حصار وفتح

مدن أرض الموعد

أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها.

سفر التثنية ــ الإصحاح ٢٠: ١٦ــ١٧، صفحة ٢٥٦.

النصـــوص الـــثلاثة الســـابقة من التوارة، أصح ما فى العهد القديم عند كلٍ من اليهود والمسيحيين، وهى منقولة بالحرف ــ حتى العناوين ــ من كتاب الحياة:

الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)

1988 LBI
The Book of Life
First Printing 1988
Reprinted 1989, 1991
ISBN 086660412x Green الطبعة الثالثة

بـاع الكتاب فى مصر ومعظم أنحاء العالم العربى، وهو المرجع المعتمد لكل المذاهب المسيحية الرئيسية (الأرثوذكس، الكاثوليك، الـبروتستانت).

وتلـك نصوص قليلة من نصوص مماثلة ، يدرسها طلبة المدارس التوراتية فى إسرائيل.

القرن العشرين

نكتفى منه بالأفظع:

- حـربان عالميـتان، قامـتا بسـبب صـراعات وأطماع أوروبية (سواء كانت أوروبـا التـنوير أو أوروبـا المسيحية أو أوروبـا اليهودو/مسيحية) راح ضـحيتها أكثر من سبعين مليون قتيل، وأضعاف ذلك من الجرحى والمصابين، ودمار مئات المدن والقرى.
- لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية:

صـراعات بين الحكومات والشعوب، تدخلت فيه الولايات المتحدة، استمر لمدة تـزيد علـى نصـف قـرن مـن الدم، سواء بالقتال أو الاغتيال، أو الاعتقال والتعذيب.

لا أحـد يعـرف علـى وجـه للتحديد عدد الضحايا. والصراع منحصر بين الكاثوليك، وأحيانًا يتدخل فيه الـبروتستانت.

- أيرلـندا الشمالية، والصراع بين الـبروتستانت والكاثوليك، والذى استمر عدة قرون حتى الآن. ولا أحد يعرف عدد ضحاياه.
- مجازر صربيا الكبرى الأرثوذكسية للمسلمين فى البوسنة وكوسوفـا، وضحايا لا يقل عددها عن نصف مليون. بالإضافة لحربها ضد كرواتيا الكاثوليكية.
- مذابـح رواندا وبوروندى، التى راح ضحيتها ــ طبقًا لأقوال الدكتور بطرس غـالى، الأمـين العام للأمم المتحدة وقت تلك المذابح ــ مليون نفس بشربة فى أقل من سنة.

وكما قال الدكتور بطرس: كل أولئك تحت غطاء الكنيسة الكاثوليكية...

أمـا الولايـات المـتحدة، فرغم عمرها القصير الذى لم يتجاوز قرنين وربع القرن، فقد خاضت ثلاث عشرة حربًا، بواقع حرب كل ست عشرة سنة تقريبًا.

سـنكتفى مـنها بحربين، الحرب الأهلية منتصف القرن التاسع عشر، والحرب الـڤيتنامية التى انتهت فى سبعينيات القرن الماضى.

تكفلت الحربان بإهدار دماء أكثر من مليون قتيل، غير المصابين، وغير الدمار المتعدد.

ولا ننسى استئصال الهنود الحمر !

والقائمة طويلة.... وثقيلة.

فهـل أهـدر المسلمون فى القرن العشرين ــ بل فى تاريخهم كله ــ دماء بمثل ذلك الحجم؟

هذا الكتاب

وضـع مادة هذا الكتاب نخبة من المفكرين، أربعة منهم أمريكيون مسلمون من أصـل مصرى، والدكتور مراد هوفمان ألمانى، والسيد الحسينى إيرانى، والدكتور زغلـول الـنجار، وهو مصرى يتـنقل ما بين مصر والجزيرة العربية وبريطانيا والولايـات المـتحدة، وأحمـد عثمان، مصرى مقيم فى انجلترا، والباقون مصريو الجنسية والإقامة.

عادل المعلم

القاهرة فى ٢٠٠٢/١/١٤م

* * *

أصداء وأفكار حول يوم الهول

أ.د. حسان حتحوت
المركز الإسلامي لجنوب كاليفورنيا

ليست هذه الصفحات تأريخًا ولا توثيقًا لما حدث يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى نيويورك وواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تكفلت بذلك وسائل الإعلام بما لا يدع مزادًا لمستزيد. لكنها خواطر شخصية وتأملات تراود نفسى على ضوء تجربتى فى الحياة ، وحصيلتى من المعرفة بالعالم الذى نعيش فيه ، وتمرسى بالثقافتين الشرقية والغربية ، وفهمى لديني الإسلامى فهمًا يوافق فهم بعض الإسلاميين ، ولكنه بالقطع يخالف بعض العاملين فى الحقل الإسلامى والمحسوبين على الإسلام.

« أبق رأسك فوق الماء »

عبارة سمعتها وأنا تلميذ فى الدراسة الثانوية. قيلت لى فى مناسبة مختلفة تمامًا، ولكننى تأملتها ووعيتها وأدركت أنها تصلح لجميع المناسبات ، فاحتفظت بها وجعلتها من مصابيحى الهادية طول الحياة. كان ذلك فى أول محاولة لى لتعلم السباحة فى حمام وزارة المعارف بشارع رمسيس (الملكة نازلى آنذاك). كلما حاولت، غمر الماء وجهى فاستنشقته بدل الهواء و« شرقت » به واضطربت وطاش أمرى. حتى نصحنى مدرب السباحة فى ذلك الوقت وكان اسمه بطيخة أفندى ــ رحمه الله ــ بعبارته التاريخية : « أبق رأسك فوق الماء » .. ومن أيامها هى معي ، ليس فقط فى حمام السباحة أو فى البحر الأبيض بالإسكندرية ، ولكن فى بحر الحياة بهديره وصخبه وتلاطم أمواجه. وتدربت ألا تطويني الأحداث ولكن أنظر إليها وكأننى فى مكان أعلى منها ، نظرة رائقة واضحة. فلما جاء ١١ سبتمبر بما فيه ، كان على أن أصوغ حياتى فى دائرتين : دائرة الانفعال

العـاطفى ودائـرة الـتأمل الفكرى ، وراعيت ألا تختلط الدائرتان حتى لا يغطس رأسى فى الماء.

والحـق أن ١١ سبتمبر كان زلزالا عاطفيًا هز العالم أجمع ، وإن تراوح مذاقه بحكـم المكـان الـذى تنظر إليه منه ، والخلفيات التى تحكم الناس ، ونضجهم أو قصورهم فى استقراء العواقب والتداعيات.

أمـا أمريكا فقد أصيبت بصدمة عامة. فالشعب الأمريكى لم يشهد فى تاريخه إرهابًـا علـى هـذا النطاق ولو على شاشات التليـفزيون.. حتى حادثة بـيرل هاربـر الـتى هاجم فيها الطيران اليابانى الأسطول الأمريكى ، كانت نشاطـًا حربـيًا بيـن الجيوش ، وفى أطراف البلاد وبعيدًا عن المدنيين .. وكانت أمريكا تعـيش علـى اعتقاد أن المحيطين الأطلسى والهادى من حولها، وأن قوتها الجبارة تجعلهـا فـى مأمـن مـن مثل هذا الهجوم ، ولم يكن يشغلها سوى هاجس الرعب الـنووى المتبادل ، فهى تزمع بناء شبكة تعترض أى صواريخ متجهة نحوها ، فلا يكـون الرعـب الـنووى إذا متبادلا. فإن ضربت أمريكا بادئة فهى فى مأمن من الاقـتحام .. فكـيف الحال وأمريكا تتلقى هذه الضربة فى ١١ سبتمبر على صميم أرضـها وكبريات عواصمها ، وباستخدام طائراتها ، مستهدفة عصبها الاقتصادى فى برجى مركز التجارة العالمى ورمز عنفوانها العسكرى فى مبنى الـبـنتاجون، ويـترنح الاقتصـاد الأمريكى ومن خلفه الاقتصاد العالمى من جراء عملية إرهابية نفذها نحو عشرين من الإرهابيين ؟

ومـن الناحية الإنسانية كان الأمر أعمق وأفدح .. إن منظر انهيار الأبراج ، مع العلم أن بين تلك الجدران ناسًا أبرياء ومواطنين لم يؤذوا أحدًا ولا ذنب لهم فى شىء، قد أصاب النفوس بالغضب والاشمئزاز ، واستنكر الجميع هذا العمل الغادر، ولـم يشـذ المسـلمون الأمريكان عن ذلك ، لا من باب التمثيل أو التقية أو تلمس السلامة ولكن بصدق وإخلاص ، وكان صوتهم واضحًا مع غيرهم.

والحق أن المسلمين الأمريكان كانوا يحملون فوق العبء العام ، أعباء أخرى ، رغـم أنهـم أيضـًا كانت لهم ضحاياهم تحت أنقاض مر كز التجارة العالمى. فقد ارتفعت أصابع تشير إليهم بالاتهام منذ اللحظة الأولى .. يحركها التعصب العرقى أو الدينـى أو أصـحاب الأجنـدات السياسـية المعادية. فإن شاركوا فى استنكار

الإرهاب، ظهر من يقول: إنهم ينافقون الشعور العام. ووقعت بالفعل حوادث فردية مؤسفة، مثل محاولة إحراق مسجد، أو وسائل التهديد المتعددة، بل إن أحد الإخوة الأقباط قد قتل في محل بقالته لأنه يحمل سحنة الشرق الأوسط ، وكان من قلة الذوق أن بعض الصحف كتبت أنه هاجر من مصر فرارًا من التعصب الديني ، كما هوجم بعض الهنود من طائفة السيخ الذين من عقيدتهم إطلاق اللحية وشعر الرأس ولبس العمامة ، ووجهت ألفاظ نابية إلى مسلمات يضعن الحجاب .. لكن أستطيع أن أقول باطمئنان: إنها كانت حالات فردية وإن كثرت وتعددت..

لكن الذي حدث كظاهرة عامة وموجة شعبية دافقة ، كان على العكس من ذلك تمامًا .. تعاطف وتلاحم واحتضان للأمريكان المسلمين على أوسع نطاق. بدا ذلك على النطاق الفردي، حيث كان الجيران يعرضون على جيرانهم المسلمين صحبتهم إلى السوق والكنائس بل بعض المعابد اليهودية تزور المسلمين في مساجدهم وتدعوهم إلى كنائسهم ومعابدهم ، فتنعقد الأمسيات والمؤتمرات حول الروح الدينية الصحيحة وتأكيد معاني الأخوة والمواطنة ، والجهات الرسمية وغير الرسمية تدعو ممثلي الديانات المختلفة إلى المواكب والصلوات على أرواح الضحايا ، وينال الخطيب المسلم تحية ضخمة من الحاضرين (لأنه يكون في العادة أحسن المتحدثين).

وكان لتصريحات الرئيس بوش عن الإسلام والمسلمين أثر حاسم على سير الأمور هنا ، بعد أن استبد بنا القلق الشديد على الوجود الإسلامي في أمريكا .. قد يفسرها بعض المسلمين في أنحاء العالم بأنها من باب السياسة والضحك على الذقون .. ولكن من الناحية العملية المؤكدة ، أنه لولا ذلك لانطلقت من عقالها قوى تستهدف اقتلاع شجرة الإسلام من أمريكا في عملية للتطهير الديني على غرار التطهير العرقي، ولكان في ذلك خسارة كبيرة ، فما زلت أتوسم للإسلام دورًا مهما في أمريكا يفضي إلى خير كثير إن شاء الله.

قال بوش وأقطاب حكومته إن أمريكا لا تحارب الإسلام ، ولكن تحارب الإرهاب. وقال إن الإسلام دين سلام. وقابل وفدًا من الجمعيات الإسلامية مقابلة كريمة ، وزار المركز الإسلامي في واشنطن ، ودعا سفراء الدول الإسلامية إلى مائدة الإفطار في رمضان ، ووجه رسالة تهنئة برمضان إلى المسلمين ، وصدر

طـابع بـريد بمناسـبة عـيد الفطر مكتوب عليه باللغة العربية « عيد مبارك » ، وصـدرت الأوامـر لمؤسسـات الشرطة والتحقيق بعدم التهاون فى أية « قضايا كراهـية » ضـد المسـلمين، وأصدرت إدارات التعليم نشرة إلى المعلمين بمراعاة التلاميذ المسلمين واعتبار حساسياتهم واحترام شعورهم.

هذا رأيى فيما يختص بهذه الجزئية، ويبدو أن أمريكا استفادت من درس سابق، إذ ندمـت علـى اعـتقال المواطنين الأمريكان من أصل يابانى إثر عدوان بـيرل هاربـر وإعـلان الحـرب علـى الـيابان، وفـيما بعد اعتذرت إليهم ودفعت لهم تعويضـات. ولست أدرى إن كان من بين إخوتى المسلمين من سيتبرم بتعليقى هذا ويعتـبره انحـيازًا أعمى للسياسة الأمريكية فى كافة أحوالها، فالحق أن الأمر ليس علـى ذلـك، لكن أعتقد أنه كلام فى موضعه ، وتقدير لا أستحى من تقريره لوجه الحق. وأتخيل كيف يكون الحال لو أن ما حدث فى ١١ سبتمبر كان فى بلد آخر.

التحدى والفرصة

ظل الإعلام فى عامته سلبيًا تجاه الإسلام والمسلمين .. خاصة برامج الراديو القائمـة على تلقى الأسئلة من الجمهور بالتليفون وتولى المذيع الإجابة عليها. وهى منتشـرة فى أمريكا والاستماع إليها سهل أثناء ركوب السيارة. هذه الإذاعات كانت ومـا تـزال تقطر سمًا وتفيض بالحقد على الإسلام والطعن فى القرآن وفى النبى محمـد علـيه الصلاة والسلام. وهى تنتقى من القرآن آيات أو أجزاء من آيات ، تـبدو لمن يسمعها أنها تحض على العنف واستخدام القوة .. وتغرق فى الأكاذيب والخـرافات، وهـى تـزعم أنهـا تشرح الدين الإسلامى .. وتدعى أن المسلمين يعـبدون إلهًـا آخر غير إله المسيحيين واليهود (وهكذا أصبح المسيحيون واليهود سـمنًـا علـى عسـل، دون إشـارة إلـى ما يعتقده اليهود عن عيسى وما يعتقده المسـيحيون)، مع إسباغ كافة النعوت السيئة على إله المسلمين، تعالى الله عن ذلك علـوًا كبيرًا.. هم يمارسون ذلك والجو خال لهم. إلا مرات قليلة دعوا بعضًا من المسـلمين إلـى الاشـتراك فـى البرنامج، وهم يحسبون أنهم سيكيلون له الضربة القاضـية على رؤوس الأشهاد .. فخاب ظنهم ودارت الدائرة عليهم فى كثير من الأحـوال. ومـن الـنماذج التى أود أن أعرضها فى هذا الشأن دعوة من صاحبة

برنامج إذاعى اسمها الدكتورة « لورا شلسنجر» ٠٠ يهودية شديدة اليهودية ، ولها برنامج يومى مدته ثلاث ساعات (ماعدا السبت والأحد) ٠٠ ومنذ خمسة وعشرين عامًا وهى تقدم البرنامج وحدها تتلقى الأسئلة وتعقب عليها ، ويستمع إليها ١٥ مليون مستمع على اتساع أمريكا ، ولكنها لأول مرة، تغير المنهاج وتدعونى معها فى الاستوديو لتتلقى الأسئلة ، وظلت من قبلها على موقعها فى الإنترنت تنشر مقالات سيئة عن الإسلام ، وتوصى الناس أن يصوغوا منها أسئلتهم لى لأيام عديدة ، لدرجة أن بعض الإخوة المسلمين أشفقوا علىّ واتصلوا بى من أنحاء أمريكا ينصحوننى بعدم تلبية الدعوة ، فالدكتورة لورا عالية المهارة وواضح أن سوء النية متوفر٠ والواقع أنها شخصية محترمة وآراؤها الأخلاقية تشبه آرائى إلى حد كبير ، ولكنها كانت معركة الإسلام وكنا فيها طرفى نقيض٠

وجاء الموعد ، وعلى مدار ساعات ثلاث جلست أتلقى أسئلتها وأسئلة المستمعين ٠٠ كانت أمامها شاشة يكتب لها مساعدوها عليها الأسئلة الوافدة ، تختار منها ما تشاء وتتحى ما تشاء ٠٠ وكانت النتيجة ألا أحد من المسلمين أو المسلمات الذين انتظروا دورهم استطاع أن يجد فرصة للسؤال ، وكانت كل الأسئلة تقريبًا استفزازية، ولكننى لم أتخل عن هدوئى العميق ، لدرجة أنها خلال الحديث قالت: إننى جالسة على نار ولكنه جالس فى غاية الهدوء والاسترخاء ٠٠ ولم يضق ذرعى بتحكمها فى التوقيت تحكمًا كاملاً ٠٠ وسبحت بين الأسئلة فى سماحة ويسر لدرجة أن أحد الطالبين قال: إننى الآن أعتقد أن الإسلام دين متحضر، وسأشترى القرآن وأدرس هذا الدين٠ وفى نهاية البرنامج فوجئت بأن السيدة قامت وعانقتنى ٠٠ وأهديتها كتابًا لى (قراءة العقل المسلم) بالإنجليزية، وترجمة « محمد أسد » لمعانى القرآن الكريم ، مخبرًا إياها أن « محمد أسد كان يهوديا نمساويا ثم اعتنق الإسلام ، ولهذا فستجد فى تعليقاته وتفسيره ما يناسب عقليتها إن شاء الله٠

وعُرضت كذلك فرص أخرى إذاعية وتليفزيونية ، كانت من فضل الله شرط أن يكون من يمثل الإسلام متمكنًا من الدين ومن اللغة ومن اللباقة ، وإلا كان الأثر عكسيًا كما حدث فى حالة أو اثنتين سامحهما الله٠

لكننا نشكو هنا أن قدراتنا الإعلامية مازالت قاصرة ، وما زال الإعلام

الإســلامى صــغيرًا وداخليًا إلى درجة كبيرة ٠٠ وإلا فنحن فى عالم التليــفزيون والصــحافة تحت رحمة الغير فى غالب الأمر ، وصحيح أن حرية الكلمة يصونها القــانون فــى أمريكا ، لكن أسحاب القنوات الكبيرة ملتزمون بأجــندة سياسية من وضــع الذيــن يملكونهــا ٠٠ ولهذا فكثير من مظاهر الظلم والقهر التى تحدث فى فلســطين ونراها على الفضائيات العربية لا يتاح للشعب الأمريكى أن يطلع عليها ، ولا يدرى إلا بما يقدم إليه من جانب واحد٠

وكأن الناس قد احتارت فى أمر هذا الإسلام الذى يثنى عليه من ناحية رئيس الدولة ، بينما من الناحية الأخرى يلعنه ويطعن فيه شخصيات من الإعلام أو من اليميــن المســيحى المــتطرف ، وهم فى أمريكا قوة ملموسة ٠٠ فاستولى على الــناس شعور بحب الاستطلاع والسعى للتعرف على هذا الدين الذى لا يمكن أن يكــون بهــذا الســوء ٠٠ ونشأ طوفان من الدعوات لنا لنحاضر عن الإسلام فى الكنائس والجمعيات والجامعات والمدارس والندوات والتجمعات المختلفة ٠٠ فإذا ذهب من يحسن العرض ويخاطبهم على مقياس عقولهم وطريقة تفكيرهم ، كانت النتــيجة إيجابــية فــى مائة بالمائة من الحالات٠ ومع أننا بجانب ما نتفق عليه ، نعــرض كذلك ما نختلف فيه بغير إهانة أو تهجم ، فإن الناس يستمعون ويقولون لم نكــن نعلم هذا عن الإسلام٠ بل إن من رجال الكنيسة من جعل رسالته الدفاع عن الإسلام ، منهم القس « وليم بيكر » الذى ألف كتابًا عنوانه : « أقرب مما تظن » ٠٠ وكثيرون من الأساتذة والعلماء٠

أمــا الأســئلة التى يسألونها فى المحاضرات والإذاعات فكثيرة ٠٠ منها وضع المــرأة وموقــف الإسلام من الديمقراطية ، وتعدد الزوجات، ولم يحمل المسلمون المرارة لأمريكا؟ والمسألة الفلسطينية، والجهاد، والموقف من أهل الأديان الأخرى، وانتشار الإسلام بحد السيف، والمفاهيم الجنسية، والدين، والعلم، والإرهاب، وفصل الدين عن الدولة ، والسنة والشيعة ، والعبادات ، وغير ذلك٠

ومن الأسف الشديد أن نذكر لهم أمرًا من محاسن الإسلام ، فإذا هم يبادروننا بنقيضــه من أعمال المسلمين أفرادًا أو جماعات أو دولا ، ولهذا فنحن مطالبون بوقفــة صــادقة مــع الــنفس ، وإذا كنا نشكو من أن صورة الإسلام فى الغرب مشــوهة ، فمن الأمانة أن نعترف أننا نحن ــ المسلمين ــ سبب مباشر فى جزء

مـــن هذا التشويه على الأقل ، فلنتق الله في ديننا ، فإنما يقرأ الناس الإسلام في أعمالـــنا فلـــنحاذر أن تكون دعاية سيئة لـــه كما هو حالنا في كثير من الأمور. ونجـــاهد لكي نقنعهم أن نحكم على الناس بالدين لا على الدين بالناس ، ولو حاولنا أن نقـــرأ المســـيحية فـــي تصـــرفات النصـــارى لظلمنا المسيحية ، لأن كثيرًا من المنتسبين لها يمارسون ما هو ضدها ، فاللوم عليهم لا على دينهم.

وقامت الحرب ..

بسرعة فائقة وجدنا أنفسنا أننا في حرب .. أعلن الرئيس بوش : إن بلادنا في حالة حرب. وتلا ذلك بقولـــه : لقد أعلنت علينا. وكان أمام الشعب الأمريكي كله محقـــا فـــي ذلك. وبسرعة أيده الكونجرس (إلا سيدة واحدة) وبسرعة قام رئيس الأركـــان ليعلـــن أن القـــوات المســـلحة على أتم الاستعداد، وطلب الرئيس ميزانية وأعطاه الكونجرس أكثر مما طلب، وسرت في البلاد حمى من الحماسة، وانتشرت الـــرايات الأمريكـــية علـــى السيارات وعلى البيوت، وارتفعت أصوات بعد يوم أو اثنيـــن لمـــاذا لم تسقط القنابل بعد ؟ كل هذا قبل أن يعلن الرئيس أين الحرب وضد مـــن ؟! مصـــرحًا بأنهـــا حرب من نوع جديد لا عهد لهم به، ضد عدو ليست له جغرافـــيًا أو جهة أو حكومة أو جيش نظامي أو خطوط قتال محددة ، وأنها ستكون حـــربًا طويلـــة وقـــد تكون مريرة ولكننا في النهاية بالتأكيد سننتصر .. وتلا ذلك الإعـــلان عن تنظيم « ابن لادن » ، وطلب تسليمه ، ثم طلب السماح بالدخول بعد تســـليمه للـــتأكد مـــن أن قواعده وأماكن التدريب أصبحت ملغاة ، ثم طلب حكومة الطالـــبان الأدلة على إدانته ، ثم إعلانها أنه غادر أفغانستان إلى حيث لا تعلم ، ثم إعلانهـــا أنها ستخيره إن أراد الرحيل ، ثم تكوين الحلف الأمريكي .. وهكذا حتى بـــدأ القصف الجوي وبدأ غزو أفغانستان من الجو الذي تملكه أمريكا وعلى الأرض بواسطة جيش التحالف الأفغاني الشمالي.

وتطـــورت حـــياة الشـــعب الأمريكي إلى ما يشبه شعار « لا صوت يعلو فوق صـــوت المعركة » ، أو « من لم يكن معنا فهو مع الإرهابيين » ، أو « عليك أن تقـــدم الدلـــيل علـــى أنك وطني » .. قامت ــ كما توقعنا ــ موجة من الغوغائية الضاغطة ، تنبو عما اعتاده الشعب الأمريكي من أن يكون على سجيته في التعبير

عـن رأيـه أيًـا كـان (ماعدا انتقاد إسرائيل طبعًا) ، وعادت إلى الذاكرة ذكرى المكارثـية التىعرفـتها أمـريكا فى الخمسينيات حين تولى السناتور « ماكارثى » مكافحـة الـتغلغل الشيوعى فى أمريكا ، واستباح تحت هذا الشعار الحقوق المدنية والحـريات الشخصـية لكثير من الناس ، حتى أوفى على مداه ولفظته الديمقراطية الأمريكية إلى غير رجعة.

أثـناء حـوارى الإذاعـى مـع الدكـتورة « لورا شلسنجر » ، سألتنى : هل الإرهابـيون الذيـن قاموا بهجوم ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن فى الجنة أو فـى الـنار ؟ قلـت لها لقد اقترفوا جرمًا هائلا وذنبًا عظيمًا وإثمًا مبينـًا ، وهم بقـتلهم المدنيين قد انتهكوا تعاليم الإسلام. أما مسألة الجنة والنار فديننا يجعلها من اختصاص الخالق وحده ، ولا يجيز لنا نحن البشر أن نقتحمها ، فذلك خارج نطاقنا ولـيس لـنا أن نصـدر فـيها أحكامًا. قالت على الفور : فأنت إذن متعاطف مع الإرهابيين ! قلت : هذا ما كنت أخشى أن تقوليه.

كـان محسوسًا أن اللوبى الصهيونى يغذى ذلك الاتجاه ويلقى بكل ثقله وراءه ، سـواء فـى الإعـلام أو فـى دهاليز الحكومة. كان هناك تحفز قوى إلى ضرب الإرهـاب بـلا هوادة وعلى أوسع نطاق ، مع منع قوى لأية محاولة للتعرف على الأسـباب الـتى أفضـت إلى ذلك الإرهاب. حتى الرئيس بوش عندما تساءل فى خطابـه الأول لمـاذا هم يكرهوننا ؟! أجاب لأنهم يحسدوننا على هذه الحرية التى ننعم بها وعلى هذه القاعة التى تضمنا (قاعة الكونجرس) لأنهم يكرهون الحرية. وكـان هناك إصرار كامل على نفى أو استبعاد أن تكون هناك أية علاقة سببية بين العـدوان الإرهـابى وبين سياسة أمريكا الخارجية .. وإن كانت صدرت بعد أيام أصـوات قلـيلة تـنادى بإعـادة النظر فى السياسة الخارجية لأمريكا ، وأظهرت مجريات الأمور بعد ذلك أن هذا النظر كان أو ظهر فى الحسبان.

وطغـت عاصفة الحماس والاندفاع على طائفة من الأنباء التى تداولها الإعلام علـى اسـتحياء ، ثم اختفت بعد أن ذويت ولم يعقب عليها أحد. فقد أذيع أن بعض الأسـماء الـتى ضمتها قوائم الإرهابيين على الطائرات ليست صحيحة ، فبعضهم مـازال حيًا وبعضهم توفى منذ أكثر من عام ، وبعضهم ضاع جواز سفره من مدة وأبلـغ عـن ضياعه فى حينه .. فهى إذن أسماء مستعارة ومزيفة ، كما قرأنا فى

الإعلام هنا عن خمسة من اليهود ضبطوا على سطح عمارة قريبة من مركز التجارة العالمى ومعهم كاميرا تصور حادث ارتطام الطائرة بالمبنى ، ودخلوا أمريكا بطريقة غير مشروعة ، ويتصرفون بطريقة وصفت بأنها غريبة ، وقبض عليهم للتحقيق ، ثم لم نسمع عن كل ذلك فيما بعد شيئاً ، فإن التحقيقات يكتنفها الكثير من السرية إن لم تكن سرية تمامًا.

وبدرت إشاعة راجت فعلا فى المشرق العربى بأن إسرائيل بجهاز الموساد كانت وراء الحادث بتمكنها من اختراق مجموعة إرهابية مسلمة تتولى التنفيذ وهى لا تدرك أين أطراف الخيوط ، واستدلوا على ذلك بأن إسرائيل هى الرابحة فى هذه الظروف وإن لم يرق ذلك لمرتبة الدليل ، وبأن آلاف اليهود العاملين فى مبنى مركز التجارة العالمى صدرت لهم الأوامر بعدم الذهاب للعمل يوم ١١ سبتمبر ، ولا نحسبها إلا إشاعة ، لأنها لو صحت لدمغت الموساد بالغباء الكامل ، وحسبما قرأته عن الموساد ، فإنه كان يفضل أن يموت آلاف اليهود على أن يعرض نفسه لهذه الشبهة ، والعلم اليقين عند الله سبحانه وتعالى ، الذى لا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم جاءت مشكلة جراثيم الجمرة الخبيثة التى توزع بالبريد. جهة ثانية للإرهاب نالت كثيرًا من الشعب الأمريكى وأدخلت عنصر الخوف إلى حياته اليومية العادية. ورغم أن عدد الضحايا حتى الآن قليل ، إلا أن الأثر على الناس كبير، ولحتمالات المستقبل مخيفة. وللوهلة الأولى ألبست التهمة لنفس المصدر الإرهابى الذى دبر حوادث ١١ سبتمبر.

ولكن بدراسة نوعية الجرثومة ، أعلن أنها لا يمكن تحضيرها إلا فى معامل عالية المستوى ، فارتقى الاتهام ليتجه إلى دول لا إلى أشخاص أو عصابات ، وذكرت أسماء بعض الدول التى يصفونها بالدول المارقة ، وباستمرار البحث العلمى المكثف ، استبعدت الدول المارقة ــ حتى العراق ــ فدقة التحضير وصغر حجم الجراثيم مما يسهل طيرانها فى الهواء بسهولة وبقاءها معلقة فيه لمدة أطول مما يساعد على استنشاقها والعدوى بالمرض ، تدل على آخر صيحة فى التحضير، مما قد لا يتاح إلا فى الولايات المتحدة، واتجهت أصابع الاتهام إلى إرهاب داخلى أمريكى رفيع المستوى ومتاح له النفاذ إلى الأقداس العلمية المصونة التى تضم

هـذه المواد وهذه المعرفة. ومازال التحقيق مستمرًا. وفى غمرة حب الاستطلاع ، تبيـن من المطبوعات ومن الإنترنت أن مسألة الحرب البيولوجـية مسألة قديمة ، وأن اليابانيـين استعملوها ضد الصين فى الحرب العالمية ، وأن أمريكا حصلت من العلماء اليابانيين على نتائج أبحاثهم لقاء العفو عنهم كمجرمى حرب ومزايا أخرى، وأن أمـريكا مـن دول الطليعة فى هذا الباب، وأنها استعملت منذ الحرب الكورية، وليـت الإنسـان لم يفتح من البداية هذه الأبواب، لكن منهم من جعله الله فى أحسن تقويم ومنهم من رده أسفل سافلين.

وفـى المرحلة الأولى ، كانت القضية الفلسطينية محجوبة عن الذكر تمامًا ، بل صرح الملك عبد الله ملك الأردن، بأنه يعتقد أنه لو سبق حل القضية الفلسطينية لما وقـع عـدوان ١١ سـبتمبر على الأرجح .. وعادت الذاكرة إلى حديث الرئيس «حسـنى مبارك» مع التليـڤزيون الإسرائيلى يذكر مخاطر التلكؤ فى الوصول إلى حـل عادل عن طريق التفاوض ، ويحذر بالذات وهو يرفع سبابته من « الإرهاب .. الإرهاب أخطر من الحرب ».

حـتى الحديث الأول لـ « أسامة بن لادن » مع قناة الجزيرة الذى أخذته عنها المحطـات هنا، عندما ترجموه إلى الإنجليزية، غيروا الترتيب فبدا بأن الأمر الأول والأهـم هـو خروج الكفرة من ديار الرسول، ولاحقـًا مسألة فلسطين .. وذلك فى الإذاعات الأولى.

ومن الطريف أن أمريكا طلبت من قطر الضغط على محطة الجزيرة وأن قطر هـى التى تعللت بالديمقراطية وحرية الكلمة. ومن الطريف كذلك أن « جونداليزا رايس » مستشارة الأمن القومى فى أمريكا ناشدت محطات التليفزيون أن تكف عن إذاعـة حديـث بـن لادن هذا ، خشية أن يكون بطريقة سرية يومئ بتعليماته إلى أتباعه الإرهابيين الموجودين فى الولايات المتحدة الأمريكية.

فـى هـذا الجـو المشحون، كانت الطلبات تنهمر على الشخصيات الإسلامية المرموقة للحديث فى مختلف المجامع. وهم ولا شك يرفضون الانصياع للإرهاب الفكـرى الذى يستميت اللوبى الصهيونى فى إثارته. وهم لا يهادنون فى إخلاصهم للحـق، كمـا أن ولاءهـم الصادق لوطنهم الأمريكى الذى ولدوا فيه أو التحقوا به اختـيارًا، يحتم عليهم أن يصدقوا لـه النصح ويدلوه على ما يكفل صالحه لا صالح

دولـــة أخـــرى ٠٠ ولا يمكنهم من ذلك إلا حسن اللباقة وقوة العرض والقدرة على الــتآلف، والمؤمـــنَ كـــيّس فـــطـــنٌ كما يقول النبى عليه الصلاة السلام: ويقولون لمواطنـــيهم: إن فضل الله على أمريكا بما وهبها من نعمة وآتاها من ثراء وهيأ لها من قوة، يلقى عليها بمسئوليات ضخمة وهى تتصدى لقيادة العالم فى القرن الحادى والعشـــرين٠ ولقـــد ضـــرب الإرهاب قلب أمريكا ، ولن تجف الدموع على آلاف الأبـــرياء الذيـــن أزهقت أرواحهم بغير حق ، ولئن حشدت أمريكا قوتها العسكرية الجـــبارة لاقـــتلاع جذور الإرهاب ، لقد وجب أن يدرك قادتها أن اقتلاع الإرهاب يســـتلزم أكـــثر مـــن القوة العسكرية والمعركة الحربية٠ وكما يدرك علم الطب أن القضـــاء على الأمراض يكون باكتشاف مسبباتها والقضاء عليها، فالإرهاب مرض يجـــب أن يجـــرى علـــيه نفس المنهاج٠ لابد من دراسة الأسباب٠ الحرب وسيلة ناقصـــة إن كانـــت هى كل ما فى الجعبة، ولا بد فيها من قتل الآلاف من الأبرياء المدنييـــن الذيـــن هـــم أيضًـــا لا ذنـــب لهم ولا جريرة، مهما كانت القذائف ذكية والتصـــويب محكمًـــا٠ ولو استطعنا اليوم القضاء على كل إرهابى فى العالم حتى آخـــر إرهابى ، لما خلصنا العالم من الإرهاب إن تركنا الأسباب التى توجده والبيئة الـــتى تنبته باقية لم تتغير٠ ومن له أدنى ثقافة بالنفس الإنسانية ، لا بد أن يدرك أن القهـــر والظلم والمرارة وفقدان الأمل ، هى فى الواقع أسلحة الدمار الشامل٠ وهى أخطـــر ملوثـــات البيـــئة٠ ويوم تلقى أمريكا بثقلها إلى جانب الحق والعدل فى كل المناطق الساخنة فى العالم ، فالنتيجة عالم سعيد وآمن بالنسبة لأمريكا وبالنسبة لكل الـــدول ، ولمـــا عـــاد هـــناك إرهاب ، إذ ليس لـــه آنذاك من سبب ، ولن يعرض لأمريكا سؤال : لماذا يكرهوننا ؟ لأنه لا أحد سيكرهه حينذاك أمريكا٠

هـــذا المـــنطق مقـــبول لدى الناس ومقنع ويلقى ترحيبًا كبيرًا ٠٠ ولكن الأمور ليســت بهذه البساطة ٠٠ فإن أمريكا لا تتكون فقط من هؤلاء المواطنين الطيبين المفطوريـــن على الخير والسماحة٠ بل العبرة الحقيقية تكمن فى دهاليز السياسة الأمريكية ، وفى أيدى القوى الجبارة التى تتحكم فى رسم المسار واتخاذ القرار ، والـــتى تعبر عن الرأسمالية الطاغية الأنانية ، التى لا قـــلب لها ولا اعتبار لديها لمفاهـــيم العدالـــة والرحمة ، وإنما للمصلحة الاقتصادية وتكديس الثروات وغزو الأسواق ، ولو أدى ذلك إلى إهدار حقوق الشعوب وامتصاص دمائها٠

ومن خلال ما نقرأ في أدبيات المفكرين والمحللين مما يصدقه الواقع الملموس، لا نستطيع أن نتهرب من سؤال يجابهنا بإلحاح، وهو: **هل أمريكا فعلا تفضل السلام على الحرب أو تفضل الحرب على السلام؟** فعندما انتهت الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفييتي ، تعالت البشرى بأن اقتصاد الحرب سيتحول إلى اقتصاد سلام ٠٠ لدرجة أنني كنت عضوًا في هيئة تسمى تحالف الأديان لمقاومة سباق التسلح ، وفي آخر الاجتماعات ، قررت الهيئة حل نفسها إذ لم يعد هناك ما يدعو لاستمرارها ، وتوقع الجميع خيرًا كبيرًا من وراء توجيه الإنفاق العسكري الضخم إلى خدمة السلام ورفع المعاناة عن البشر٠

ولكن ذلك لم يحدث ٠٠ بل إن ميزانيات الدفاع (!) أخذت في الزيادة المستمرة٠ وتذكرت كلمة الرئيس « دوايت أيزنهاور » (الذي انتخب رئيسًا للدولة بعد أن قاد جيوش الحلفاء إلى النصر في الحرب العالمية الثانية) إلى الشعب الأمريكي قائلاً: **احذروا الحلف الصناعي ــ العسكري** ! أي التحالف بين المؤسسة العسكرية والشركات الصناعية٠ وتذكرت كذلك الكتاب المسمى «تقرير آيرن ماونتين» « جبل الحديد » عن إمكانية وأفضلية أن يسود السلام (دار نشر دايال ــ نيويورك ١٩٦٧)٠ وآيرن ماونتين اسم موقع بأطراف بلدة هدسون بولاية نيويورك ٠٠ كانت تجتمع فيه على مدى عامين ونصف ، لجنة خاصة من العلماء في تخصصات مختلفة ، حشدتها الحكومة الأمريكية لتدرس إن كان قيام السلم ممكنا، وإذا كان ممكنا، فهل ذلك في صالح الولايات المتحدة أو ضد صالحها ؟ ووضعت اللجنة تقريرها، وصمم أحد أعضائها على ضرورة نشره ، وأعطى نسخة منه سرًا إلى الناشر، وأثار الكتاب زوبعة كبيرة عندما ظهر ؛ ولكنها بحكم طبائع الأشياء هدأت وتلاشت ولم يعد يذكرها أحد٠ وخلاصة التقرير أن سيادة السلام بعيدة الاحتمال ولكنها في حيز الإمكان٠ لكن الدراسة أثبتت أن من الأصلح لأمريكا أن تعيش تحت نظام حرب لا نظام سلام٠ وأن نظام الحرب يؤدي لأمريكا وظائف ليست لها بدائل مكافئة في نظام السلام٠ وتحلل الدراسة مزايا النظام الحربي في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والسكانية والعلمية والثقافية٠ وتستعرض بدائل هذه الوظائف في النظام السلمي ، وأن هذه البدائل قاصرة حتى الآن إذا قيست بنظام الحرب٠ على أن نظام الحرب لا حياة له إلا إن

قامـت فعـلا حروب وعلى فترات متقاربة ، بل تذهب الدراسة أحيانا إلى محاولة تحديـد هذه الحروب وعدد الضحايا اللازمة فى كل منها وتحديد الميزانيات اللازمة لذلـك. وقد تمنيت أن يكون الناس على وعى بهذه الأمور ، وقد أعطيت نسخة من الكتاب لمكتبة الشروق ، لعلها ترى رأيها فى ترجمته ونشره بالعالم العربى .. إن كان ثمة فائدة !

لعل الحرج الوحيد الذى يمكن أن تستشعره أمريكا من الحرب ، يكمن فى عدد الضـحايا من الجنود الأمريكيين. والمرجح لدينا أن حرب فيتنام لم تتوقف نتيجة رغبة صادقة من السياسيين ، ولكن نتيجة تذمر الشعب من جراء عدد الضحايا. ومنذ عقدة فيتنام ، يلاحظ أن الاستراتيـجـية العسكرية الأمريكة تحولت فى اتجاه «حرب بدون ضحايا ». ومن وسائل ذلك تأمين قوة جوية ساحقة ماحقة لا تستطيع قـوة أخرى أن تكون منافسة أو حتى مقاربة لها، تنطلق من قواعدها فى أمريكا أو من حاملات الطائرات فى البحار أو أراضى دول صديقة ، مع ترسانة من الذخائر والقذائـف والصـواريخ الـتى تمهد الأمور على الأرض تمامًا قبل أن تطأها أقدام الجـنود الأمريكيـين ، إذا لـم يتيسر للمهمات الأرضية جنود غير أمريكيين. وقد بلغـت للقدرة العسكرية الأمريكية شأوا يجاوز الخيال .. وما خفى كان أعظم. مع القدرة على خوض عمار أكثر من حرب فى وقت واحد.

الإرهاب والكباب !!

وشـكرًا للأسـتاذ عادل إمام الذى اختار هذا الاسم لفيلمه المشهور .. ويجىء الاقتباس هنا بمناسبة أن بعض الأصوات بدأت تتساءل إن كانت التجريدة العسكرية الأمريكـية الضـخمة علـى أفغانسـتان خالصة ومحتسبة فقط لوجه التخلص من الإرهاب، أم أنه من بعد معالجة الإرهاب تأتى مسألة الاستمتاع بالكباب ؟ إن سحق قـوات حكومة الطالبان عسكريًا لم يكلف حتى كتابة هذه السطور إلا شخصًا واحدًا هـو ضـابط المخابـرات الأمريكى الذى قتل خلال تمرد الأسرى فى سجن مزار الشـريف. وتصرح أمريكا الآن أنها أخطأت فى التخلى عن أفغانستان عندما انهزم الجـيش السـوفييتى وانسحب منها ، فهى إذن هذه المرة تنوى البقاء لمدة طويلة. ومهمـا بدت عملية الاستقرار السياسى فى أفغانستان وقبولها بحكومة موسعة شاملة

طويلـــة ومعقدة، فأمريكا ليست فى عجلة من أمرها٠ والوجود العسكرى الأمريكى المكـــثف فـــى هذه المنطقة يتيح لها ــ ولنفوذها ــ أن تكون قريبة من الصين ومن إيـــران ومـــن بـــاكســـتان ، وأن تكون قريبة من بترول دول بحر قزوين ٠٠ ومن المعـــروف أن العـــالم الآن لديه كفايته من النفط (٦٠ ــ ٧٠ مليون برميل يوميًا) ولكـــن عندما تبلغ الهند والصين مستوى كوريا الجنوبية فى التنمية بعد ٢٠ إلى ٣٠ ســـنة ، فـــإن احتياجاتهما النفطية ستبلغ ١٢٠ مليون برميل يوميًا ، ويومئذ ستتفاقم حاجة العالم إلى النفط ، فمن سيطر عليه سيطر على العالم٠

ولا يفـــوت أمريكا أن تدرك أن الموضوع غير خال من المنافسة٠ فإن روسيا عـــدوة الأمـــس وحليفة اليوم تعتبر أنها الأولى بذلك٠ ولا يقتصر الأمر على منابع البـــترول ، فدول بحر قزوين دول برية ، ولا بد لها فى تصدير بترولها من خطوط أنابيـــب تنقله إلى موانئ للتصدير٠ وكان فى تقدير بـــاكستان أن يمر خط الأنابيب بكـــابول ويصـــب فـــى كراتشى ، ولهذا عملت بـــاكستان دائمًا على وجود حكومة موالـــية لهـــا فى أفغانستان ، فاحتضنت حركة الطالبان وها هى قد ضاعت منها٠ ومن الناحية الأخرى فإن إيران كانت ترى أن يمر خط الأنابيب بأفغانستان ويصب فى موانيها لأن هذا هو أقصر طريق ، فكان من اهتماماتها ألا تستقر الأوضاع فى أفغانســـتان ٠٠ بيـــنما أغدقت روسيا عونها على قوات الـــجـــنرال « عبد الرشيد دوســـتم » الـــذى كان منذ الاحتلال الروسى شيوعيًا مواليا لموسكو ، وتحت ستار تأيـــيد أمريكا فى حربها ضد الإرهاب ، أرسلت روسيا السلاح والعتاد إلى دوستم ، يحدوهـــا الـــثأر من أفغانستان التى أذلتها وهزمتها وطردتها ، وتقوية مركز رجلها الأفغـــانى وجعلـــه أقوى عناصر التحالف الشمالى ، وهو تحالف متناقض لم يجمعه إلا الكـــره للطالـــبان ، وإن كـــان فـــى المـــرحلة الحالية يدعى أنه هو الذى حرر أفغانســـتان مـــن الطالبان (بمساعدة الطيران الأمريكى) ، ويدخل كابول (لا شك بإيعـــاز مـــن موســـكو) رغـــم معارضة أمريكا فى أن يدخلها حتى تتألف حكومة شـــرعية ، ففى رأيه أنه هو الحكومة الشرعية والسلطة القائمة التى انكمش نصيبها مـــن الأرض حيـــنا ، لكنها عادت من جديد٠ وليت شعرى ماذا تخبئ الأيام المقبلة لهذا التحالف ، سواء فيما بينه وبين أمريكا أو فيما بين بعضه وبعض٠

ولعـــل أمـــريكا تـــنظر كذلك إلى اليوم الذى يتداعى فيه العالم إلى إعادة إعمار

أفغانستان .. ولا شك أن إعادة إعمار أفغانستان يكون لها مردود إيجابى على إعادة إعمار أمريكا وتعويض خساراتها بوصفها من ضحايا الإرهاب. وستقوم الشركات الأمريكية بالنصيب الأكبر من هذا الإعمار (مع احترام نصيب شركات الدول المشاركة فى الحلف الأمريكى كل على حسب إسهامه) ، بينما تدفع الحساب الدول الصديقة التى اكتفت بالتأييد الشفوى للحلف لكنها لم تشارك بقواتها ولا حتى بمطاراتها ، والتى أنعم الله عليها بنعمة البترول ، ثم إنه إعمار لبلد إسلامى وغوث لشعب مسلم فأولى به المسلمون .. و« الناس لبعضها » كما يقال ويجعل الله بيت المحسنين عمارًا.

ولئن كانت الولايات المتحدة قد تلقت تلك الضربة الموجعة يوم ١١ سبتمبر، فقد أفضت تداعيات الأمور من بعدها على إقرار مركزها كزعيمة للعالم، وبايعت لها أوروبا ومعظم الدول بهذه الزعامة طوعًا أو كرهًا ، ونظرة مقارنة بين أمريكا وبين هيئة الأمم المتحدة تنبئ بوضوح أيتهما صاحبة الحول والطول ، ومن صاحبة الكلمة المسموعة. عضلات قوية لا تدانيها عضلات ، وذراعان طويلتان تصلان إلى أى مكان. أترى ذلك هو العولمة والنظام العالمى الجديد ؟ ومع ذلك فإن المستقبل لا يخلو من غموض ومن تحسب ..

فالقوة المفرطة قد تكون خطرًا إن لم تهيمن عليها حكمة على قدرها وبمقياسها، ويبدو لنناظر حتى الآن أن القوة فى أمريكا تتفوق على الحكمة.

والحلف الذى جمعته أمريكا قد لا يدوم ، بل ظهرت بالفعل وقت هذه الكتابة اختلافات فى الرأى سواء على لسان « تونى بلير » رئيس وزراء بريطانيا عن الخطوات التالية ، أو « شرويدر » رئيس وزراء ألمانيا الرافض لضرب العراق ــ بينما يتحمس له معسكر سياسى قوى فى أمريكا من أتباع السياسة الصهيونية ناهيك عن فرنسا وروسيا وغيرهما.

وتبذل السلطات الأمريكية جهودًا جبارة من أجل حراسة بلادها من أعمال إرهابية جديدة بتأمين الطائرات والمطارات ، وتشديد الحراسات ، والدقة فى إصدار الفيزات وتوسيع رقعة الاشتباهات ، وغير ذلك كثير ، لكن إن كان الإرهاب ينوى العودة ، فإنه طبعًا سيعود عن طريق « ما ليس كذلك » .. وليس فى المقدور سد كل منافذ الحياة.

وفى غضون ذلك ، فإن أمريكا معرضة للخسارة فيما هو أغلى عليها من المال والعقار بل حتى من الأرواح ، وهو حياتها الديمقراطية وتراثها النفيس من الحريات المدنية وحقوق الإنسان وخصوصيات الأفراد ، وأمريكا ليست مساحة على خريطة العالم ، قيم ومبادئ هى التى جعلت أمريكا ما هى ، والشعب الأمريكى يقدسها على أرضه ، حتى ولو تغافل عنها فى أراضى الآخرين. وكلما توسعت السلطات الأمنية فى سلطاتها ، كان ذلك على حساب روح أمريكا وشخصيتها. صحيح أن اعتبارات الأمن لها ضروراتها ولكن بميزان حساس ودقيق.. كالدواء السام الذى يكتب عليه تحذير « لا تتجاوز المقدار » ، إذ لو زادت الجرعة لربما قتلت المريض ، وقد صدرت بالفعل قوانين جديدة على الروح الأمريكية على غرار القوانين الاستثنائية والمحاكم العسكرية فى دول العالم الثالث. صحيح أن معظمها موجه إلى من لا يحملون الجنسية الأمريكية ، لكن السلطة غرارة ولا أظن أن هناك حكومة لا ترحب بمزيد من السلطة وإنما يكبحها الشعب عن ذلك فى الدول الديمقراطية ، أى الدول التى تستحق الاحترام. وأذكر عندما كنت أعيش فى بريطانيا فى الخمسينيات ، أن اجتاحت البلاد موجة من حوادث السطو المسلح على البنوك فى رابعة النهار ، وارتفعت الأصوات تطالب بوضع بوليس مسلح فى البنوك ، لكن انبرى لهم « هارولد مكميلان » رئيس الوزراء آنذاك قائلا : « إننا غير مستعدين للتضحية بطريقتنا فى الحياة فى محاولة يائسة للدفاع عنها ».. ورفض وضع بوليس يحمل السلاح فى البنوك. وأعتقد أن الساحة السياسية الداخلية فى أمريكا ستشهد قريبًا صراعًا كبيرًا حول هذا الموضوع ، وبدأت الأصوات والأقلام ذلك بالفعل.

فلسطين والعالم العربى والعالم الإسلامى

ولن نتناول هذه الجبهة هنا إلا باختصار شديد .. ومن الإيجابيات المعدودة تحذير حسنى مبارك من الإرهاب الذى يطال المصالح الأمريكية إن لم تجد مسألة فلسطين حلا ، ثم جاءت الأيام تصدق كلامه ، ثم إحجامه عن الزج بالقوات المصرية إلا فى الدفاع عن الوطن. كذلك رفض الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولى العهد السعودى دعوة واشنطن لزيارتها. ورفض لبنان تجميد أموال حزب الله، رغم إدراج أمريكا له ضمن الجماعات الإرهابية .. لكن إذا نظرنا النظرة

الواسعة الطويلة العريضة ، فإن منظر العالم العربى فى غاية السوء ، والمستقبل لا يبشر بخير . ويبدو أن إدراكه قاصر عن تبين معالم العالم الذى يعيشه فى عصرنا الحاضر . وفى التوزيعة الجديدة التى ستقسم الدول إلى سادة وعبيد ، لا يبدو أنهم وجدوا الطريق إلى مواقع السادة ولا حتى أن هذا الأمر يشغلهم أو يؤرق بالهم . ومازال العالم العربى يعيش خلافاته غير منتبه إلى الهوة السحيقة الداهمة . ومازال حذر الحكام من شعوبهم أضعاف حذرهم من أعدائهم . ومازال للكرسى الاعتبار الأعلى ، فعرفنا الرياسات الأبدية والجمهوريات الوراثية . ومازالت بعيدة فكرة تجميع الطاقات والموارد عمليا فى صورة سوق مشتركة أو صناعات مشتركة مدنية أو عسكرية ، أو جيش مشترك أو زراعة مشتركة . أما بالنسبة للمسألة الفلسطينية، فقد كان الأداء العربى على الدوام أضأل بكثير من مستوى التحدى ومداه . ولما قسمت الأمم المتحدة فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى فلسطينية، قامت الدولة الأولى ولم يظهر للدولة الثانية أثر؛ لأن مصر استولت على غزة، والأردن على الضفة الغربية حتى احتلتهما إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ .. والآن يحاول الفلسطينيون أن يحصلوا على شىء من ذلك فلا يستطيعون ، وانتهى الأمر بالدول العربية إلى الاكتفاء بموقع المشجع .. المترفون مستعدون للعون بشرط ألا يؤثر على ترفهم .. وهم على استعداد لإرسال المستشفيات أو الأدوية أو الأغذية أو الملابس والبطاطين وبعض المال ، أما الشراكة فى الجهاد والاستعداد لحمل تبعاته فمستبعد تمامًا . وأما الفقراء فمطحونون فى سعيهم وراء لقمة العيش . وبينما تقوم إسرائيل على سياسة أن جيشها هو شعبها ، فسياسة العرب هى استبعاد الشعوب تمامًا من المعركة . ولازالت الديمقراطية مغيبة .. وتزييف مظاهرها لا ينطلى على أحد فى الداخل ولا فى الخارج ، مع أن تجارب الأمم فى أرجاء الأرض ترينا أن الدول الديمقراطية هى الفائزة والدول الدكتاتورية هى التى تفشل ، لكن يبدو أن السلطة والتشبث بها أعز من الوطن والإخلاص له .

أما القيادة الفلسطينية فقد أصبحت فى الواقع هدفًا لانتقادات كثيرة شكلية وموضوعية لا نريد أن نتوسع فيها فى هذه الظروف .. وتتعرض لأزمة مصداقية لدى ناس كثيرين . وقد أعلنت نبذ العنف واختيار السلام وطريق

الـتفاوض. ويسـألنا البعض هنا فلماذا يتمسك رئيسها بلبس البدلة العسكرية على الـدوام ؟ ويتفكهون بتبرعه بدمه لضحايا ١١ سبتمبر مع أنه لا يعرف عنه تبرعه بـالدم لمصـاب فلسـطيني واحـد. ويلومـه الكثـيرون علـى أنه وقع فى خطأ استراتيـجـى كبير بعد حرب ٧٣ وذهاب السادات إلى إسرائيل مستقرًا على خيار السـلام وطـريق التفاوض .. فقد كان يجب أن يدرك أنه بغير مصر لا يمكن أن تحـل القضية الفلسطينية عسكريًا ، فلم يبق أمامه إذن إلا طريق التفاوض ، وأكبر فرصه التفاوضية كانت بالانضمام إلى السادات (فإذا لم تعجبه الأمور فهو حر فى الانسحاب من المفاوضات) فهذا يعطيه أكبر وزن يمكن لمفاوض أن يحصل عليه، ولحقـق أكـثر بكثـير ممـا هو متاح له الآن عن طريق المفاوضات. أما النكبة الاسـتراتيـجيـة الثانـية، فكانـت انحيازه لصدام حسين عندما غزا الكويت، تلك المصيبة التى صدمت العالم العربى ومزقته وأفقرته وأخرته قرنًا إلى الوراء.

أقـول هـذا تأسيسًـا على الواقع الذى صار والمنطق الذى ساد .. **وإن كنت مقتنعاً أن القضية الفلسطينية وغيرها من القضايا ليست عصية على الحل الكريم، ولكن ليس والحكام والمحكومون مستمرون على ما هم عليه، بل لابد من مفاهيم جديدة ونمط حياة مغاير.**

أمـا فـى يومـنا هذا، فتبدو بوادر اهتمام بالمسألة الفلسطينية، ويذكر الرئيس الأمـريكى لأول مرة تصورًا عن دولة يهودية ودولة فلسطينية تعيشان متجاورتين، ولا نـدرى مـا يأتى بعد ذلك، ولا ندرى إن كان بين الساسة الأمريكيين من يقدر الآن أن الانحـياز الأعمـى لإسرائيل يستلزم ثمنًا ويشكل عبئًا، وأن الوقت قد حان فعـلاً لتعيد أمريكا النظر فى سياستها الخارجية .. ولا ندرى ما يدور فى الأروقة السياسـية بعد أن كثرت الرحلات واللقاءات والزيارات لأوروبـا وأمريكا، ونسأل الله خير هذا اليوم وخير ما بعده.

وتسـتمر الانتفاضـة تؤكد على الأقل أن فلسطين ليست وطنًا بلا شعب يعطى لشـعب بـلا وطـن كما ادعت الصهيونية فى بادئ الأمر، وتتمثل فيها مقولة على غـرار مقولة الفيلسوف بمنطق « أنا أقاوم فأنا إذن موجود » .. وهى كل ما بقى للفلسطينيين من أمل وعصب ، **فعسى ألا تقمعها السلطة فى يوم من الأيام.** والذى أثبتـته الأيـام أن إسرائيل لن تتمكن من قمعها. وأعتقد أن الانتفاضة الأولى كانت

أنجح لأنها تسلحت بالحجارة فقط فكسبت عطف العالم ولم تنزلق إلى قتل المدنيين والأطفال بدل الأهداف العسكرية ، ويبدو لى أن « شارون » هو الذى أشعل الانتفاضة الثانية عن قصد بزيارته المسلحة للمسجد الأقصى، لإيجاد فرصة تنبذ فيها إسرائيل كل الاتفاقات والوعود السابقة لوزارة حزب العمل، والانتفاضة بلا شك تولم إسرائيل وتكلفها غاليا وبالمقابل فإن هدم البيوت وتجريف الزراعة، بهدف إلى اقتلاع جذور الفلسطينيين (وليس فقط جذور الأشجار) من هذه الأرض التى أعلن الصهاينة من زمان أن ليس فيها متسع لشعبين.

أما العالم الإسلامى ــ إن كان هناك على أرض الواقع عالم إسلامى ــ فمصيبته العظمى هى الفهم المغلوط للإسلام.

هناك من لم يفهموا الإسلام فخافوه ودعوا إلى قصره على باب الشعائر والعبادات فى النطاق الشخصى ، وساروا على المفهوم الغربى لفصل الدين عن الدولة، بل راحوا يحاولون تقليص ظل الإسلام فى مظاهر السلوك الشخصى، مثل تربية اللحية أو لبس الحجاب.. **ومن الطريف أن سيدة فى أحد أقطار الإسلام انتخبت نائبة فى البرلمان، ولكن البرلمان ألغى عضويتها لأنها تضع على رأسها الحجاب، فهى تعيش الآن فى أمريكا محببة ومعززة ومكرمة كاملة الحقوق وافرة الاحترام.**

وعلى النقيض من هؤلاء وعلى الطرف الآخر هناك الإسلاميون (!) الذين لم يفهموا الإسلام فعاثوا فيه تعسيرًا وتشويهًا وجمودًا ، وأدخلوا فيه الكره بدلا من الحب، والقسوة بدلا من الرحمة ، والغباء بدل الفطنة. فى إحدى محاضراتى ، لاحظت أن المسلمين لا يربط بينهم الحب ، فقام لى شاب بعد المحاضرة يقول: إنما كان الحب من أجل هولى وود (مدينة السينما) ولكننا هنا من أجل الإسلام. وأجبته بحديث النبى عليه الصلاة والسلام : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا .. ولن تؤمنوا حتى تحابوا ».

هذه العقلية الضيقة هى التى ألحمت على الإسلام «فقه العنف» فأباحت الجريمة باسم الدين واقترفت الإرهاب باسم الجهاد **واعتمدت على أن الغاية تبرر الوسيلة ، مع أن ذلك مرفوض تمامًا فى الإسلام ، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا .. حتى الحرب وضع لها الإسلام أحكامًا وآدابًا واضحة صريحة فى القرآن الكريم**

وحديث الرسول ، فليس للمسلمين أن يقاتلوا إلا المقاتلين ، وليس لهم أن يعتدوا على المدنيين ولا النساء ولا الأطفال ولا المتعبدين فى كنائسهم ومعابدهم ، أو يذبحوا الحيوان إلا للطعام ، أو يحرقوا الزرع ، أو يجهزوا على الجريح أو ينتهكوا الأسير ٠٠ وغير مقبول أن نعتذر بأن عدونا يفعل ذلك ، فعدونا يلقانا بما عنده ونحن نلقاه بما أمر به ديننا ، وما النصر إلا من عند الله ولو طال الأمد٠

إننا جميعًا نشكو من أن صورة الإسلام فى الغرب مشوهة ، فهل لا يدرك المسلمون أنهم مسئولون عن نصيب كبير فى هذا التشويه ؟

أعتقد أن العالم الإسلامى محتاج لمراجعة جذرية للتعليم الدينى ٠٠ ليست المراجعة التى تهدف إلى الانتقاص من رقعة الدين أو حذف الأيات التى تحض على الجهاد أو تغضب اليهود أو تحويل المجتمع عن طريق التعليم إلى مجتمع علمانى ٠٠ بل التى تكفل فهم الدين وفقه الأوليات وأسباب نزول الآيات وسياقها التاريخى وأحكامها التوقيفية أو التى تدور حول عللها، والتعليم الدينى مظلوم فى البلاد التى تتحمس للدين والبلاد التى تتحمس ضده٠ ونعلم أن عقلية الطالبان (التى بدأت حكمها « الإسلامى » بإغلاق مدارس البنات وتسريح النساء الموظفات) تخرجت فى مدارس أقيمت لأبناء اللاجئين الأفغان زمن الغزو الروسى ، بأموال حكومية أو أهلية تبرع بها المسلمون ، وكانت حصيلة ذلك التعليم ما رأينا٠ فإذا قال هؤلاء الآن: إنهم لا يوافقون على مفاهيم الطالبان ولا يقرون مسلك الإرهابيين لكان أولى بالمسلمين من بادئ الأمر أن يقولوا ذلك وبوضوح وبصوت مسموع ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام حين أمر بأن تنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا ، سألوه كيف ننصره ظالمًا فأجاب : « تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره .

على أن من الواضح لكل ذى عينين فى الشرق والغرب ، أن هناك تيارًا إسلاميًا حميدًا ورشيدًا يفهم الإسلام على حقيقته ويعتمد المحبة لا الكراهية ويرفض الانغلاق ويدعو إلى التعايش فى الداخل والخارج ، ولكنه للأسف الشديد مكبوت ومرهوب وموصوم ومضيق عليه ، ومهاجم من الأصوليين (!!) ومن الطمانيين على حد سواء ، ومخفى عن الأنظار فالناظر من بعيد لا يبصر من يمثل الإسلام إلا تلك النماذج الرديئة فيظنها الإسلام٠

وبعـــد ..

فقد فجر ١١ سبتمبر بركاناً .. إلا أن النظرة الهادئة ــ إن أبقينا رؤوسنا فوق المـــاء ــ ترينا أنه ليس أول الإرهاب .. وأن الإرهاب واقع باستمرار وفى أماكن كثيرة من العالم ولكنه اشتهر فى الحادثة الأخيرة لأنه أصاب العملاق الكبير أمريكا وأصـــابه إصـــابة فادحـــة. ونصيب المسلمين فى تلقى الإرهاب أوفى من نصيب غيرهم بكثير .. وكما يجىء الإرهاب من الخارج قد يجىء من الداخل ، وأصاب ذلـــك بلاذا كثيرة ، كما عرفته أمريكا فى مرات كثيرة ، مثـــل حادث أوكلاهوما أو رجـــل القنابل المنفرد ، أو أعمال العصابات فى شوارع المدن أو حوادث المدارس الـــتى يفجر فيها طلاب مدارسهم ويحصدون بالرصاص أرواح زملائهم، أو كارثة الجمرة الخبيثة الأخيرة، أو قتل الآباء أو الأبناء أو الأقـــربين .. والقائمة طويلة ! ذلـــك أن عصرنا الحاضر قد اتسم بإرخاص قيمة الحياة الإنسانية سواء فى الحرب أو فـــى السلم، والاستهانة بها، إذ لم تعد قيمة مقدسة كما كانت على الدوام، مادامت الأعـــراف الجديـــدة تجعـــل القـــيم تتراجع أمام منافسة الاعتبارات المادية أو اللذة الحسية.

نحـــن فى زمن المادية واللذة الحسية. زمن الأنانية والفردية والمطامع الدنيوية .. الـــتى تصيب الأفراد كما تصيب الأمم ، فتحيل العالم إلى غابة يأكل القوى فيها الضعيف.

الإنســـانية معرضة عن خالقها ، عابدة للقوة سواء أكانت علمية أم اقتصادية أم عسكرية .. فستتقدم وبسرعة ولكنها تتقدم نحو الهاوية. ولن تنجو الإنسانية إلا إذا أعيد وصلها بالله.

وكنا نأمل أن يكون للمسلمين دور فى تصويب المسار وبناء السلام ، فهم الأمة الوسط التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

والمســـلمون يســـتطيعون .. ولكن بشرط أن يكونوا حقـــاً مسلمين. فهل يكونون؟؟

* * *

العنف : من نيويورك إلى كابول

ضوابط العنف السياسى وآثار الحدث التاريخية

المستشار/ طارق البشرى

أولاً

لـم يكـن لمصـر، ولا لأى من البلاد العربية علاقة وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكـية، قـبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، فى منتصف الأربعينيات من القرن العشـرين. لقد عرفنا بعثات التبشير المسيحى الأمريكية منذ الخمسينيات من القرن التاسـع عشـر، عرفنا نشاطهم بين المسيحيين المصريين فى القاهرة والإسكندرية وأسـيوط، وعرفـنا نشـاطهم بين المسيحيين فى بيروت فى ذات الوقت. وعرفنا إنشـاءهم الجامعـة الأمريكـية فـى بيروت فى الستينيات من القرن التاسع عشر، وإنشـاءهم الجامعة الأمريكية فى القاهرة فى نهايات القرن ذاته، وقد بدأت كلٌ من الجامعات بنشاط يدخل فى مجال التبشير.

وكـان الاحـتكاك القليل الذى لامستنا فيه السياسة الأمريكية الرسمية فيما قبل الحـرب العالمـية الثانية، غير مثير للحماس فى الطموح لإقامة علاقات طيبة مع القائمـين بهـذه السياسـة. إذ زار مصر فى ١٩١٠ رئيس أسبق للولايات المتحدة الأمريكـية هـو تـيودور روزفلت (الأب) وعرفت لـه فى مصر ثم فى بريطانيا تصـريحات تؤيد الاحتلال البريطانى لمصر وتنتقد ما رآه من تساهل بريطانى مع المصـريين. ثم كانت مبادئ تقرير المصير التى أعلنها الرئيس الأمريكى ويلسون خـلال الحرب العالمية الأولى، مما أثار الأمل لدينا ولدى كل شعوب البلاد المحتلة فـى أن نعرف بعد الحرب نظام دولى يقوم على مبادئ الاستقلال والأخلاق، ولكن فوجـئ المصريون فى ثورتهم ١٩١٩ أن ويلسون نفسه صرح بالاعتراف بالحماية البريطانية على مصر، وإن ما رآه حقًا لبريطانيا فى إبقاء احتلالها لمصر.

علـى أن كـل ذلـك لم يكن عميق الجذور فى النفوس عندما شارفت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء ــ ونحن نذكر أن الجيل الذى تفتح إدراكه السياسى فى الأربعينـيات من القرن العشرين، من طلبة المدارس والجامعات، كان يطالع بشغف كتابًا ظهر وقتها بعنوان: «أمريكا الضاحكة» كتبه صحفى شاب متميز، قفز سريعًا إلـى صـفوف الصدارة فى الصحافة المصرية وهو «مصطفى أمين»، وكان يتلقى بعـض دراساته الصحافية فى الولايات. وعاد من هناك وأنشأ مع شقيقه التوأم على أمين مدرسة جديدة فى الصحافة المصرية، كان من بين ما تروج لـه الدعوة لنمط الحـياة الأمريكـية. ثـم جاءت بعد ذلك السينما الأمريكية، لتعرض هذا الأسلوب الجديـد مـن أنمـاط الحـياة، وساهم كل ذلك فى اضفاء طابع وردى جميل لهذا المجـتمع الـذى تأتينا صورته عبر المحيطات، مجتمع الرغد والرفاهية والحياة الناعمة العملية والباسمة. ولم تكن ثمة تجارب استعمار قديم تؤثر سلبًا على هذا الـنموذج المضىء، وكانت الخصومة التاريخية لمصر والسودان والعراق والأردن وفلسـطين هـى مـع الاحتلال البريطانى، كما كانت الخصومة التاريخية للمغرب والجزائـر وتونـس وسوريا ولبنان هى مع الاحتلال الفرنسى، وخصومه ليبيا مع إيطاليا. والولايات المتحدة بعيده عن هؤلاء جميعًا.

ولكـن لـم تمض شهور على نهاية الحرب حتى وجدنا الولايات المتحدة هى الدولـة الـتى آلـت على نفسها أن تتبنى الدعم الكامل للمشروع الصهيونى فى فلسـطين. وهـى الدولـة التى دعمت موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ نهايـة الحـرب، وخاصة هجرة يهود شرق أوروبـا فى سنة ١٩٤٦، وهى التى كفلـت الدعم السياسى لهذه الموجات من خلال قرارات المنظمة الدولية الوليدة، الأمـم المـتحدة، وهى التى مولت هذه الهجرات، وهى التى كانت فى مقدمة من أيـدوا مشـروع تقسيم فلسطين بين العرب واليهود فى سنة ١٩٤٧، ثم المبادرة بالاعـتراف بدولـة إسـرائيل فـى ١٥ مايو ١٩٤٨م عقب إعلان نشوء الدولة بدقيقتيـن اثنتين. وذلك كله دون أن يبدو من العرب فى فلسطين ولا فيما جاورها وما لم يجاورها من بلاد العرب، أى توجه معاد أو غير ودى للأمريكتيين.

ويكفـى أن نوضـح أثر هذا الموقف ومنها ينكر أن مصر التى قامت حركاتها الشـعبية علـى مـدى ثلـثى القرن السابق ضد الاحتلال البريطانى، فإن حركاتها

الشعبية لم تستفتح تحركاتها الاحتجاجية بعد الحرب العالمية الثانية إلا بحركة إضراب وتظاهر شملت غالب المدن المصرية فى ٢ نوفمبر ١٩٤٥م بمناسبة ذكرى وعد بلفور، الوعد الذى إصدرته وزارة الخارجية البريطانية فى ١٩١٧م بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وكانت هذه التحركات الشعبية هى إعلان بأن الشأن الفلسطينى قد صار صنوا بشأن الجلاء من مصر فى وعى المصريين وضميرهم.

ومن يومها لم تجد الولايات المتحدة سياسة أكثر ثباتًا من هذه السياسة التى تدعم الاستيطان الصهيونى لفلسطين على حساب العرب، وتدعم إخراج العرب من ديارهم وتصفية وجودهم المادى فى بلادهم، وتدعم التهديد الإسرائيلى للبلاد العربية المحيطة. ومن هذا يظهر أننا نحن العرب عامة لم نبدأ أى عراك مع الولايات المتحدة، ولابدأ ذلك أى من أقطارنا.

ثانيًا

أردت بالمقدمة السابقة أن أرسم ملمحًا عامًا للموقف الأمريكى بالنسبة للعرب حسبما وعته أجيالنا من أول من تفتح إدراكهم السياسى ووعيهم الجماعى بشئونهم العامة عند انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى الآن. وأن الولايات المتحدة الأمريكية بإصرار عجيب وبوضوح بواح وبصراحة جهيرة تقف مع إسرائيل فى كل عدوان تشنه على شعب فلسطين أو على أى من البلاد العربية، فى حرب ١٩٦٧، وحرب ١٩٧٣، واجتياح إسرائيل للبنان فى ١٩٨٢م، انتفاضة عرب فلسطين فى ١٩٨٧، وانتفاضتهم الثانية فى ٢٠٠٠، لا يكاد يشذ من ذلك قليلاً إلا العدوان الإسرائيلى على مصر فى ١٩٥٦ الذى بدأته إسرائيل باتفاق سرى مع بريطانيا وفرنسا وعاقبتهم جميعًا الولايات المتحدة على هذا التخفى بأن لم تهب لنصرتهم وتركتهم نهبًا للتهديد الروسى الذى أعلنه ضدهم وقتها، ولكنها عادت سريعًا إلى موقف التأييد الكامل.

ونحن فى هذه الأيام على التحديد، ومنذ انتفاضة الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة، أى منذ سبتمبر ٢٠٠٠م، لا نكاد نرى أو نسمع إلا أحداث الضرب والإبادة وهدم البيوت وقطع الأرزاق

والـتجويع، تمارسه العسكرية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، ولا نرى ولا نسمع إلا التأييد المباشر من الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل، وإلا ضغوط الولايات المتحدة على الحكومات العربية؛ لتكف أى إمكانية عربية رسمية أو أهلية، لدعم مقاومة الشعب الفلسطيني، مع ما تقدم الولايات المتحدة من دعم لإسرائيل فى الهيئات الدولية. ثم هذه السياسة الأمريكية والتى تضرب العراق فى كل يوم لعشر سنوات بعد معركة انتهت فعلاً وزالت. إن الولايات المتحدة التى عانت من ضرب اليابان للأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر، كانت بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب العالمية عام ١٩٤٥م، كانت هى من يدعم الاقتصاد الياباني ويمده بالمال والخبرات اللازمة لبناء الصرح الياباني الاقتصادى الذى نراه فى أيامنا هذه. فهل كانت «جريمة» العراق فى نظر الأمريكيين أكبر من جريمة اليابان فى بيرل هاربر؟ وكذلك الأمر بالنسبة لألمانيا الخصم المحارب فى الحرب العالمية، لم تمر السنوات العشر على انتهاء الحرب، إلا وكانت الولايات المتحدة تساهم فى بناء قلعتها الصناعية، فهل كان احتلال العراق للكويت أكبر إثمًا لدى المتطهرين الأمريكيين من إثم هتلر والحكم النازى فى ألمانيا الذى كبد العالم حربًا دامت ست سنوات وسقط فيها اثنان وثلاثون مليونًا من القتلى.

يمكن طبعًا أن نقول إن ظروف الحرب الباردة بين المعسكر الغربى بقيادة الولايات المتحدة والمعسكر الشرقى بقيادة الاتحاد السوفييتى هى ما دعا لهذا المسلك الأمريكى المتسامح والمتغير من العداء إلى التحالف، ولكن لا ننسى هنا أيضًا أن سياسة الرئيس السادات كانت تتلخص فى أن تسير مصر والبلاد العربية فى طريق الصداقة والتحالف مع الولايات المتحدة، وإن ذلك من شأنه أن تستغنى الولايات المتحدة عن موقف الصديق الإسرائيلى الوحيد لها فى المنطقة فتنحاز إلى العرب فى قضيتهم العادلة، أو الأقل تتخذ موقف الحياد. ولعل مما يدعم هذا التصور السادات أن انتهت الحرب الباردة وسقط المعسكر الاشتراكى المواجه لأمريكا، فلم يبق ثمة خوف من احتمال انحياز أى من دول المنطقة إلى خصم لها. ومع ذلك ورغم كل ذلك، بقى الموقف الأمريكى المؤيد والمدعم فى صراحة وتصميم لإسرائيل فى عدوانها على الشعب الفلسطيني، وفى تهديدها لأى من بلاد العرب والمسلمين.

وأنا أوثر هنا أن أتكلم عما نشعر به ونفكر فيه بفعل ما عايشنا من أحداث عامة في ربع القرن الأخير. وأنا هنا لا أناقش للسياسات الأمريكية، والساسة الأمريكيون أعرف بشئون دنياهم وبما يفيدهم وما لا يفيدهم. إنما أشير فقط إلى أمور، الأول إنهم لا يحسبون حسابًا لرضائنا أو لغضبنا، ولا يهمهم ما قد نصل إليه من الغضب مهما زاد قدره، إنه سواء لديهم أرضينا أو غضبنا، وسواء لديهم بادرناهم بالمودة والصفاء أو لم نفعل ووالينا وجوهنا عنهم. بل أكاد أقول إننا كلما أبدينا الرضا وعرضنا المودة والصفاء، كلما زادت درجة استغناء الساسة الأمريكيين عن ذلك وكلما زدنا هدانًا عليهم. وذلك إلا أن يتراكم لدينا قدر من الغضب يهدد المصالح المرعية من الساسة الأمريكيين في المنطقة العربية، فيجرى التفكير في كيفية تفادى الأثر الضار المحتمل لهذا الغضب أو التخفيف من أثره. وأن ما يهمهم هو «الأثر» الذى يمكن أن يترتب على الغضب وبكونه محتويًا على إضرار محتمل.

ونحن أعز على أنفسنا بطبيعة الحال من أن نرضى بوضع مثل هذا الوضع، سيما أن الأمر ليس أمرًا انفسانيا، إنما هو سياسة هجرات صهيونية واستيطان وطرد للعرب والمسلمين وإزاحة لهم وتهديد لأمن دولنا.

ثالثًا

إن حادث نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ونسبته، غير المحققة وغير الثابتة، إلى من اتهمتهم الإدارة الأمريكية يثير مسألة أولية وهى: ما هو موقفنا الفكرى والسياسى من مثل هذا الفعل. ونحن نعرف أن الحرب على الأفغان شنت من جانب الولايات المتحدة تحت مظنة غير ثابتة وتحت افتراض غير متحقق ولا محقق، ونعرف أنه بعد ساعات محدودة، قيل إن ثمة عشرات الألوف من خبوط التحقيق تتبع وأن عشرات الألوف من المحققين ينشطون في البحث. ثم بعد ساعات قليلة قيل إنه فلان هو من دبر الحادث وإن بلاد الأفغان هى من يأويه، ولم يقدم أى دليل يثبت أمرًا ولا قرينة تشير إلى أمر، ثم قامت الحرب في ٧ أكتوبر، لا بعد أن ثبت شيء ، ولكن بعد أن أحكمت السياسة الأمريكية خطة الغزو والتدمير لأفغانستان، وبعد أن أجرت ضغوطها ومساوماتها مع الدول

المجـــاورة لضمان التسهيلات الضرورية لها. ثم بعد شهرين من القصف والتدمير والتقتـــيل فى الأفغان، صرح الرئيس الأمريكى وحكومته أنهم وجدوا شريط ڤيديو فـــى بعـــض المـــنازل المدمرة «يثبت» الفعل والفاعل، وهكذا وقع العقاب الغليظ ودمـــرت بلـــد وشرد مئات الآلاف من المواطنين وسقطت حكومة، وطورد رجال وجاع شعب وقتل الآلاف، ثم بعد ذلك خرج كبير الساسة الأمريكيين على قومه فى زينـــته، وذكـــر أنهـــم عـــثروا فى خرائب منازل المدن المدمرة على شريط ڤيديو «يثبت» الجريمة ويحدد الفاعل لها. ونحن هنا لا نقاضى ولا نحاكم ولا ننقد، ولكننا فقط نثبت لأنفسنا وأمام غيرنا أننا قادرون على المحافظة على صفاء الفكر وصفاء الوجـــدان، ولأنـــنا باقون على شموخ من يتقون بما يملكون من حق ومن قدرة على الإباء. ومن هذا الموقع نتحدث عن موقفنا من العنف السياسى.

فنحـــن نعـــرف أن الصراعات السياسية تتراوح بين الأعمال السلمية والأعمال العنـــيفة، وتتراوح أيضًا بين الأعمال المشروعة والأعمال غير المشروعة. ونعرف أن العـــنف فـــى السياسة هو واحد من أساليب الصراع السياسى، وهو مرحلة من مـــراحل الاشـــتباك السياسى، وأنه مثـــل الجراحات التى تجرى فى جسم الإنسان. فحيـــث لا يجـــدى العمـــل السلمى أو المعالجات العادية، وحيث تنسد أبواب العلاج الســـلمى لأزمـــات متفاقمة، استخلاصًا لحق مفترى عليه أو تحقيقًا لمصلحة حيوية مضيق عليها، هنا ترد وسيلة العنف بحسبانها أسلوبًا لحسم الصراع السياسى، وهى فى أحيان كثيرة تتداخل مع الوسائل السلمية كلٌ بقدر.

والعـــنف السياســـى لـــــه عـــدد مـــن الأساليب والمراحل، فمنه مثلاً إحداث الاغتـــيالات السياسية أو إحداث التدمير لأبنية أو لمواقع، عندما يكون مقصودًا بأى من هذه الأحداث توليد آثار سياسية معينة، مثـــل التخلص من أشخاص معينين، أو التنبـــيه إلى أن ثمة من سيعاقب من يقوم بمثل ما كان يقوم به المجنى عليه من دور سياســـى، أو مجـــرد إشـــاعة جو الاضطراب وعدم الاستقرار فى مواجهة إحدى الحكومـــات. وقـــد مـــورس هذا الأسلوب فى كثير من الحركات السياسية. وعرفته حـــركات سياســـية ســـليمة اتخـــذت من هذا النوع من العمل العنيف أسلوبًا مكملاً لوســـائلها «السلمية» «المشروعة» من مظاهرات واضطرابات واعتصامات، وذلك على طول القرنين الماضيين وعلى احتلات بلاد العالم.

وقد جرى ذلك كلما كان ثمة تفاوت بين الحجم النسبى لقوه سياسية معينة أمام قوة أخرى. مع انغلاق الطريق أو ضيقه الشديد فيما هو متاح لهذه القوة من أساليب النشاط السلمى المشروع ومن خلال المؤسسات المعترف بها. أو كلما ظهر انسداد لطريق التحقق لمطلب شديد الإلحاح لجماعة معينة.

ومن أساليب العنف السياسى أيضًا ما يسمى بأسلوب حرب العصابات، وقد اتبعته غالبية حركات التحرير الوطنية فى البلاد المستعمرة التى لم يقبل المستعمرون فيها تحركها ولا الاعتراف باستقلالها، إلا بعد ممارسة العنف معهم. وهو يرد أساسا بين حركات شعبية أهلية تستخدم وسائل العنف فى مواجهة جيوش نظامية محتلة، وهى لا تمتلك إلا أدوات قتال بدائية أو أقل تطورًا بما لا يقارن بالنسبة لما تملكه وتستخدمه الجيوش النظامية المحتلة، ولذلك فهى تتبع أساليب عمل تتلاءم مع قلة السلاح وبدائيته، مع ضعف الخبرة الفنية، التى لا تملكها إلا الجيوش النظامية. ولذلك فإن هدفها الأساسى ليس هزيمة العدو هزيمة عسكرية فى معارك حرب، بل لعلها تتفادى دائمًا المعارك الفاصلة والمواجهات الحاسمة، إنما هدفها مناوأة العدو ومناوأة جيشه المقاتل؛ لتجعل من وجوده واستمراره عبئًا اقتصاديًا وبشريًا وقتاليًا، عبئًا لا يحتمل على المدى الطويل، ولتجعل الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية للاحتلال الأجنبى أهدافًا غير متحققة أو شديدة التكلفة بما يتعين معه النظر فى جدوى بقائهم الذى يكبدهم الخسائر دون فائدة مقابلة.

وأشد أساليب العنف السياسى بطبيعة الحال هى الحروب النظامية التى تقوم بها الجيوش التابعة للدول. وهى لا تحتاج إلى شرح ولا إلى إيضاح، إنما يكفى أن نقول إنه كان من النادر جدًا أن تتخذ حركات التحرير أسلوب الحروب النظامية، لأن الجماعة السياسية الوطنية فى الغالب الأعم لا تكون مسيطرة على الحكم فى بلدها، مادام الاحتلال الأجنبى العسكرى جاسم على أرض الوطن، ولا يجرى احتلال عسكرى أجنبى، إلا ويسيطر عادة على الإرادة السياسية للبلد المحتل ممثلة فى حكومة هذا البلد، فتواجه الحركة الوطنية بوسائل الكفاح السلمى كما حدث فى مصر والهند، أو بوسيلة حرب العصابات كما حدث فى الصين وفيتنام. ثمة حالة يحتل فيها العدو جزءًا من أرض الوطن بعيدًا عن حكومة هذا الوطن وعن إرادته

السياسية، مثل احتلال إسرائيل لشبه جزيرة سيناء من مصر أو لمرتفعات الجولان من سوريا، وهذه هى الحالات النادرة التى قامت فيها حرب نظامية وطنية لتحرير ما احتل من أرض الوطن، غير هذه الحالات.

رابعًا

إن العنف فى تقديرنا ليس مرفوضًا بذاته ولا مقبولاً بذاته ، إنه وسيلة من وسائل حل الصراعات السياسية، والحكم عليه بالصواب والخطأ هو من مباحث علم السياسة، وهو يتعلق بالضرورة وبالإمكانية وبالجدوى، وإن العنف هو أشد الوسائل تعريضًا للناس للخسائر، سواء الضارب أو المضروب، وهو أفدح الوسائل تكلفة، والكاسب به خاسر بقدر ما فقد وما تكلف. لذلك لابد أن تتوافر الضرورة هنا، والضرورة لا تتوافر إلا بأن تكون للمصالح المطلوب تحقيقها حيوية جدًا للجماعة فى وجودها وفى استمرارها، وأن تكون دفاعًا عن حق سافر وظاهر، ليس غامضًا ولا ملتبسًا ولا متنازع على وجه الأحقية فيه. ولابد أيضًا مع توافر الضرورة أن تنعدم وسائل تحقق المصالح الحيوية أو استرداد الحقوق الظاهرة بغير طريق العنف.

هذا عن الضرورة التى وصفها القرآن الكريم فى محكم التنزيل بعبارته المحكمة بالغة التركيز ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ولفظ ﴿ كُتِبَ ﴾ يشير إلى الضرورة التى لا محيص عنها، والكره يشير إلى ما يصحب الكسب من خسائر، والخير يشير إلى المصالح المتحققه من بعد.

ثم يرد بعد ذلك شرط «الإمكانية» فمن الواضح أنه مالم توجد إمكانية فلا عمل، ثم يرد شرط الجدوى وهو أن تكون الوسيلة مفضية إلى تحقق الغايات من الناحية العملية المقدرة تقديرًا واقعيًا. بمعنى أن يكون المعول عليه فى التقدير هو القدرة والفاعلية، أى مكنة العمل وأثر العمل.

ونحن إذا استقرأنا حالات استخدام العنف فى حركات التحرير الوطنية، ابتداءً بالثورة الأمريكية على بريطانيا وعلى القوات البريطانية فى أمريكا، أو تحرير

فرنسا وأوروبا من النازى، أو فى بلاد العرب والمسلمين، أو فى الشرق الأقصى، فى الصين وفيتنام، أو فى أفريقيا جنوب الصحراء، أو فى بلاد أمريكا اللاتينية، إذا استقرأنا هذه الحالات من أحداث التاريخ المعاصر، نلحظ اجتماع عناصر الضرورة والإمكان والجدوى، ونلحظ تطبيقًا لذلك، أنه لا يقوم تصارع على أرض للخصم فيها مزية تفضل مزية حركات التحرير، وألا يقوم التصارع فى وقت هو لصالح الخصم أكثر منه لصالح الحركة. وكذلك ألا تتخذ فى الصراع من الوسائل ما يكون لدى الخصم فاعلية فيه تفوق فاعلية حركة التحرير المعنية.

وأن خصوم حركات التحرير هم عادة الأقوى من حيث السلاح وأنواعه ومن حيث المال والقدرات المادية ومن حيث التنظيم المحكم ومن حيث المعلومات ومن حيث الإعلام. ولكن حركات التحرير تكون أقوى وأفعل من حيث إنها تمثل «الجماعة» بطولها وعرضها واستمرارها، ومن حيث إنها تدافع عن حق تقرره أو تسترده، ومن حيث قدرة الجماعة على تقديم التضحيات والبذل والعطاء بغير مقابل، ولا ننسى مقولة سيد قطب الشهيرة، إن الله ــ سبحانه ــ لم يعد المجاهدين بالنصر، إنما وعدهم بالجنة فقط، بمعنى أنه حتى الهدف النبيل المتعلق بالانتصار على الظلم أو العسف قد لا يكون متاحًا فى القريب وقد يتراخى عن أفعال التضحية بما لا نعرف ولا نستطيع أن نحدد من زمان، ولكننا حتى فى هذه الحالات مأمورون بالجهاد وبالبذل والتضحية بالنفس. كما أننا لا ننسى كلمة كارل ماركس إن المضطهدين لن يفقدوا فى كفاحهم إلا الأغلال والقيود؛ لأنهم لا يملكون غيرها.

والمزية الأخرى، أن من يصارعون من أجل تحررهم إنما يكافحون عن ذواتهم، ذلك أنهم ليسوا طرفًا فى صراع غيرهم، إنما هم موضوع الصراع، الجماعة المدافعة هى أيضًا موضوع الصراع وليست مجرد طرف فيه، هذه الخصوصية التى توحد بين «موضوع» الصراع وبين «طرفه المكافح» هى أهم مزية تضمن تفوق هذا الطرف فى نهاية الأمر، سواء جرى الصراع بأى من وسائل العنف، أم كان صراعًا سلميًا ومشروعًا. لأن الجماعة هى أصل الشرعية، ولأن رضاءها أو عصيانها هو ما عليه المعول فى نهاية المطاف. لذلك فإن مجامع قوة حركات التحرر ليست فى السلاح والقدرة على التدمير، ولكنها فى الانتشار بين الجماعات بما يستحيل معه على الخصم أن يفعل، وهى ليست فى المال والعتاد ولكنها فى العطاء البشرى الذى يقدم بذلاً بغير مقابل مادى.

خامسًا

وأيضًا من استقراء أنشطة حركات التحرر نلحظ أنها عندما استخدمت العنف إنما التزمت بعدد من الضوابط، لا أخال أنها تجاوتها أو خرجت عليها إلا فى النزر اليسير، ولا أظن أن هذا الخروج كان مفيدًا أو مجديًا دائمًا لحركات التحرر. هذه الضوابط تتمثل فى أن العنف «المشروع» لا يستخدم إلا ضد الأجنبى المعتدى على الوطن، ولا يستخدم إلا فى الإطار الجغرافى للأرض المحتلة، ولا يستخدم إلا مع أطراف الصراع، أى من هم مشتبكون اشتباكًا مباشرًا فى علاقة الصراع القائمة.

وبهذا فإن العنف المعنى هنا الذى تمارسه الجماعات الشعبية إنما يستمد مشروعيته من أنه يشكل حركة تحرير وطنى، أى أنه يرد عدوانًا أجنبيًا محققًا وموجهًا ضد الجماعة. وبهذا فهو عنف يستخدم ضد الأجنبى المحتل، فلا يمارس ضد مواطنيها، سواء كانوا من جماعات أهلية أو حكومات وطنية، وهو كذلك لا يمارس مع أجانب ليسوا محتلين وليسوا أطرافًا فى علاقة الصراع القائمة، ولا يمارس إلا ضد كم يصدق عليهم وصف أنهم ممارسون للاحتلال والاغتصاب، سواء كانوا جنودًا رسميين أو مغتصبين ومقاتلين بزيهم المدنى.

ومن جهة أخرى، فهو يمارس فى حدود أرض الوطن بمعنى أنه لا يجاوزها إلى غيرها، ذلك أن أهم «سلاح» فى كل حركات التحرير أنها «صاحبة حق» وأن حقها يدور فى إطار الحدود الجغرافية للوطن، بحيث إنها تتحول إلى التعدى فور تجاوزها هذه الحدود؛ كما تتحول إلى التعدى فور توجيهها العنف ضد غير المعتدين على أرض الوطن، مواطنين كانوا أو أجانب مسالمين. ومن جهة أخرى فإن قوى الاحتلال إنما تبرر فعلها وسيطرتها واغتصابها أوطان الآخرين، تبرر ذلك دائمًا بدعوى ما من دعاوى العالمية أو الوحدات السياسية الأوسع أو التكتلات أو دعوى تخلقها خلقًا تفيد إمكان رفع أى شعار يتعدى حدود الأوطان.

وأن الحركات الوطنية عندما تقوم بنشاطها خارج حدود وطنها، إنما تقع فى هذا الفخ المنصوب لها؛ إذ تكون بدأت تتحرك على الأرض الفكرية لدعاوى خصمها، فهى لن تستطيع أن تبرر فعلها المتعدى إلا من خلال الزعم بأن لها «حقًا» فى «الخروج»، وهو ذاته ما يصنعه الطرف المخاصم. إن قوى الاعتداء

تعمل دائمًا على إزالة الحدود وهدم الحوائط التى تميز كل وطن وتحدد المجال الجغرافى لحقوق شعبه، وإن كلا من الأوطان غير الطامعة فى غيرها تجد فى هذه الحدود والحوائط أمنًا لها وحماية، ومجالاً لشرعية الفعل ولإعمال الحقوق أى للسيادة. والتعدى بالفعل على هذه الحدود، لن يفيد إلا ما نسميه الآن قوى «العولمة» الهادفة إلى السيطرة على الآخرين.

وهكذا فإن حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، من وجهة النظر السياسية ومن وجهة نظر تراث حركات التحرير الوطنى، هو حادث لا ينتمى إلى ما تعارفت عليه حركات التحرير الوطنية، سواء فى البلاد العربية والإسلامية أو فى غيرها من بلاد آسيا وأفريقيا، وذلك فى العصر الحديث. وهو حادث يعطى للمعتدى مبررًا وسندًا معنويًا ليمارس المزيد من القمع والاعتداء؛ لأنه يظهره بمظهر المدافع. وإذا كنا نستنفر أخلاقيات العالم ضد قتل الأبرياء منا، فإن الحادث قتل أبرياء، وإذا كنا نتحصن فى حدودنا الدولية ونهيب بالعالمين احترامها واحترام إرادتنا داخلها وسيادتنا عليها وأمننا فيها، فإن مما يتناقض مع هذا الموقف ألا نفعل ذات الصنيع مع غيرنا.

أقول ذلك وإن الحادث غريب عما تعارفت عليه حركات التحرر الوطنى. لأننى لا أعرف من الذى فعله، ولم يقدم إلينا نحن الذين عايشنا هذا الحدث فى العالم كله، لم يقدم لنا أى دليل يفيد أو يرجح أن شخصًا معينًا أو تنظيمًا محددًا أو جماعة معروفة هى من قام به. وأنه لا يمكن أن تقوم حجة أو تبرير من هذا الحادث المجهول الفاعل إلى الآن، لا تقوم حجة فيه لضرب أفغانستان وأعمال أنشطة القتل والتدمير والتشريد التى تتم.

سادسًا

يبقى للحديث السريع عن الأثر السياسى لحادث ١١ من سبتمبر ٢٠٠١م. فإن من ارتكبه أيًا كان موقعه أو انتماؤه، إنما ارتكبه فى الغالب؛ ليصدم الأمريكيين ويشعرهم بعد الأمان، ويشعرهم بأن ثمة مخاطر يمكن أن تثور فى داخل بلادهم. ذلك أن الشعب الأمريكى منذ حرب الاستقلال ــ من أكثر من مائتى سنة ــ لم يذق أبدًا طعم أن يهدد فى عقر داره، والولايات المتحدة محاطة من شرقها وغربها

بأوسع مساحة مائية فى الكرة الأرضية وبأكبر محيطين فى العالم. ولم تصل إليها معركة حربية قط إلا معركة بيرل هاربر بغرب الولايات المتحدة، عندما دمرت الطائرات اليابانية الكثير من قطع الأسطول الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية.

والحادث كما ذكر بعض المعلقين السياسيين جاء بالولايات المتحدة إلى واقع الأرض التى نعيش عليها، بعد أن كانت متشامخة فى السماء خارج كوكبنا الأرضى. إذ صارت دولة يمكن أن يفعل بها ما يفعل فى غيرها من كل بلاد العالم، قوية أو ضعيفة، غنية أو فقيرة. ولم يعد أمنها فقط فى جغرافيتها السياسية المعزولة عن قارات العالم القديم، ولا فى حائط الصواريخ المزمع إنشاؤه. وأمريكا كانت تنقل معاركها دائمًا خارج أراضيها، ولم تجرب من قبل أن يكون «الداخل» لديها أرضًا لمعركة.

والولايات المتحدة الأمريكية فى سياستها الخارجية، بعد أن كانت تصاول الاتحاد السوفييتى بوصفه القوة النووية الثانية فى العالم، وتناوئ المعسكر الاشتراكى الذى يضم الصين وشرق أوروبا مع الاتحاد السوفييتى ويشكل نحو ثلث سكان العالم، وبعد أن حققت تقدمها فى ذلك، فهى اليوم تحارب دولة أفغانستان. البلد الذى بقى مستقلاً طول عمره ــ باستثناء الاحتلال السوفييتى ــ لأن دول أوروبية أو غربية لم تطمع فى احتلاله من قبل، بسبب أن مغارمه تفوق مغانمه. وشعبه الآن بضعة وعشرون مليونًا يسكنون الجبال، وينتظمون فى القبائل وتربطهم عقيدة الإسلام فى أبسط تفاسيرها وتصوراتها.

إن غزو الولايات المتحدة لأفغانستان وتدمير مدنها وتدمير آلتها العسكرية البدائية الضعيفة، كل ذلك أمر حتمى ولا يتصور أن تفشل فيه الدولة الغازية بعد أن عزمت عليه ونجاح الولايات المتحدة فى غزو أفغانستان ليس مما يجوز أن تفخر به صاحبة أكبر ترسانة عسكرية فى العالم وفى التاريخ. وليس من عاقل ولا غير عاقل يستبعد أن تنجح أى دولة عظمى أو دولة كبيرة فى غزو دولة من دول العالم الثالث، سواء فى القرن التاسع عشر أو فى القرن العشرين أو القرن الواحد والعشرين. والتحدى لا يظهر فى مرحلة الغزو والاعتداء، إنما يظهر من بعد فى مراحل ما يراد من استقرار وإمساك بالزمام؛ لأن ذلك لا يعتمد على القوة العسكرية والكفاءة القتالية وحدها، ولذلك فإن آثار الحدث الأفغانى لم تتم فصولها بسقوط حكومة طالبان ولا بضرب معاقل التنظيمات السياسية فيها.

ومـــن جهـــة أخرى، فإن الولايات المتحدة هنا لم تبدأ حربها إلا بعد أن أجهدت نفســـها فـــى كســـب دعـــم الدول الأخرى لها، الأوروبـــية ثم روسيا ثم دول آسيا المحـــيطة بأفغانســـتان، ثم كسب سكوت الصين. وهى فى ذلك لم تعتمد على قوتها وحدهـــا، إنمـــا على التفاهم مع الآخرين استعمالاً لأراضيهم أو ارتكانًا على دعمهم المعـــنوى أو ســـكوتهم، وأن من حارب بقوة غيره لابد أن يدفع الحساب ولا يحتكر ثمـــار النصر لنفسه، سيما إذا كان دائم الاحتياج إلى هذه القوى المحيطة «بالموقع» وما تملك من صلات عضوية وثيقة، حضارية وتاريخية وجغرافية وعرفية ولغوية ودينية، بذات الشعب المراد إخضاعه.

والحاصل أن القائمين على سياسة الولايات المتحدة فور أحداث سبتمبر أظهروا أمـــام العـــالم مـــالم يكـــن ملحوظًا للكافة من اضطراب وضعف وتردد وحيرة فى التصـــدى للمشـــاكل المفاجـــئة، كما ظهر أن قوتها العالمية لم تمكنها من السيطرة المـــنفردة إلا بدعـــم مـــن دول أخرى، بشروط هذه الدول الأخرى وبتحفظات من جانبها.

وكـــل ذلك هو من مظاهر نسبية القوة الأمريكية، وأنها قوة مهمّا كان جبروتها فهـــى محدودة، وقد لا يفيد ذلك من هم فى مثـــل ضعف شعوبنا الأفروقية الآسيوية فـــى المـــدى القريب، ولكنه لا شك دخل فى حساب تعاملات الدول الكبرى بعضها مـــع بعـــض؛ إذ يطمع غالبها فى أن يكون لـــه فى الموازين الدولية أكثر مما لـــه الآن، وذلك فى مواجهة الولايات المتحدة.

والخلاصـــة فـــى الـــنهاية فإن الحدث كشف ثلاثة وجوه للضعف فى السياسة الأمريكية:

الأول : نقص نظريتها عن الأمن إذ اتاها الخطر من داخلها.

الثانى : اضطراب وصولها إلى القرار وما كشف من اندهاش وحيرة.

الثالث: إنها تحارب معتمدة على قوة غيرها وليس على قوتها وحدها.

وكذلك الحادث يرهص بأننا فى بداية البداية لنظام عالمى تعددى، أى نظام متعدد القوى والأقطاب. سيما أن الحدث الأفغانى قد نكش عُشٌ وسط آسيا، وجعل هذه المنطقة بؤرة مهمة من بؤر الصراع العالمى فى العقود المقبلة، وهى منطقة تحيط بها الصين والهند وپاكستان وروسيا وإيران ودول الشرق الأوسط، والصراع حولها الآن هو بداياته الأولى.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠].

والحمد لله

* * *

الإرهاب ليس لـــه دين

عالم المسلمين بعد ١١ سبتمبر

د. مراد ويلفريد هوفمان

يـــوم ١١ سبتمبر، حينما رأيت ما حدث فى نيويورك، وواشنطن، انتابنى حزن لا حدود لـــه، على ما يستطيع البشر القيام به تجاه بعضهم البعض، عندما تحكمهم الكراهـــية. فـــى الـــبدء، ظننت أن الإرهابيين اليابانيين، قد أخذوا بثأرهم متأخرين لمقـــتل ٢٧٤,٠٠٠ مدنى برىء فى هيروشيما ونجازاكى عام ١٩٤٥م. لكن سرعان ما ألقى اللوم كل اللوم فى هذه الجريمة الهائلة على «الإرهاب الإسلامى»، ووجدت نفسى أدعو الله: «ياالله تعالى، احفظ عبادك المسلمين»!.

إن اعتـــبار المسلمين أجمعين مذنبين لكل ما يفعله أى واحد منهم، أو بالأحرى أى عـــربى، مسلم كان أم غير ذلك، أصبح تقليدًا متبعًا منذ زمن طويل. على الرغم مـــن ذلـــك، فالإحصائيات تبرهن على أن الهجمات ضد الأمريكيين، قد حدثت فى معظمهـــا فـــى أمـــريكا اللاتينية وأمريكا الوسطى. مع ذلك فإن الإرهابيين اللاتين، والكـــروات، والصـــرب، والصهاينة، والانجليين الذين يشملون هؤلاء القابعين فى أيرلـــندا الشـــمالية، وكورســـيكا، لم يطلق عليهم اسم «الإرهابيين المسيحيين» على الإطلاق. نتيجة لهذا الازدواج فى المعايير، فقد انتشرت الفكرة الخاطئة التى تقول: إن العنف هو من اختصاص الإسلام.

مـــن الصـــحيح أيضًا، أنه بسرعة عقب «٩/١١»، قد خرجت الرموز السياسية الكـــبرى مثـــل الرئيس بوش، ورئيس الوزراء بلير، والمستشار شرودر؛ لتعلن عن الـــتمايز بيـــن الإسلام ذلك الدين العالمى المحب للسلام، وبين الإسلاميين أصحاب العـــنف (المتطرفين ــ الأصوليين). كان دافعهم بالطبع هو الخوف. لقد شهدوا لكل الأديـــان بحـــب الســـلام، وقاموا بزيارات للمساجد، ملوحين بفخر بالقرآن فى كل ناحـــية، وأيضًـــا ــ ولأول مرة على الإطلاق ــ استقبلوا رؤساء الهيئات الإسلامية

الرئيسية الموجودة ببلادهم من أجل تجنب القلاقل الشعبية، بما يعنى تجنب اشتعال «صراع الحضارات»، تحت أنظارهم مباشرة.

ما يدعو للسخرية، أن الأحداث المروعة لسبتمبر، قد قادت هكذا إلى تحسن دائم فى وضع الجماعات المسلمة البروتوكولى.

بعد هذه المرحلة الأولى، تطورت الأمور بشكل مختلف على جانبى المحيط الأطلنطى. فى الولايات المتحدة «الحرب» أعلنت رسميًا ضد الإرهاب. (ومما يدعو للسخرية للمرة الثانية، أن أدى ذلك إلى رفع «الإرهابيين» من أى نوع، إلى مستوى «أسرى الحرب» الواجب حمايتهم بمقتضى القانون الدولى ...). فى نفس الوقت، لم يحدث تقريبًا أن سأل المعلقون فى الولايات المتحدة عن لماذا؟ أو ما هو الهدف، وراء الهجمات التى حدثت؟ وفيما يماثل ما حدث فى الهولوكست، لم يقتصر الأمر على المحللين الصهاينة ورجال الإعلام، فى التعليق بأن محاولة فهم الجريمة يعنى التغاضى عنها؟! وهكذا فإن الرأى العام الأمريكى ارتاح إلى محاربة «الشر» المجهول وغير المتعين ــ ونجت إسرائيل من أن تذكر كأحد الأسباب التى ساهمت فى ذلك.

على النقيض، كان فكر الأوروبيين أنه لا غنى عن مواجهة الأسباب العميقة لما حدث فى ١١ سبتمبر، مع التأكيد على أن الفهم لا يعنى بالضرورة محاولة التبرير، لكنه يخدم فى تجنب الجرائم ذات الطبيعة المشابهة فى المستقبل. وبينما التبس الأمر ــ ببساطة ــ على الأمريكيين؛ لكونهم مكروهين إلى هذا الحد، فقد قام الأوروبيون بتحجيم السياسة الخارجية الأمريكية غير المتزنة، خاصة تجاه الشرق الأوسط، وشكل ذلك عاملاً كبيرًا لمساهمتهم. الرئيس الفيدرالى لألمانيا (جوهانس راوه)، لخص هذه المناقشة على أفضل وجه، عندما صرح فى ١٤ سبتمبر بأنه «إن أفضل دفاع ضد الإرهاب، يكمن فى نظام دولى عادل. السلام هو ثمرة العدل!». (الفقر بالطبع هو أحد أشكال الظلم). كان المستشار شرودر، ومعه الرئيس مبارك، أكثر صلابة من الناحية الواقعية، عندما أعلنا يوم ٢٥ سبتمبر فى برلين أن الشرق الأوسط، هو أرضية تفريخ الإرهاب الرئيسية؛ لذلك لا يمكن محاربته بالجيوش النظامية، ولكن عن طريق الأساليب السياسية والاقتصادية فقط.

من جانب المسلمين، كان رد الفعل الأول والموحد هو إنكار أية صلة محتملة

بين الإسلام وبين انهيار برجي مركز التجارة العالمي. أشاروا إلى أن القرآن يحرم القتل ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ..... ﴾ [المائدة: ٣٢]، وأيضًا الانتحار ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء:٢٩]، واستعمال القوة والإكراه في الأمور الدينية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وينهى عن الغلو ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١]، ويتوعد القتله بعقوبة الإعدام (إلا إذا عفى عنهم من ورثة القتيل): ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]. بدلاً من القتال، يحض الإسلام ــ بروح التعددية التي تمثل جوهر الدين ــ المسلمين على التنافس السلمي مع اتباع الديانات الأخرى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]. يشير المسلمون أيضًا دائمًا إلى أن الإسلام يبيح استخدام القوة في حالتين فقط: عند القتال المتكافئ ضد الغزو والعدوان من الخارج ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠]، وعلى التوازي، قتال الطغيان الواقع من النظم المستبدة في الداخل.

خطـوط الدفـاع هـذه، على الرغم من وجاهتها على المستوى النظرى، كانت بالطـبع غايـة فـى الضعف على المستوى العملى. وللحسرة، لم يكن هناك مجال للشك، فى أن التاريخ يوفر الشواهد الوفيرة لإثبات ظاهرة أن فى وسع الدين إطلاق العـنف والإرهـاب على الرغم من كل شىء. كان انتشار المسيحية والإسلام، لقاء الكثـير مـن الدمـاء. يكفـى مجرد التفكير، فى الدور المحزن الذى لعبه المعتقد المسـيحى «لا خلاص خارج حدود الكنيسة»، والذى أصر عليه الـقـاتيكان حتى عام ١٩٨٥م. طبقًا لهذا المعتقد، فكم من البشر الذين أطلق عليهم الوثنيون قد ذبحوا فـى سكسـونيا، وفـى وسـط وجنوب أمريكا، وفى فلسطين والأندلس؟. الحملات العثمانية التى توجهت إلى فيينا، أيضًا قد وجدت المبرر الدينى، على الرغم من أن الإسـلام برىء من تطوير الفكرة المسيحية القائلة بـ «الحرب المقدسة»، ولم يعط المسلمون أسلحتهم أى قداسة على الإطلاق.

وقـد برهنت الحملات الصليبية، أكثر من أى شىء، على عدم مناعة الدين ضد الاسـتغلال مـن أجـل أغراض محدودة، إما عن طريق المنافقين، أو الاتقياء، أو المتطرفيـن الأخريـن. إن الخلـيفة الـثانى «عمر»، والثالث «عثمان»، والرابع «علـى»، قـد قـتلوا أجمعين تحت وصاية هذه النقطة. حتى كلمة «اغتيال» فهى مشـتقة مـن كلمـة «مخدر الحشيش»، التى تعيد الذكرى إلى الجماعة الإسماعيلية الغنوصـية، فـى الأعوام ١٠٩٠ ــ ١٢٥٦ ، والتى استخدمت الهجمات الانتحارية ضد الشخصيات من أهل السنة (مثـل الوزير نظام الملك).

للمـرء أن يدعى، أن العالم فى الوقت الحالى، قد شب عن احتمالات الحروب الدينـية (إن كـان فقـط للتوقف عن التدين بشكل كاف)، لكن أحداث الحروب فى الشيشان، والبوسنة والهرسك، وكوسوفـا، ومقدونيا، حملت صبغة مضادة للإسلام.

هـذا مـا فعلـه « أسامة بن لادن » وتنظيم القاعدة، حسبما برهنت على ذلك شـرائط الـفيديو الخاصة به. عندما ظهرت هذه الشرائط، أصبح جليًا على الفور أن دفـاع المسـلمين، الـذى أوضحناه، كان سطحيًا للغاية، حيث إن «أسامة» هو بالتأكيد صاحب شخصية متجذرة فى الثقافة الإسلامية.

هيئـته بأكملهـا فـى المشى والوقوف والجلوس ــ عيناه الملينتان بالروحانية، خطابـه الـناعم، إيماءاته الهادئة، أسلوبه الإسلامى فى البيان، والإسلامى فى الجو المحيط به ــ أظهرته كمسلم، سواء أحب المرء ذلك أم كره.

يخجل المسلمون، بحق ويتجنبون، انتقاد إخوة الإسلام. بل إنه حتى محرم عليهم إنكار إسلام أى أحد، طالما ادعى هو أنه مسلم. لكن لا ينبغى لذلك أن يمنع التيار الرئيسى من المسلمين من النأى بأنفسهم عن التصورات غير الإسلامية، وغير المرضية التى يتبناها «أسامه»، من مثل مطالبته غير الشرعية، التى ساقها بعد هجمات القاعدة فى أفريقيا، بقتل الأمريكيين أينما وجدوا. كان حال الأمة أفضل الآن، لو كنا قد فعلنا ذلك قبل أحداث ١١ سبتمبر.

المسلمون الواقفون فى منتصف الطريق ــ فى الغرب ــ لا يسعهم حاليًا إنكار وجود رابطة محددة بين الأحداث، السابقة والمستمرة، داخل عالم المسلمين انهيار برجى مركز التجارة العالمى «Ground Zero»، بمعنى الظلم الهائل الذى أصبح المسلمون بشكل رئيسى من ضحاياه فى قبضة الهند فى كشمير، وروسيا فى الشيشان، والطغمة العسكرية فى الجزائر، والشوفينية الصربية فى البلقان، وقبل كل ذلك فى قبضة إسرائيل فى فلسطين. العديد من الممارسات الإسرائيلية فى الأرض المحتلة ــ بداية من المستعمرات غير الشرعية، إلى الاغتيال «الوقائى» ــ يستحق أن يطلق عليه إرهاب الدولة. وكما يحدث، فلا تكتفى الولايات المتحدة بتمويل إسرائيل، وإمدادها بالمعدات العسكرية حتى أصبحت مسلحة إلى أسنانها، ولكنها بالتقاعس عن رد الفعل الفعال، فإن واشنطن تتغاضى عما يحدث للفلسطينيين. على ضوء ذلك، صرح بول فندلى، الجمهورى السابق، وعضو مجلس الشيوخ عن الينوى، خلال المؤتمر الأخير لمنظمة (ISNA) فى شيكاجو، عن ما أورده فى خطاب مفتوح إلى رئيسه بوش «هل من الممكن لدولة مثل الولايات المتحدة وقد قاتلت ذات مرة من أجل استقلالها ضد قوى الاحتلال، أن تدعم حاليًا قوة احتلال فى الشرق الأوسط، فى مسعاها لإنكار الاستقلال لأناس يناضلون من أجله؟».

وفى كلمات أخرى، فإنه فى ظل الظروف المتاحة، ينبغى على المسلم فى استجابة لأحداث ٩/١١، أن يوضح بجلاء أنه سوف يظهر الجديد من العشرات من «ابن لادن» ما لم تأخذ السياسة الخارجية الأمريكية منحى جديدًا، يرقى ذلك إلى مستوى الجزم، وليس على سبيل الاعتذار.

بعد مرور أربعة أشهر على الهجمات على برجى مركز التجارة العالمى،

وعلى البنتاجون، تغير اتجاه الرياح مرة أخرى، وأصبحت تهب فى وجه المسلمين. يرجع ذلك إلى حزمة الإجراءات المسماة بالشرعية المضادة للإرهاب، التى سنت أولاً فى الدانمارك، وبريطانيا، ثم امتدت إلى ألمانيا والولايات المتحدة. تشترك كلها فى أن اعتبارات حقوق الإنسان، أصبحت فى درجة تلى «الأمن». ومثل حال الهنود الحمر وهم المواطنون الأصليون فى أمريكا، واليابانيون الأمريكيون، والشيوعيون من قبل، يتحمل المسلمون الأمريكيون الآن مخاطرات أن يصبحوا خارجين جزئيًا عن القانون.

تعلم العالم فى الحال الدرس عن كيفية تحويل المقاتلين من أجل الحرية إلى «إرهابيين». تستطيع الهند الآن أن تظهر صورتها على أنها أكثر سخطًا تجاه الإرهابيين الكشميريين، وبذلك يعتمون على فشل دلهى فى منح تقرير المصير إلى الأغلبية المسلمة هناك. فى النطاق نفسه، يستطيع الرئيس بوتين الآن أن يعتمد على التضامن الأمريكى عندما يقوم بسحق الإرهابيين الشوشانيين. تشعر تركيا على وجه الخصوص حاليًا، باستعادة الاعتبار إليها مرة أخرى عن الطغيان الذى مارسته بحق الانفصاليين الأكراد.

فى هذا السياق الجديد، ازداد الوضوح فى كل مكان لدى الغرب، بأن المرحلة الرومانيتكية للتعددية الثقافية، قد دفنت هى أيضًا تحت انقاض برجى مركز التجارة العالمى. على المسلمين الآن أن يتفهموا أن جاهزيتهم للاندماج والتكامل لم تعد كافية. المتوقع الآن هو التشابه التام. لم يعد كافيًا للمسلمين أن يحترموا القانون والنظام للدول التى اتخذوها ملجأ أو ولدوا فيها. إنهم مطالبون الآن من حيث المبدأ، بأن ينأوا بأنفسهم بعيدًا عن الشريعة فى أى مجال يحتمل أن تختلف فيه مع القوانين المحلية، كما لو أن الأقلية الإسلامية، أصبحت أو اقتربت من أن تصبح أغلبية بيدها تغيير القانون. ويجدر الانتباه إلى أن ما يشبه ذلك لم يُطالَب به المسيحيون واليهود على الإطلاق، على الرغم من أن الكتاب المقدس، بما فى ذلك العهد الجديد، مملوء بالقواعد التى لا تتفق مع العديد من القوانين العلمانية وأيضًا الدساتير.

على ضوء هذا الخطر، على المسلمين اللجوء إلى أحد أعظم فضائلهم ــ الصبر ــ ويستعدون للوقت الذى يرتفع فيه الوعى العام إلى فهم ما الذى يعنيه

الإســـلام والمسلمون. يمثل ذلك توقع، يرجع الفضل فيه بشكل كبير إلى أحداث ١١ ســبتمبر لأن ــ وللســخرية مرة أخرى ــ تسبب «لأسامة بن لادن» فى أن تصبح جمــيع الكتابات عن الإسلام هى الأكثر مبيعًا بين ليلة وضحاها. هكذا، أصبحت أنا شخصيًّا من الرابحين من الإرهاب، حيث يمكننى القول: إن جميع كتبى قد صدرت لهــا طــبعة أو طبعتين بحلول نهاية عام ٢٠٠١م. الطلب على ترجمات القرآن بعد ١١ ســبتمبر، ارتفع فى ألمانيا بشكل درامى يصل إلى ١٠٠٠%. فى ألمانيا أيضًا، فــإن السلطات المحلية مثــل مقاطعة باڤــاريا، والتى كانت قد رفضت (بما يخالف القــانون)، الســماح بفتح المدارس التى تتبعها، أمام تدريس الديانة الإسلامية، تقوم الآن بالمشاركة بنفسها فى هذه المغامرة.

مــن الواضــح ، أن معظم ذلك قد قام على الخوف وعلى الرغبة فى السيطرة، أكــثر مــن صدوره عن التعاطف. لكن حيث يمكننا الافتراض أن الأمور على ما يرام، حيث لم يصلنا المزيد من الأخبار، فإن المستوى العام للمعلومات عن الإسلام عقــب تداعــيات الحــادى عشر من سبتمبر قد ارتفع بشكل دائم فى الغرب. اعتاد المســلمون فــى الغرب على القول: «إن الإسلام وجد هنا ليبقى»، وقد اكتشف هذه الحقــيقة لأول مــرة، الكثير من الناس غير المسلمين. للإسلام الآن حضور مميز ومعترف به. ويمكننا الانتظار حتى يتحول ذلك إلى حضور يلقى كامل الترحيب.

• • •

الموقف الإسلامي من الحضارات غير الإسلامية

د. محمد عمارة

من القضايا الفكرية التى يحتدم من حولها الجدل، فى حياتنا الفكرية المعاصرة، قضية : علاقة « الأنا : الحضارية » بـ « الآخر الحضارى »٠٠ وعلى وجه التحديد، بـ «الآخر الحضارى » ـ ، المهيمن عالميًا ، وهو الحضارة الغربية!..

وفى اعتقادى أن الرؤية الإسلامية لهذه القضية هى من البساطة والتميز والموضوعية ، إلى الحد الذى لابد وأن تحسم حسمًا نهائيًا ، شريطة أن نفهم عناصر هذه الرؤية الإسلامية فهمًا جيدًا ٠٠ وهى العناصر التى نوجزها فى هذه النقاط :

- إن الإسلام ينظر إلى البشر أجمعين باعتبارهم : « **وحدة واحدة متساوية فى الخلق لله الخالق الواحد** »٠٠ وباعتبارهم فى ذات الوقت : « متعددين فى الروابط والجامعات » ٠٠ وهذه الوحدة فى الخلق مع « التعددية فى الجامعات»، هما موطنا الإشارة فى الآية الكريمة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

[الحجرات: ١٣]

فالاشتراك والوحدة فى الخلق ، وفى الإنسانية ، يزاملهما التعدد والتمايز إلى شعوب وقبائل وأقوام٠٠ بل إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه التعددية باعتبارها آية من آيات الله سبحانه ، وسنة من سننه فى خلقه ، فيقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢]٠

• وفى الدين أيضًا ، يؤكد الإسلام على « وحدة البشرية فى دين الله الواحد » ، أزلا وأبــدًا٠٠ مــع « تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات الدينية »٠ أزلا وأبدًا كذلك٠٠ فالقرآن الكريم قد نزل بإذن الله

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[البقرة : ٩٧]

و﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩١]٠٠

والرسول ﷺ ، كذلك

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

[آل عمران : ٨١]

والله ، سبحانه وتعالى ، يتحدث إلى رسوله فيقول لــه :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ٨٤]

ومع هذه « الوحدة فى الدين » كانت « التعددية فى الشرائع » لدى أمم الرسالات ٠٠ فالبعثة المحمدية قد تميزت بالشريعة الخاتمة

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨] ٠٠

وكذلك كان حال الأمم السابقة فاليهود :

﴿ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٣]

﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة : ٤٤] ..

وكذلك حال النصارى مع الإنجيل :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧] ..

ثم كانت للشريعة الخاتمة :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ..

ثم تمضى الآية لتقرر أزلية وأبدية هذه السنة الإلهية فى تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات ، فتقول :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]

ففى الدين : وحدة الرسل والرسالات ، ووحدة أمم هذه الرسالات .. وفى الشريعة : تعددية تتمايز فيها وبها أمم الرسالات.. للابتلاء والاختبار والتنافس واستباق الخيرات.. ولقد وقف مفسروا القرآن الكريم أمام هذه الآيات فقالوا : « إن الشرعة والشريعة : هى الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة.. والمعنى : أن الله جعل التوارة لأهلها ، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله ، وهذا فى الشرائع والعبادات. والأصل: التوحيد ، لا خلاف فيه..

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾

أى لجعل شريعتكم واحدة..

﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ..

أى ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم والابتلاء : الاختبار»[1].

وعـن هـذه الحقـيقة ، التى أفاض القرآن فى تقريرها وفى الإفصاح عنها ـ حقـيقة الوحدة فى الدين مع التعددية فى الشرائع ـ يعبر الحديث النبوى هذا التعبير الجمـيل ، عندما يقول صلوات الله وسلامه عليه : « الأنبياء : إخوة من علات ـ [أى من أب واحد] ـ وأمهاتهم شتـــى، ودينهم واحد[2]..».

فكمـا توحد الناس ويتوحدون فى الخلق والإنسانية ، مع التعددية فى الأقوام والشـعوب والقـبائل والألوان واللغات .. كذلك، قد اتحدوا فى الدين ، وتعددت أمم الرسالات فى الشرائع التى شرعها الله .. فالوحدة .. مع التعددية هى سنة الله ، التى تلتزمها الرؤية الإسلامية فى هذا الميدان..

- وكذلـك الحـال فـى ميدان الحضارات .. فعلى مر التاريخ عرفت البشرية الـتعددية فـى الحضـارات ، مع الالتقاء والتبادل والتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام بين هذه الحضارات.. فمع الخصوصيات الحضارية ، التى تتميز بهـا كل حضارة عن غيرها ، هناك ما هو مشترك إنسانى عام بينها جميعًا ، وخاصة فى المعارف والعلوم التى تشترك فى ثبات الموضوع ووحدة المناهج والحقائق والقوانين..

فالعلاقـة بين « الأنا : الحضارية » وبين « الآخر : الحضارى » ، يجب أن يحكمهـا هذا القانون.. التفاعل والتبادل الحضارى ، لا التبعية ـ بزعم الوحدة الحضـارية ـ ولا الانغلاق والعزلة ـ بزعم الاختلاف الكامل والكلى ـ .. فكما أن الـتعددية فـى الأمـم هـى سنة من سنن الله فى الخلق ، كذلك التعددية فى الحضارات ؛ لأن هذا التمايز الحضارى هو واحد من أهم أسباب هذه التعددية بين الأمـم .. وكما أن « التعارف » ـ الذى أمرنا الله به ليكون طابع العلاقات بين الأمـم والشعوب ـ يقتضى العدول عن القطيعة ، ورفض « الصراع »، فكذلك « الاختلاف » ـ الذى جعله الله سنة ومظهرًا للتعددية، يقتضى رفض « التبعية » أو « الهيمنة »، بزعم وحدة الحضارة للبشر أجمعين

---

(١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ٦ ص ٢١١ طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) رواه البخارى ومسلم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩]..

ولقد قال المفسرون لقولـه تعالى : ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ :

إن معـناها : « وللاخـتلاف خلقهـم »[1]! .. ففى الاختلاف والتمايز : التنوع ، والغنى، والتنافس فى استباق الخيرات..

وهـنا.. لسـائل أن يسـأل : إذا كانـت الـرؤية الإسلامية مع « التعددية الحضـارية»، كسنة من سنن الله فى تعدد الأمم التى تتمايز بتمايز الحضارات .. ومـع التـبادل والتفاعل الحضارى فيما هو مشترك إنسانى عام بينها ، امتثالا لأمر الله وحكمـته أن يكـون الـتعارف هـو رباط وسمة العلاقات بين أمم الحضارات المتعددة .. إذا كانت هذه هى رؤية الإسلام لهذه القضية ، فما الموقف إزاء علاقة « الـنفى والصراع » التى مارستها وتمارسها الحضارة الغربية مع وبإزاء غيرها مـن الحضارات والمواريث الحضارية التى وجدتها لدى الأمم التى اتصلت بها أو غـزت بلادها منذ الزحف الاستعمارى الكبير الذى سنته على العالم قبل قرنين من الزمان ؟!.

هـنا ، وفى الإجابة على هذا السؤال ، لابد من التنبيه على رفض الإسلام أن يكـون « النفى والصراع » هو طابع العلاقة مع « الغير » - فالإيمان بالتعددية يقتضـى الإيمان بحق الغير فى الوجود المتميز ، حتى تكون هناك تعددية حقيقية .. ولهذه الحكمة كان « التوازن » بين الفرقاء المتميزين هو مذهب الإسلام فى العلاقة بين الطبقات والجماعـات داخل الأمـة الواحدة ، وبين الأمة وغيرها من الأمـم الأخـرى.. وهـذا « الـتوازن » يفـترض، بل ويشترط كى يقوم وجود «فـرقاء» متمايزين ومختلفين .. أما « الصراع » فإنه يعنى : ابتغاء « نفى » الآخر، والانفراد والواحدية دون شريك!..

ولأن هذه هى فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر ، كان استخدام القرآن الكريم لمصـطلح « الدفـع » عـندما تدعو الحاجة ، بسبب اختلال توازن العلاقات مع

(١) [الجامع لأحكام القرآن] جـ٩ ص ١١٤، ١١٥.

الأغـيار، وحلـول «الخلـل» محل «التوازن» وسيادة «الظلم» بدلاً من «العدل»، وقـيام «الجـور» بـدلاً مـن «الوسـطية» .. هنا يكون «الدفع»، أى الحركة الاجتماعـية الـتى تبـتغى إعادة العلاقات إلى مستوى ولحظة ومقام «التوازن» ثانـية، مع الاحتفاظ بالتعددية والتمايز للفرقاء المختلفين .. هنا يكون «الدافع» ولا يكون «الصراع»، لأن الصراع يقتضى نفى الآخر، بصرعه، وإنهاء وجوده ، والانفـراد والواحديـة ــ فهو ضد فلسفة التعددية ضد شرعية ومشروعية تمايز الفرقاء المختلفين .. ففى « الصراع » ..

﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] ..

أما فى « الدافع » فإن الغاية مختلفة ..

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤]..

فـإذا كانـت الحضارة الغربية قد تبنت واعتمدت فلسفة « الصراع » ، فرأته قـانون العلاقـة فـى الأحـياء ــ صراع البقاء فى الداروينية ــ وفى الاجتماع ــ الصـراع الطـبقى فى الماركسية ــ وفى العلاقة مع الحضارات الأخرى ــ المسخ والنسـخ والتسـويه لمواريث الأمم التى أصابها الاستعمار والهيمنة الغربية .. إذا كـان هذا هو طابع العلاقة ، كما فرضتها الحضارة الغربية علينا .. فهو كالقتال الـذى فُـرِض علينـا، وهـو كُـرْهٌ لنا! ــ وعسى أن تكون الثمرة، ثمرة هذا الصراع الذى فرض علينا، شحذ الهمة فى معركة التجديد للفكر الإسلامى، إخراجًا لـــه من أزمته المعاصرة، وتجديدًا لواقع الأمة به، لا لننفى «الآخر الحضارى»، وإنمـا لنفسـره عـدًا، كما فسره أسلافنا بالأمس، على التخلى عن طموح الهيمنة الحضـارية، وعلـى القـبول بالتعددية؛ ليصبح الكوكب الذى نعيش عليه «منتدى حضـارات»، تتفاعل وتتبادل العلم النافع، وتحتفظ كل منها بما لها من خصوصيات .. مـثلها كمـثل الإنسـان الراشد المستقل، يصافح الجميع، دون أن يفقد بصمته وهويته التى تميزه عن الجميع !..

إنـــنا نـــرى الآن قضية علاقة « الأنا : الحضارية » بـــ «الآخر: الحضارى»، واحـــدة من قضايا «أزمة الفكر» المعاصر ٠٠ بينما هذه القضية لم تكن بالأمس ـــ عـــندما قامت علاقة أسلافنا العظام بالحضارات الأخرى، هندية وفارسية وإغريقية ـــ لـــم تكـــن مـــن قضـــايا «الأزمة» ٠٠ بل كانت من سمات «الصحة» ومظاهر «النهضـــة» ؟!٠٠ وما كان هذا الفارق بين حال ذات القضية اليوم عنها بالأمس إلا مـــن الفـــارق بيـــن حالـــنا اليوم وحال أسلافنا بالأمس ٠٠ لقد تفاعلوا مع «الآخر الحضـــارى» من موقع القوى الراشد المستقل، فكانت «لمعدتهم الحضارية»٠٠ إن جـــاز التعبير ـــ القدرة على التمييز بين الصالح والفاسد ، بين النافع والضار، بين الملائـــم وغير الملائم فى مواريث الآخرين ٠٠ فلم تكن فى العلاقة «قضية مشكلة» على الاطلاق!٠٠ أما نحن، فإننا نتعامل من موقع الضعيف المهزوم، الذى تحالفت علـــيه تحديـــات: الـــتخلف الموروث ٠٠ وتحديات: الاستلاب الحضارى الوافد فى ركاب الغزاة!٠٠

ولـــيس كالتجديد للفكر الإسلامى باب يدخل منه العقل المسلم إلى عالم النهضة ـــ لـــه ولأمته ـــ من جديد ، فيتجاوز هذه المآزق ويحل هذه المشكلات٠

• • •

جذور الكراهية

د. عبد الودود شلبى

يخطئ من يتصور أو يظن أن حملات الكراهية والتعصب ضد الإسلام والمسلمين جديدة. أو أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر هى السبب الحقيقى لهذا التعصب أو هذه الكراهية. وكما يقول محمد أسد ــ ليوبولد فايس «سابقًا» ــ فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: إن الحروب الصليبية هى التى حددت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوروبا من الإسلام. ولقد اتفق فى ذلك الحين ولأول مرة فى التاريخ أن أوروبا أدركت فى نفسها وحدة ، ولكنها وحدة فى وجه العالم الإسلامى ــ أى قبل أن يولد « صمويل هنتنجتون » بقرون. ولقد كان فى الجانب الإسلامي دائمًا رغبة مخلصة للتسامح ولكنه لم يلق أبدًا المعاملة بالمثل..!!!

وكما يقول «مالك بن نبى» المفكر الجزائرى المسلم: إن أوروبا التى ولدت حضارتها من رحم الحضارة الإسلامية، لم تعترف لهؤلاء المسلمين بأية مدنية. ويقول «چوستاف لوبون» معللاً السبب الذى يدفع أوروبا إلى إنكار هذا الجميل برغم أنهم يجب أن يتحرروا من ربقة الكراهية والتعصب يقول :

فى الواقع إن استقلال الرأى ــ أى فى أوروبا ــ ظاهرى وغير حقيقى ! فقد استمر التعصب الذى ورثناه ضد الإسلام جزءًا من تركيبنا العضوى ، وسيظل هذا التعصب وهذه الكراهية ما لم تعترف أوروبا بفضل الإسلام على جميع الجنس البشرى ..!

وقد جاءت أحداث الحادى عشر من سبتمبر لتخرج «مارد الكراهية والتعصب» من القمقم ، ولتسقط القناع الزائف عن مؤسسات الغرب ووجهه الكريه المظلم. فكانت هذه الأحداث التى قامت بها فئة قليلة منحرفة من المسلمين فرصة

لإعـــلان الحرب على الإسلام وأهله ، ولتشويه صورة الإسلام والمسلمين مما هما منه براء، فى تدبيره أو فعله.

إن حـياة الإنســـان ، أى إنسان مقدسة فى شريعة الإسلام ، والاعتداء على حـياة إنســـان واحد تعنى فى نظر الإسلام الاعتداء على الإنسانية جميعًا. بل إن الإســـلام يعتـبر «الحـيوان» أمة من الأمم التى خلقها الله ولها حقوق يجب أن تراعى وتحترم، وفى هذا يقول فقهاء الإسلام: إذا لجأت قطة عمياء إلى بيت رجل مســـلم فقد وجبت عليه نفقتها، كما تجب هذه النفقة للوالد والولد !! بل حدث أن كـــان أحد أئمة الإسلام واسمه «أبو إسحاق الإسفراييني» يسير فى الطريق ومعه أحـــد تلاميذه، فاعترضهما «كلب» فزجر هذا التلميذ هذا الكلب ليبتعد عن طريق شيخه، فقال لـــه الشيخ: لماذ تزجر الكلب أما علمت أن الطريق حق مشترك بيننا وبينه !!!

وكثـــير مـــن علمـــاء الغـــرب يعـــرفون هذه الحقائق ... غير أنهم كما يقول «لـــوبون»: يغمضـــون أعينهم التى لا تقوى على النظر فى الضوء الباهر! أو كما يقـــول «بريفولـــت» فى كتابه «بناة الإنسانية»: إن أكثر من اثنى عشر مليونًا قتلوا وحـــرقوا فى محاكم التفتيش، لأنهم أعملوا العقل والنظر فيما كانت تروجه الكنيسة مـــن خرافات يرفضها الدين الصحيح والعقل السليم. أو فيما تقوله الوثائق: من قتل أكثر من سبعين مليونًا من البشر فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، أو ما تقوله الـــتايم والنـــيوزيك: عـــن وجـــود أكـــثر مـــن مائتى منظمة إرهابية فى أوروبـــا وأمريكا..؟ غير أن الغرب لا يرى الخشبة التى فى عينه، بينما يرى القشة فى عين المسلمين كما يقول السيد المسيح.

إن كلمـــة «إســـلام» تعـــنى الســـلام .. سلام بين الإنسان وربه، وسلام بين الإنســـان ونفســـه، وســـلام بين الإنسان وأخيه الإنسان، سواء أكان هذا الإنسان مسلمًا أو غير مسلم.

وكما تقول كتب اللغة: يقال أسلم الرجل إذا دخل فى الإسلام. كما يقال أسلم الرجل إذا دخل فى السلم، وذلك يعنى أن البشر فى نظر الإسلام كلهم إخوة، والتعارف الذى دعا إليه الإسلام بين الأمم والشعوب

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]

يعنى تبادل الرأى والمشورة، فيما فيه النفع العام لجميع البشر، والاختلاف بسبب الدين أو العقيدة مرجعه إلى الله، يوم توضع للموازين بالقسط يوم القيامة.

غير أن مصيبة المسلمين العامة فى زماننا الحاضر هى الجهل .. وأكبر هذه المصائب أن يتصدر هؤلاء الجاهلون لقيادة العمل الإسلامى فى أى بلد أو فى أى شعب، وما رأيناه فى أفغانستان أو نراه فى الجزائر أوضح دليل على صدق هذا القول. وصدق هذا الرأى..

لماذا نلوم غيرنا ونحن أولى بهذا اللوم ..؟

إن صورة المسلمين فى العالم لا تشجع على الاحترام ..

لقد سألنى أحد المستشرقين فى «كانبرا» إحدى مدن أستراليا.. كم إسلامًا عندكم؟ وحين سألته عن سبب هذا السؤال قال: إن كل بلد مسلم يفسر الإسلام تفسيرًا خاصا بسياسته وفلسفته ونظام حكمه ..؟ ولم أجد حتى يومنا هذا إجماعًا يتفق عليه الجميع فى وصفه وتفسيره !

وقد صدق الرجل .. فقد تفرقنا شيعًا وقبائل وخالف بعضنا البعض فى أبسط القضايا وأتفه المسائل ، ولم تعد هناك وحدة ثقافية أو فكرية تربط هؤلاء الشاردين فى متاهات الجدل العقيم القاتل !.

إن أوروبا كما يقول العلامة إقبال: تنتحر، والروح تموت عطشا فى سرابها الخادع. فيها حضارة ..؟ نعم ولكنها حضارة تحتضر وإن لم تمت حتف أنفها فلسوف تنتحر غدا وتذهب. وأنت أيها المسلم فارس الأمل والمستقبل!

ولكن كيف ؟

لقد وقف البروفسور الأمريكى تى. بى. إرفنج ــ T.B. Irving يقول مخاطبًا المسلمين فى «جلاسكو» منذ بضع سنوات:

إنكم أيها المسلمون لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علميًا أو اقتصاديًا أو عسكريًا ــ فى الوقت الحاضر على الأقل ــ ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا هذه الدول تجثو على ركبها أمامكم باسم الإسلام .؟!

أفـيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذى تحملونه، والذى يتعطش إليه الناس فى كـل جنـبات الأرض ، تعلمـوا الإسلام وطبقوه، واحملوه لغيركم من البشر تتفتح أمامكم أبواب الدنيا ويدين لكم كل سلطان.

أعطونـى أربعين شابًا ممن يفهمون هذا الدين فهمًا عميقًا ويطبقونه فى حياتهم تطبـيقًا صـحيحًا ويحسـنون عرضـه على الناس بأسلوب العصر، وأنا أفتح بهم الأمريكتين .. !!!

وهـذا هـو جهاد اليوم لكل مسلمة ولكل مسلم، بل هو الجهاد الحقيقى فى هذا الزمان الذى التبس فيه وجه الباطل بوجه الحق.

* * *

هذا الحدث المريع

جمال البنا

(١)

أشــرقت شــمس الثلاثاء ١١ سبتمبر على جزيرة مانهاتن قلب نيويورك مؤذنة بــبداية يــوم خــريفى جديــد. وكان الرجال والنساء يسرعون الخطا نحو مكاتبهم ومخـــازنهم بيــنما يجــثم مركـــز التجارة العالمى ويرتفع برجاه شاهقين فى عنان السماء..

كــان مركـــز التجارة العالمى رمز أمريكا، أكثر من تمثال الحرية، فهو يأوى قرابة تسعمائة شركة ومكتب وبنك، بعضها من أكبر الشركات العالمية مثـــل بنك أميركان إكســـبـــريس، ومؤسسة ميريل ولينش، وبنك مورجان الخ .. وكل برج يضم ١١٠ أدوار بارتفاع ألف وثلاثمائـــة قـــدم. وفـــى كل برج ٢١٨٠٠ نافذة، و٢٥٠ مصعدًا، ترتفع بسرعة ٢٥ ميلا فى الساعة، يستخدمها خمسون ألفــًا من العاملين، ومائة وثلاثون ألفــًا من الزوار والعملاء.

فى الساعة ٨,٤٥ صباحًا حدث شىءٌ عجيب .. شىء لا يكاد يصدق .. طائرة بويـــنج ٧٦٧، وهى من أكبر أحجام الطائرات، تطير بسرعة ألف كيلو فى الساعة، تقصد عامدة متعمدة برج المركز لتصطدم به صدمه عنيفة مروعة..

فـــى الثانـــية الـــتى حدث فيها الاصطدام، انفتحت أبواب الجحيم، الطائرة تزن ٤٠٠ طـــن ويُصـــبح وزنهـــا بحكم سرعتها أضعاف ذلك، وهى تحمل فى أحشائها خمســين طـــنـــــًا مـــن الوقـــود. أى ما يعادل حمولة عشرة لوريات من ناقلات الوقـــود.. مما أحدث دويًا لم يسمع من قبل، واندلعت للفور كرة من اللهب، جاوزت حـــرارتها ألـــف درجـــة، وأصبح وقودها الناس والحجارة، أتت على الطائرة وما

تحملـه من ناس ومتاع، ثم شقت الدور الثمانين الذى اصطدمت به .. انهار البرج بأسره..

بعـد عشـرين دقيقة، وسط ذهول الناس، تكرر الكابوس، طائرة بوينج أخرى، بـالحجم نفسـه، والسـرعة نفسها، تتطح البرج الثانى فتتلاشى فيه، ومعه، نتيجة للصدمة .. والحريق. ويتدهور البرج بأسره..

وبعـد قلـيل، كانـت هناك طائرة ثالثة تقصد الـبـنتاجون فى واشنطن مقر وزارة الدفاع، لتدمر جزءًا كبيرًا من مبانيه.

وضـلت طائـرة رابعة طريقها كانت تقصد البيت الأبيض، ولكنها سقطت فى بـنسلفانيا..

هـل هـذا حلم أم علم؟ هل نحن فى يقظة أم منام؟ أم أننا نشاهد فيلمًا سينمائيًا رهيـبًا.. هـل يمكـن أن يحـدث هذا؟ .. بلى لقد حدث وترك الجميع حيارى وقد أذهلتهم المفاجأة...

وكـان فـى الحـدث شىء ــ كان وما زال مستعصيا ــ على الفهم ... فكيف يمكـن لتسـعة عشـر، أو حتى لثلاثين فردًا بإمكانيات محدودة، تـقل بالطبع عن إمكانـيات أصغر دولة، أن يضعوا هذه الخطة وأن ينفذوها بإحكام، بحيث تـفـقد أكـبر دولـة فـى العالم حلمها ولو للحظة؟ وتـتصور أنها فى مواجهة غزو ما، فـتسـرع بوضـع رئيسـها، ونائـبه فـى مكان سرى خفىّ. كان مفتاح هذا هو الاستشـهاد، فلو لم يكن الذين قادوا الطائرة ونطحوا بها البرج الصلد الأشم قاصدين الشهادة.. لما وقع الحدث أصلا.

كـان فـى هـذا الإقـدام والشجاعة شىء يمثل بطولة من نوع ما، مهما كان التصرف خاطئـًا ومهما استـتبع من مغبات وخيمة..

* * *

(٢)

ما خطورة أحداث ١١ سبتمبر..

ليسـت الخطـورة فـيما أحدثته من دمار، وإن كان جسيما دفع الحكومة لتقدم عشـرين ملـيارًا، أعقبتها بعشرين مليارًا أخرى؛ لأن موت قرابة خمسة آلاف من

للمديريـــن وكـــبار الموظفين فى التخصصات الإدارية والعلمية والفنية مما يمثـــل خسارة لا يمكن أن تعوض ..

ليس تدمير المبنى وقتل العاملين فيه هو أسوأ ما فى الموضوع.

أســـوأ مـــا فى الموضوع أن هذا الحدث كان إهانة بالغة عميقة لأمريكا، وكان كـــل شـــىء فـــيه يعمق هذا الانطباع : الطبيعة الدراماتيكية التى تم بها، والسرعة المـــتلاحقة الـــتى لـــم تـــدع لأمريكا فرصة الرد واستخدام ترسانتها، الرموز التى قصـــدتها وأرادت أن تهزها : وهى القوة الاقتصادية .. والقوة العسكرية .. وأخيرًا فـــإن هـــذا الحـــدث أخـــذ معـــه كـــل أســـراره. لقد احترق الجميع ... الخاطفون والمخطوفون ... وكلهم ذابوا فى النار الحامية ولم يبق لهم أثر، واستحال أن يوجد خـــيط يـــبدأ منه تحقيق الأمر، وأصبح على أمريكا أن تضرب أخماسًا فى أسداس، وأن تطلق القول على عواهنه.

إن حدثًا بهذا العمق، وبهذه الملابسات لابد وأن يثير حفيظة أمريكا .. لابد وأن يدفعهـــا دفعًـــا للانـــتقام. وقـــد بدأت ظواهره توًا، وتوالت للصيحات، ووجدت فى حيرتها ــ ومع انعدام القرائن ــ فى «ابن لادن» كبش الفداء المطلوب.

ولكـــن «ابـــن لادن» ليس إلا تعلة .. وحتى لو ثبت أنه المدبر لكل الأحداث .. ولـــو حكـــم علـــيه بـــالموت، فهل يكفى هذا لكسر حدة غضب أمريكا .. وإعلان انتصارها.

هيهات ...

عندما تـــثور حفيظة أمريكا، فإن هذا يعنى انطلاق الوحش من الظلمات ..

لقـــد أثـــار العدوان اليابانى على بـــيرل هاربر حفيظتها .. فلم تهدأ حتى ألقت على اليابان قنبلتين ذريتين، وليس قنبلة واحدة..

ولم ترد بهذا إلا أن تدمر مدينتين كبيرتين، وتقتل فى كل مدينة مئات الألوف.. دون أن يكـــون هـــناك مـــبرر موضوعى؛ لأن اليابان كانت على شفا التسليم، ولو حدث هذا لما شفت غيظها، وأخذت بثأرها..

ونحن نجد فيما يحدث فى أفغانستان مصداقًا لذلك.

فهـذه القـنابل الـتى هـدت الجبال، ودمرت المدن وأصابت الأمنين من نساء وأطفال، ما كان لها داع فى حقيقة الحال إلا شفاء الغيظ .. والأخذ بالثأر..

وهـل سيقـف الانتقام الأمريكى عند أفغانستان؟ إن أمريكا تعلن أنها ستلاحق «الإرهـاب » حيـثما كان. وما هو الإرهاب؟ هو ما تراه أمريكا إرهابًا ولا معقب علـى هـذا .. وطـبقًا لأقوالها فلن يوقفها شىء عن متابعته، وضربه حتى لو كان دفاعًا مشروعًا تقره الأعراف .. وتعترف به الدولة ..

* * *

(٣)

عندما تُوقف الأحداث الإنسان على تفاصيل التاريخ، فإن رؤية المفكر تختـلف عـن رؤيـة الصـحفى الذى يلاحق الأحداث، أو السياسى الذى يعالج التطورات. المفكـر يغـوص فى أعماق التاريخ من ناحية، والطبيعة البشرية من ناحية أخرى، ويتقصى تفاعلهما وانعكاس ذلك على الأحداث.

والشعب الأمريكى فى أصله، تعود أكثر جذوره إلى الشعب البريطانى .. الذى ألقى فى أمريكا فى الفترة ما بين منتصف القرن السادس عشر والقرن السابع عشر بطوائـف من رجاله، الأولى مجموعة متشددة فى إيمانها، متعصبة له، بحيث آثرت الرحـيل مـن بريطانيا حتى تمارس عقيدتها حرة، والطائفة الثانية المغامرون الذين يبحـثون عـن فرص جديدة، وهى مستمرة فى الهجرة للولايات المتحدة حتى اليوم والطائفـة الثالـثة المجرمون الذين ضاقت بهم سجون بريطانيا وأرادت أن تتخلص مـنهم فترسـلهم إلـى « أماكـن عقوبة». ومن مزيج تلك الطوائف، تكون الشعب الأمـريكى الأول، والـذى يمثـل أرستقراطية أمريكا ويطلقون عليه « الواسب ــ White Anglosaxon Protestant »، قـبل أن تفتح أمريكا أبوابها للمهاجرين من كل حدب وصوب..

فـى هذه الفترة كانت بريطانيا تحكم ــ ما أصبح بعد ذلك ــ الولايات المتحدة، وتـبدأ زحفها الاستعمارى وتضع أسس الإمبراطورية ــ وكانت تعتبر نفسها وريثة للإمـبراطورية الرومانية التى كانت حضارتها وآدابها وتاريخها يدرس فى معاهدها وجامعاتها أكثر من أية مادة أخرى..

أى إننا نجد التاريخ الأوروبى يبدأ من روما؛ لينتهى عند بريطانيا، ليولد مرة أخرى فى أمريكا .. تقوده سلالات أوروبية تمثل انتقال الصدارة من روما إلى بريطانيا ثم إلى أمريكا.

واستعراض تاريخ الجنس الأوروبى، منذ أن ظهرت أوروبا على خريطة العالم مع ظهور روما، يثبت أن هذا الجنس جنس قوى يتمتع بشجاعة، وأنه بالطبيعة مقاتل، وإن لم ينقصه الدهاء، ولأن العامل الذى يسيطر عليه، هو السيادة والهيمنة، وثقته بنفسه لا حد لها ... ويمكن القول إن هذه فى جملتها قد تكون حسنات، ولكن فى المقابل، فإنه لا يعرف الرحمة ولا يستهدف الخير ولا يؤمن بالعدل .. فالقوة وسيلته والسيادة هدفه.. وتاريخه الاستعمارى فى القرون من الثامن عشر إلى العشرين، والحربان العالميتان فى القرن العشرين خير شاهد على ذلك.

وعلى مدار تاريخه، كانت هذه الخصائص ــ إيجابًا وسلبًا ــ هى التى تتحكم فيه وتحدد له دوره والطريقة التى يسلكها ويتعامل بها مع الآخرين، وقد عاصر حضارة زاهرة سابقة عليه، هى الحضارة المصرية. وقد استفاد منها، ولكنه لغلبة الأنانية والمركزية ازدراها. وأرادت المسيحية إصلاحه .. فعجزت .. وأفسد هو المسيحية، أما الإسلام الصاعد، فقد رفضه من البداية، لأن توجهاته ومثله كانت تناقض طموحاته.

مثل هذا الجنس، كان لابد أن يكون تاريخه صدامًا وحروبًا ومنازلة لغيره من الأجناس .. بحكم طبيعته، دون أى سبب آخر يدفعه لذلك. والإلمام بجولات هذا الصراع ــ رغم قدمها ــ يفيدنا فيما نحن بصدده؛ لأنه يكشف عما اتسم به فى الماضى، وما يمكن أن يتسم به فى الحاضر من حقائق.

وقد بدأت أولى جولات اللقاء ــ أو قل ــ القتال بين أوروبا التى كانت تسكن الشاطئ الشمالى للبحر الأبيض المتوسط، وما يعلوه، حتى شُطئان المحيط الأطلسى.. مع سكان الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض.

كانت روما قد استطاعت أن تهيمن على منطقتها والمناطق المجاورة، وبدأت أولى مراحل توسعها .. بينما كانت قرطاجنة (تونس حاليًا) دولة تجارية

مزدهـرة، لهـا أسطول تجارى يمخر البحار. كما كان لها مراكز ومستوطنات فى جزر البحر الأبيض.

وكـان مـن المحـتمل أن تـتنظم رومـا وقرطاجنة فى علاقات سلام وتبادل اقتصـادى، فـروما دولة زراعية وقرطاجنة دولة تجارية، ولكن الرغبة فى المزيد مـن الكسب التى تملكت قرطاجنة، وإرادة السيادة التى تحكمت فى روما، أدتا إلى سجال من الحروب.

فـى جولـة مـن جـولات الصراع المهمة، رزقت قرطاجنة قائدًا عبقريًا هو هانيـبال، الذى أراد الانتقام، سار بجيشه من تونس إلى إسـبـانيا، ومن هناك تسـلق بجيشـه وعـتاده وفيلته جبال الألب المنيعة، لينزل على سهول روما .. واسـتطاع أن يلحـق بالجـيش الـرومانى هزائم، ولا سيما موقعة كينا التى استأصلت الجيش الرومانى وأسقطت بالعشرات رايات النسور وقـتـلت بالمئات القـادة الذيـن كانوا زهرة أرستقراطية روما ومجلس شيوخها.. وأصبح الطريق إلـى رومـا مفـتوحًا، ولو هاجمها هانيـبال لكان من الممكن أن يدخلها وينهى الحرب. ولكن آثر أن يمنح جنوده مهلة يستريحون فيها للمعركة التالية.

تمـالك الشـعب الـرومانى نفسه، ولم يفقد رباطة الجأش أو سلامة التصرف، وكـون بسـرعة من فلول الجيش المنهزم، ومن الصبيان والشباب، جيشـًا آخر ووضـع علـى رأسـه القنصل « فابـيوس » المراوغ، الذى كان يؤمن أن دحر هانيـبال إنمـا يتأتى بتـفادى الدخول معه فى معركة مكشوفة، ولكن بحصاره، وإنهاكه وقطع خطوط إمداده ... الخ..

وأفـلح هـذا التكتيك الذى أصبح فيما بعد علمًا على نهج من العمل السياسى حمـل اسـم « الفابـية »، يقوم على عدم الضرب إلا فى الوقت المناسب، وعندما تسنح الفرصة..

ودخلـت الحـرب فى جولة ثانية عندما نقلها القائد الرومانى البارع سيبيو إلى أرض قرطاجـنة نفسـها، التى وجدت نفسها عزلاء وهى تواجه جيشـًا رومانيًا قويًـا، فأرسـلت على عجل إلى هانيبال ليوافيها، فترك موقعه وعاد إلى قرطاجنة، ولكن الشعب والسلطات الحاكمة لم تمنحه التأييد اللازم، فهزم فى معركة « زاما » التى تهاوت على أثرها قرطاجنة..

وتقصى سياسة روما تجاه قرطاجنة، يلقى بضوء على سياسة أوروبا مع الدول التى تفتحها، فقد قررت روما تدمير قرطاجنة تدميرًا تامًّا، والانتهاء منها مرة واحدة وإلى الأبد، ولكنها سلكت سبيل الخداع. فأخذت ثلاثمائة شاب من الأسر النبيلة ليكونوا رهينة. ثم طالبت بالأسطول وأخذته.. وأخيرًا طالبت بالسلاح، على أساس أن روما ستقوم بحماية قرطاجنة، فسلم المقاتلون سيوفهم وسهامهم ورماحهم. وأخيرًا قالوا لهم إن عليهم أن يتركوا هذه الأرض ويبحثوا عن أرض أخرى لأن روما قررت تدميرها.. وعندئذ فحسب، حاول شعب قرطاجنة الحرب. ولكن بدون سلاح فهزموا وقتلوا.. ودمرت روما قرطاجنة تدميرًا.. أتى عليها ولم تقم لها قائمة..

ومرت القرون...

وحلت المسيحية محل الوثنية، وورثت بيزنطة تراث روما، وأخذت توطد دعائمها عندما انبثق شهاب الإسلام، فأضاء المنطقة بأسرها وغير موازين القوى فيها.

استطاع الإسلام الذى دار حول عقيدة التوحيد البسيطة، البعيدة عن كل تعقيد ثيولوجى، وبقيادة الرسول الذى كان نمطًا فريدًا من القادة.. أن يؤلف القبائل العربية التى لم يكن ينقصها الشجاعة، ولكن ينقصها الوحدة.. وضع فى يدها الكتاب والميزان، وجعلهم رسل حضارة جديدة تقوم على العلم والعدل والمساواة، فانطلقوا فى سرعة البرق، وخلال عشرين عامًا حررت الجيوش الإسلامية العراق من أسر الإمبراطورية الفارسية، وحررت مصر وسوريا من احتلال بيزنطة، بل حاصرت القسطنطينية نفسها عاصمة بيزنطة، بينما سار جيش طارق بن زياد، وموسى بن نصير، فدخل إسبانيا وفتح معظم قلاعها، وكانت خطة القائد موسى بن نصير أن يخترق جبال الألب، وينزل من إسبانيا إلى روما، كما فعل هانيبال من قبل.. ولكن اختلاف سياسات الخلفاء الأمويين حال دون ذلك، ولما حاول عبد الرحمن الغافقى ذلك، واخترق السهل الأوروبى حتى كان على مقربة من باريس هزم، لا لنقص فى الشجاعة، ولكن لأن البربر حرصوا على الغنائم.. أكثر مما حرصوا على النصر.. ففقدوا الغنائم والنصر

معًا. وكانت تلك هى « بوتيه » أو بلاط الشهداء التى أوقفت المد الإسلامى، وحالت دون أن يصل إلى العمق الأوروبى..

وكان على أوروبا أن تقضى خمسة قرون قبل أن توحد سيوفها وتوجهها للإسلام، فيما أطلق عليه الحملات الصليبية التى دعا إليها البابا، والتى حملت رسم الصليب على أعلامها، واستهدفت إنقاذ قبر المسيح من أيدى الكفرة المسلمين..

ولم تكن الحروب الصليبية صليبية فى حقيقتها رغم كل الشعارات والحماسات، ولكنها كانت جولة جديدة من الصراع بين الشرق والغرب، وخطة ذكية من البابا لتوحيد سيوف أوروبا وتوجيهها نحو الشرق، وإذا كانت هناك حملة يمكن أن يقال عنها إنها صليبية حقا، فتلك هى حملة الأطفال التى لا تكاد تعرف، عندما تجمع بضع مئات من الأطفال ــ من بنين وبنات ــ بتأثير أحد القسس ــ الذى اتضح فيما بعد أنه نخاس وتاجر رقيق يتعامل مع بعض أصحاب السفن فى البندقية الذين يتعاملون مع المسلمين ــ واستطاع هذا القس أن يلهب حماسة الأطفال الأبرياء، بحيث لم يتمكن آباؤهم من منعهم من السفر، خاصة بعد أن باركت الكنيسة رحلتهم، ولم تكد السفينة تبتعد عن الشاطئ، حتى ظهر تاجر رقيق مع قبطان السفينة، وأخرجوا الأطفال بعدونهم ويفحصونهم ويضربونهم بالسياط، حتى وصلوا إلى البندقية وأخذهم تجار الرقيق، ولكن عددًا محدودًا استطاع أن يختبئ، فنجا من هذا المصير وتمكن من العودة ليخبر الآباء والأمهات بهذه المصيبة.

فى هذه الجولة الثانية من الصراع ما بين الغرب والشرق انتصر الشرق، وإن كان قد دفع غاليًا ثمن الفرقة التى مزقت دوله، ولكنه فى النهاية انتصر ورد الصليبيين على أعقابهم بعد أن عاثوا فسادًا وأعملوا القتيل والتذبيح.

ومضت خمسة قرون على آخر انتصار شرقى على جنود الفرنجة، قبل أن تبدأ الجولة الثالثة مع بدايات القرن التاسع عشر. وهى التى شاهدت الغزو الأوروبى الكاسح للدول الشرقية والإسلامية، فانتصر نابليون حيث هزم لويس التاسع، وعاد أحفاد قلب الأسد وبلدوين وجود فرى إلى الشام بعد أن طردهم صلاح الدين. لأن الغرب استطاع خلال القرون الخمسة، أن ينمى نفسه وأن يتوصل إلى الثورة

الصـناعية الـتى فتحت أمامه آفاق الصناعة الحديثة، والتى تمخـضت عن بناء سـفن عملاقة تسير بالبخار وسكك حديدية.. ثم أسلحة من بنادق ومدافع، كفلت للجـيوش الأوروبـيـة الانتصار على الجيوش الشرقية التى كانت ـ لا تزال ـ تحارب بالسيف والرمح.

ولـم يقـدر للشرق أن يتحرر من الاستعمار، إلا بفضل التطورات الدولية التى كـان أبرزها قيام الحربين العالميتين (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) و (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م)، واسـتطاع أن يحقق قدرًا محدودًا من التـقدم الصناعى، ولكن لما كانت الشـُقة ما بيـن الغـرب والشرق تتسع، خاصة بعد التوصل إلى التكنولوجـيات الحديثة جدا، فـإن احتمال نجاح الشرق فى استدراك هذا التخلف، رهن بقيادة ثورة تكنولوجـية تقفز فوق الشـُقة الواسعة، بحكم القوى الإيمانية الاستثنائية التى يثيرها الإيمان فى النفوس.. فبدون هذا، سيظل الشرق فى وضع الدول المتخلفة، عن الغرب المتقدم.. وهـو وضـع يفـتح شهية الغرب المتربص، ويجعل احتمالات نجاحه فى إخضاع الشـرق راجحة.. وهو ما يحدث خلال العقدين الأخيرين مع محاولة عولمة العالم، بمعنى أن يكون سوقـًا للمنتجات الغربية، وأن تكون شعوبه مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة.

> يوضـح هـذا الاستعراض لتاريخ العلاقة بين الغرب والشرق أن الخصـائص التى كشفت عنها أول جولة فى هذا الصراع ما بين رومـا وقرطاجنة، واصلت البقاء والظهور فى آخر الجولات، أى المـرحلة الاسـتعمارية فـى القرن التاسع عشر، كما ظهرت فى خصـائص العلاقـة ما بين المستوطنين الأمريكيين الأول وسكان الـبلاد الأصـليين الذين يطلق عليهم الهنود الحمر، ففى كل هذه الجـولات اسـتخدمت أوروبـا كل وسائل العدوان من حرب أو سياسـة، كمـا لجـأت إلـى القسوة والتدمير دونما أية رحمة، واسـتنزاف كـل ثـروات وموارد البلاد التى دخلوها. بحيث لا يتصـور أن يتغير هذا المسلك فى أية جولة قادمة ما بين الغرب والشرق..

مـع بدايـة القـرن العشـرين، كانـت أوروبـا قد اقتسمت العالم الإسلامى واسـتعمرت دولـه، وكـان آخرها احتلال إيطاليا لليبيا. ومع هذا فإن هذا القرن نفسـه، رسم نهاية المد الذى بلغه الاستعمار وبداية جزره، ويقظة الشرق، وظهرت أولـى ثمار جمال الدين الأفغانى وغيره من الرواد، مما كان يؤذن ببداية التحرير. كمـا كانت التطورات الدولية تتطلب تغييرًا فى السياسات الاستعمارية الغشيمة التى طبقـت خـلال القـرن التاسـع عشر. لقد أصبح لدى الشعوب الشرقية ــ خاصة الإسـلامية والعربية ــ إلمام كبير بالثقافات الحديثة والعصرية، ونهضت الصناعة، ولـو على أيدى الرأسماليين الأجانب الذين استفادوا من رخص اليد العاملة، وظهر جليًا أن أسلوب وحشية القرن التاسع عشر لم يعد ملائمًا.

وقامـت الحـرب العالمية الأولى، فأثارت دوامة من التطورات غيرت خريطة العـالم العـربى، لعـل أبـرزها كان إعلان بلفور وظهور الحركة الصهيونية فى فلسـطين. وكان القلق الذى اتسمت به « هدنة العشرين عامًا » كما أطلق عليها ما بيـن نهايـة الحـرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية، عاملا مساعدًا للدول الإسلامية والعربية؛ لأنه شغل الدول الأوروبـية بمشكلاتها التى أدى تفاعلها فـى النهاية إلى نشوب الحرب العالمية الثانية، والتى كان لها آثار بعيدة المدى، إذ كانـت بدايـة حركة التحرير التى شملت دول الشرق المستعمر بما فى ذلك الهند، ومصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، وليبيا، والسودان .. الخ..

ولـم يكـن معنى هذا أن الغرب تخلى عن طابعه العدوانى الموروث، أو عن اسـتهداف السـيطرة.. أو استخدام القوة. كان خير تصوير لمسلك أوروبـا هو ما قالـه الكاتـب العسكرى الألمانى الشهير «كلاوزفيتز»: «أن السياسة هى ممارسة الحـرب بطـرق أخـرى»، فطـوال القرن، لم تكف الدول الأوروبـية عن دس الدسـائس والـتآمر أو الـتدخل أو اصـطناع العملاء. وقد تحدث الأمير «شكيب أرسـلان» عن «مائة مؤامرة لأوروبـا على الإسلام» وإذا أعطينا تعبير المؤامرة قدرًا من المرونة، فقد يزيد العدد على مائة..

• • •

(٤)

قد يقول قائل ..

وما علاقة هذا كله بأحداث ١١ سبتمبر ..

العلاقـــة أن أحـــداث ١١ ســـبتمبر بعثـــت إلى الحياة كل هذه الذكريات القديمة المخـــتزنة فى الذاكرة العميقة للشعوب العربية والأوروبـــية والتاريخ الأوروبـــى، ولـــم يكـــن صدفة بالطبع الإشارات المتكررة على ألسنة الأمريكيين والأوروبـــيين إلى الحرب الصليبية الجديدة، وسيغريها هذا بأن تسير فى المستقبل، كما سارت فى الماضـــى، أى أن تكون علاقتها علاقة صراع وقتال، تمارس فيها أساليبها الانتقامية الوحشـــية التى بدأت بتدمير قرطاجنة.. وظلت حتى محاولة تدمير العراق وغيره، ولعهـــا تقلـــع عن الأساليب الديـــبلوماسية والتآمرية التى كانت تسلكها فى القرن العشرين، وكانت تتلاءم مع مناخه حتى وقعت أحداث ١١ سبتمبر.

وهـــذا مـــا يفرض علينا أن نضع استراتيـــجـــية محددة لما يكون عليه العمل العربى / الإسلامى فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر.

والعناصر الرئيسية فى بناء هذه الاستراتيـــجـــية هى

أولا : الإرهاب ظاهرة اجتماعية / اقتصادية / سياسية. تظهر لدى كل الشعوب وكـــل الأديان عندما تتهيأ عوامله، ومن الخطأ والابتسار ربطها بالإسلام، فقد ظهر فـــى روســـيا القيصـــرية فى العقد الأول للقرن العشرين فى حركة النهليست الذين اغـــتالوا القيصـــر وعددًا كبيرًا من المحافظين والضباط احتجاجًا على فساد نظام الحكومة الاوتوقراطى وسيطرة النبلاء.. كما حدث فى الولايات المتحدة ــ وهو ما يفـــترض أن يعلمـــه الأمريكيون ــ فى كوكلوس كلان وإرهابها للأمريكيين السود، وفـــى التنظـــيمات الأصـــولية الجديـــدة التى أولت المسيحية تأويلا يخدم السياسة الإسرائيلية، أو غيرها، وظهر ماكـــفـــى الذى دمر مبنى أوكلاهوما، وداڤيد كورش وأتـــباعه الذين ماتوا فى معركة مع الشرطة الأمريكية، وظهر واستمر فى فلسطين علـــى أيـــدى الصـــهاينة، مـــنذ دمـــر مناحم بيجين وأتباعه فندق الملك داود على البريطانيين، إلى مذابح دير ياسين وصابرا وشاتيلا وقانا.

وقـــد ظهـــر الإرهاب فى المنطقة العربية لديكتاتورية النظم العسكرية وفسادها. وبدأت البذرة الأولى فى سجون عبد الناصر، ونتيجة للتعذيب الوحشى الذى مارسه

مع المعتقلين السياسيين طوال حكمه، وانتقلت إلى سوريا التي هدم فيها حافظ الأسد حماه بالمدافع والقنابل والطائرات والدبابات.

فهذه النظم التي حكمت بالديكتاتورية، واتسمت لهذا بالفشل، وتطرق إليها الفساد، وكانت السبب الرئيسي في العمل تحت الأرض لمن حرم عليهم العمل المشروع، أي المشاركة في الحياة السياسية والثقافية والإعلامية، والمشاركة في تشكيل حياتهم ومستقبل أبنائهم.

فالإرهاب هنا كان نتيجة للحكم الديكتاتوري الفاسد الذي كتم الأنفاس وسد منافذ العمل المشروع، بحيث أصبح لا مناص عنه كنوع من الاحتجاج، وكان لابد أن يوجد، وقد وجد في حركة المصوتات النسائية في بريطانيا Suffragette في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، عندما أصرت الحكومات المتعاقبة على رفض مطالبهن، وظهر في أيرلندا، بين الكاثوليك والبروتستانت، وظهر في أمريكا اللاتينية في حركات لاهوت التحرير الكاثوليكية.

أما الإسلام، فلم يكن إلا المظلة التي اصطنعها الذين قاموا بهذه الأفعال، ولكن السبب الأصيل هو فساد الحكم وديكتاتوريته التي تحول دون العمل المعلن المشروع، وهذا الحكم تحميه أمريكا وتساند قادته وتزود حراس سجونه وأمنه بالعتاد والمعدات والخبرات.

ثانيًا : إن من اكبر أسباب كراهية الشعوب العربية لأمريكا هو سياستها المنحازة انحيازًا أعمى لإسرائيل، بحيث باركت تكسير عظام الأطفال، والتعذيب في السجون، واغتيال المخالفين سياسيًا، وقلع الأشجار وهدم البيوت، والإساءة إلى الكرامة الإنسانية بكل الطرق. إن العدوان الإسرائيلي الذي شهد عليه المنصفون في كل العالم، ما كان ليحدث لولا تأييد أمريكا ومباركتها وتزويدها بالمعونات والسلاح بحيث أصبحت شريكة لها.

يخالف هذا الموقف كل أصول العدالة وكل القيم التي تدعو إليها الولايات المتحدة وقيم الحضارة الحديثة.. ثم هو يسيء إساءة بالغة إلى المصالح الأمريكية، لأن المصالح الحقيقية لأمريكا لا تتحقق إلا بتأييد شعوب المنطقة وقبولهم.

لقد تصور البعض أن الشرق الفقير يحسد أمريكا الغنية المترفة، وينقم عليها

ثـراءها، وهـذا غـير صحيح، وهو يخالف أخلاق أهل هذه المنطقة. الصحيح أن الولايات المتحدة جعلت من نفسها شريكة لإسرائيل في كل صور العدوان الوحشي علـى الشعب الفلسطيني، وعلى سكان منطقة عزيزة على قلوب العرب والمسلمين جميعًا، ولو أقلعت الولايات المتحدة عن سياسة التأييد الأعمى لوجدت التقدير ـ كل التقدير ـ من شعوب المنطقة.

حـتى «ابـن لادن»، الـذى أصبح رمزًا للشيطان، كان يومًا ما حليفًا مخلصًا لأمـريكا فـى كفاحهـا ضـد غزو السوفييت لأفغانستان، وألم بالثقافة الأوروبـية والأمريكـية، وكان يمكن أن يكون صديقًا لأمريكا، والشيء الوحيد الذى جعله عدوًا لأمـريكا، هو تأييدها لإسرائيل بصورة جعلها هي وإسرائيل شيئًا واحدًا. وغنى عن الذكر ثراءه الذى لا يجعل أحدًا يتهمه بأنه يحسد ثراء أمريكا.

إن مـن الضرورى أن تتخلص الولايات المتحدة من سيطرة اللوبى الإسرائيلى الـذى يسخر مصالح للولايات المتحدة لمصلحة إسرائيل، والذى يجعلها تقف مؤيدة ومـباركة لشارون الذى تعتبره العدالة الدولية مجرم حرب، فهو الذى قتل الأسرى المصـريين، ودبر مأساة صابرا وشاتيلا التى راح ضحيتها الآلاف من الفلسطينيين العـزل رجالاً ونساءً وأطفالا وشيوخـًا، تلك السيطرة التى تجعلها تؤيد سياسات العـدوان علـى حساب القيم الحضارية، وقد آن لها أن تعرف أن إسرائيل أصبحت عبـئًا عليها وليست كسبًا لها، خاصة بعد أن تحلل الاتحاد السوفييتى ولابد أن تعلي المصلحة القومية والعليا للولايات المتحدة على المصالح الحزبية والشخصية.

ثالـثًا : لابـد من عرض الإسلام عرضًا سليمًا، وأن يقدم باللغة والروح التى يـتفهمها ويستوعبها الجمهور الأوروبـى / الأمريكى. والمشكلة أن الحكومات تلجأ إلـى المؤسسة الدينية لتقوم بهذا الدور، وهى آخر من يصلح لذلك لأنها تقدم صورة تقليدية رديئة، ولا تستطيع أن تقدم ما هو أفضل منها لاعتبارات عديدة(*).

وإنمـا يجب أن يقوم بذلك المفكرون الإسلاميون الذين يجمعون ما بين الثـقافة الحديثة ومعارف العصر، والفهم الإسلامى.

والمطلـوب أن يقدم الإسلام، كما قدمه القرآن وكما مارسه الرسول ﷺ ، دعوة

(*) قد يكون منها ركونها إلى السلطة، بجانب خضوعها لها.

لـتحرير البشرية، وإنقاذها من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة، وإشاعة قيم العدل والمسـاواة والخير والحرية، والإيمان بالله تعالى باعتباره أصل القيم، وأن الإسلام أعلى قيم المساواة بين الناس جميعًا، وقضى على كل دعاوى العنصرية التى كانت تسود العالم القديم.

ويجـب إبراز ما أتصف به المسلمون فى فتوحاتهم من عدل وإنسانية، وسماح لكـل الأديـان الأخـرى بالبقاء ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» ــ وتـركهم أحرارًا فى كل ما يتعلق بعقائدهم. كما يجب إبراز ما تضمنه القـرآن الكريم وكرره مرارًا من إيمان المسلمين بكل الأنبياء السابقين، بما فى ذلك موسـى وعيسـى، وتوقيرهم للسيدة مريم، وأن المسيح لديهم نبى كريم وأمه سيدة نسـاء العالميـن، وأن الإسلام حقق تعايش الأديان وحقق عالمية أفضل من العولمة التى يدعون إليها.

ويجب إبراز حقيقة أن ما ألصق بالإسلام من اجتهادات منحرفة، أو متخلفة، أو مـا التـصـمت به بعض فترات الحكم الإسلامى من عسف أو جهالة، إنما يعود إلى أصـحابه وليس إلى الإسلام، وأنهم كانوا جهلة بالإسلام أو مستغلين لـه، وأن هذا حدث فى أوروبـا، وحدث فى اليهودية، ويحدث حتى اليوم، وحدث فى المسيحية.

ويجب كذلك إبراز الدور الإسلامى فى النهضة بالفلسفة، والعلوم والفلك والجبر والهندسـة والحساب والطب والملاحة، وأن الفكر الإسلامى قدم لأوروبـا ما مكنها مـن تحقـيق نهضـتها. وإبـراز ذلك الأسلوب التجريبى والعملى فى العلوم، ومع الدعـوة للـتحرر مـن عبودية الخلق لبعضهم البعض، وأن تكون علاقة الفرد بالله تعالى مباشرة، دون وصاية أحد أو سيطرة مؤسسة دينية كائنة ما كانت.

رابعًـا : نرشـح أن يقـوم بهـذا الجهد ــ بالدرجة الأولى ــ الهيئات الفكرية المـتطوعة. ومـنظمات المجـتمع المدنى، وحقوق الإنسان، التى تجد فى الإسلام نصـيرًا لهـا. والمفكرون الإسلاميون الأحرار، وسيجد الجميع مناصرة من أفراد كثيرين يقدمون العون المادى والتأييد الأدبى.

ومـن المهـم أن تـتحرك المـنظمات غـير الحكومـية لتمارس دورها فى الديـبلوماسـية الشعبية، التى هى أكثر فعالية من الديـبلوماسية الحكومية المقيدة بالاعتبارات الرسمية.

أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م

قراءة هادئة بنظرة موضوعية

د. زغلول النجار

موجـز

هـزت الهجمات الانتحارية على كل من نيويورك وواشنطن فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م مشاعر الناس أجمعين، الذين وقفوا فى ذهول عاجزين عن فهم القـوى الواقفـة من ورائها والدوافع الحقيقية لهذا الحدث الأليم الذى راح ضحيته قرابة الثلاثة آلاف قتيل من الأبرياء من مختلف الجنسيات والديانات والمعتقدات، وبلغت خسائره المادية مئات الآلاف من الوظائف ومئات المليارات من الدولارات، وخسائره المعنوية أضعاف أضعاف ذلك...!! وانقسم الناس حيال ذلك الحدث الجلل بمقترفيه، ودوافعه، ومبرراته إلى تصورات ثلاثة على النحو التالى:

(١) يـرى أصـحاب التصور الأول الذى روجت لـه الإدارة الأمريكية وإعلامها القـوى، ورددە الإعلام الغربى، وأبواق الصهاينة على أرض فلسطين المحتلة وفـى كـل مكـان، أن الذين قاموا بتلك الهجمات الانتحارية هم مجموعة من المقاتلين المسلمين العرب الذين شاركوا بالجهاد على أرض أفغانستان، وساهموا مساهمة فعالة فى دحر القوات الروسية المعتدية وإجبارها على الخروج من هذا البلد المسـلم الذى ظلت تحتله لعدة سنوات بقوة السلاح، وقد ساعدت هزيمة الـروس فى أفغانستان على تفكك الاتحاد السوفييتى السابق، وهو حلم طالما راود الإدارة الأمريكـية دون تخـيل لإمكانـية تحقـيقه، ولذا فقد كان جهاد المجاهديـن الذيـن قدموا إلى أفغانستان من كل أرجاء العالم الإسلامى لنجدة إخوانهم الأفغان فى محنتهم يلقى الرضا كل الرضا من الإدارة الأمريكية، التى

رأت فى العملية هزيمة لعدوها اللدود بأيدى غيرها، دون أن تخسر جنديًا واحدًا من جنودها....!!!

وبعد تحرير أفغانستان من قبضة الروس، بدأت المؤامرات الأمريكية للحيلولة دون استتباب الأمن فى البلاد تحت قيادة أى من الفرق الجهادية، حتى تقتل روح الجهاد التى أحيتها هذه الحرب فى قلوب وعقول المسلمين. وقد أحدث هذا الموقف الناكر للجميل للولايات المتحدة استياءً عامًا فى نفوس المجاهدين، الذين ضاعف من شعورهم بالإحباط الشديد تعنت أمريكا (ومن ورائها الغرب كله) فى مواقفها الجائرة الظالمة، المنحازة فى كافة قضايا المسلمين، خاصة قضية فلسطين، وفى إشعال حرب الخليج الأولى والثانية اللتين اتخذتهما ذريعة لاحتلال مواقع استراتيجية فى شبه الجزيرة العربية كلها وابتزازها لها، وفى حصار العراق لأكثر من عشر سنوات، وضربه بطلعات جوية تكاد أن تكون يومية، وفى الاعتداء على كل من ليبيا والسودان، وحصارهما لسنوات طويلة، وفى غزو الصومال، ودعم تمرد جنوب السودان، والضلوع فى العديد من الانقلابات العسكرية، ودعم الدكتاتوريات الحاكمة، وإثارة العديد من الفتن والقلاقل واصطناع العملاء، من أجل فرض هيمنتها دون مراعاة لأبسط القيم الأخلاقية أو الحقوق الإنسانية، فى الوقت الذى تدعى فيه أنها حامية الديموقراطية، وحارسة الحريات والمدافعة عن حقوق الإنسان...!!

وقد ولدت هذ المواقف الأمريكية الظالمة الرغبة لدى جماعة من هؤلاء المجاهدين فى الانتقام من الإدارة الأمريكية ــ لا من الشعب الأمريكى ــ ولذا فقد صممت الهجمات بهدف إهدار كرامة هذه القوة العالمية المتعجرفة، وإذلال تكبرها، وتحدى قدراتها على حماية أهم رموزها العسكرية والاقتصادية فى عقر دارها.

وعلى الرغم من ترويج كافة الإدارات ووسائل الإعلام الغربية (وحتى بعض المسلمين المقيمين فى الغرب) لهذا التصور، إلا أنه يبقى فرضًا نظريًا بحتًا منطلقًا من المثل القائل: «يكاد المريب أن يقول خذونى» دون دليل مادى

واحد يعتمد عليه سوى بعض أشرطة الـفيديو التى يشك فى صحتها، والتى لا يمكن قبولها كدليل حتى من الناحية القضائية...!!!

(٢) يـرى أصـحاب التصـور الثانى، أن العملية الانتحارية قد تمت بمستوى من التقنـيات العالية الفائقة المستوى من الإتقان فى الدقة، والذى لا يمكن أن يتوفر شـىء منها لدى الجماعات المسلمة التى حملت السلاح على أرض أفغانستان. فقـد أجمـع كافة الخبراء الذين شاهدوا الأفلام التى صورت وقائع الحدث على شاشـة الـتلفاز، أن هذ العملية لا يقوى على القيام بها طيار مدنى مهما كانت خـبرته، ناهـيك عـن إدعاء المخابرات الأمريكية أنهم طلاب لا يزالون تحت التدريب على الطيران المدنى، وعلى ذلك فلا بد وأن يكون الذين قاموا بها من العسـكريين الذيـن يتميزون بخبرة عسكرية عالية، وبمعرفة كاملة بالمسارات الجوية الأمريكية، وبتواطؤ كامل مع أجهزة الاستخبارات الأمريكية، أو بعملاء لهـم فيها وفروا التغطية الكافية للقيام بالعملية، وإلا استحال اتمامها. ولا يقوى علـى ذلـك إلا قـوة عسـكرية عالية التدريب، وعميقة الجذور فى الأرض الأمريكـية مـن مـثـل اليمـين الأمريكى المتطرف، أو أجهزة الاستخبارات الصـهيونية (الموسـاد)، بدلـيل تهديد «تيموثى ماكفى» الأمريكى، اليمينى المـتطرف وهـو يسـاق إلى ساحة الإعدام بإحراق أمريكا، وقد أعدم لقيامه بتفجير أحد الأبنية الحكومية فى مدينة أوكلاهوما بتفجير شاحنة تحمل ١٥٠٠ كيلو جرام من المواد شديدة الأنفجار بساحة انتظار سيارات ذلك المبنى وذلك بتاريخ ١٩٩٧/٤/١٩م. كذلك جاء فى الإعلام الأمريكى أن خمسة من اليهود ضـبطوا علـى سطح عمارة قريبة من مركز التجارة العالمى لحظة اشتعاله، وهـم يقومـون بتسجيل الحادث بالصورة لحظة ارتطام الطيارات بالمبنيين، وثبـت أنهم دخلوا أمريكا بطريقة غير مشروعة ويتصرفون بطريقة غريبة، وقـد تـم القبض عليهم للتحقيق الذى لم يعلن عنه شىء حتى اليوم ــ ولن يعلن ــ وقد تم ترحيلهم إلى فلسطين المحتلة.

ونذكـر أيضًا تهديد «نتنياهو» رئيس الوزراء السابق للكيان الصهيونى الغاصـب لأرض فلسـطين، بأنه يستطيع أن يحرق أمريكا، هذا بالإضافة إلى العديـد من عمليات التجسس، والمؤامرات، والدسائس، والسرقات التى قام بها

عملاء «الموساد» فى قلب الولايات المتحدة الأمريكية، وفى قلب العديد غيرها من دول الغرب، وفى خارجها والتى سرعان ما يغطى عليها فلا يحاسبون، وذلك من مثل ضرب باخرة التجسس الأمريكية «ليبرتى» بواسطة الطائرات الإسرائيلية فى المياه الإقليمية المصرية قبالة العريش أثناء الاعتداء الإسرائيلى على مصر سنة ١٩٦٧م، وقتل وجرح أعداد من الضباط والجنود الأمريكيين ظنًا من الصهاينة المعتدين أن الباخرة قد التقطت صورًا لهم وهم يغمسون الأسرى المصريين ضد كل القوانين والأعراف الدولية، ولم تعلن نتائج التحقيق فى هذه الجرائم إلى يومنا هذا بعد مرور قرابة الأربعين سنة، ونفس الشىء يمكن أن يقال عن قتلة الرئيس السابق كنيدى، وسرقة الأسرار الذرية والعسكرية من أخطر المراكز الأمريكية والفرنسية والروسية وغيرها، وعن اغتيال العلماء المسلمين، وعن اسقاط طائرة الركاب المصرية فى الأجواء الأمريكية والليبية فى الأجواء المصرية.

(٣) ويرى أصحاب التصور الثالث، أن جريمة الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م قد خطط لها، وقام بتنفيذها رجال من المخابرات الأمريكية نفسها، كى تتخذها الإدارة الأمريكية ذريعة لغزو أفغانستان للقضاء على بقايا الروح الجهادية فى تلك البلاد، وإقامة عدد من القواعد العسكرية الأمريكية فى قلب آسيا تضع بها نفط بحر قزوين تحت هيمنتها، وهو أكبر احتياطى نفطى معروف بعد احتياطى الخليج العربى، وتكون بذلك على مقربة من أعدائها الأزليين: روسيا والصين وعدوها الجديد إيران، والذين أضافت إليهم الإدارة الأمريكية مؤخرًا كلاً من باكستان والهند لحصولهما على المقدرة النووية العسكرية ... وهو حلم طالما راود خيال الإدارة الأمريكية دون التمكن من تنفيذه...!!!

هذه هى التصورات الثلاثة الرئيسية المطروحة على الساحة، أيها أقرب إلى التصديق، وألصق بالواقع؟ سؤال سوف تكشف الأيام عن الإجابة عليه، ولكن بعد فوات الأوان، ولله الأمر من قبل ومن بعد...!!!

* * *

مقدمة

فـــى تمـــام الساعة التاسعة إلا ربعًا من صبيحة الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، قامـــت طائـــرة ركـــاب مدنية من طراز بوينج ٧٦٧ (تزن أربعمائة طن، وتحمـــل خمســـين طـــنًا من الوقود) بالاصطدام عمدًا بركابها، وبأقصى سرعة لها بالطـــابق الثمانيـــن مـــن البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى فى مدينة نيويورك، محدثـــة دويًـــا هـــائلاً، وحـــريقًا مذهلاً على هيئة كرة ضخمة من النيران جاوزت حـــرارتها الألف درجة مئوية، مما أدى إلى صهر الهيكل الحديدى للمبنى وانهياره بالكامل فى لحظات.

والطائرة تابعة للخطوط الجوية الأمريكية (American Airlines; Flight AA11) وكانـــت فـــى طـــريقها من مدينة بوسطن إلى مدينة لوس أنـــجلوس، وتم اختطافها وتغيير مسارها إلى مصيرها المحتوم.

وبعـــد عشـــرين دقـــيقة فقط، جاءت طائرة بوينج أخرى بنفس الحجم والسرعة لتصـــطدم بالبرج الجنوبى لمركز التجارة العالمى، فتتلاشى فيه ومعه نتيجة للصدمة المروعة، والحريق الهائل الناتج عنها والذى أدى إلى إنهيار البرج بأكمله، وتبين أن هذه الطائرة تابعة لشركة الطيران المتحدة (United Airlines; Flight 175) وكانت فى طـــريقها كذلك من مدينة بوسطن إلى مدينة لوس أنـــجلوس. وبعد قليل كانت هناك طائـــرة ثالثة تقصف مبنى وزارة الدفاع الأمريكية (الـــبنتاجون) وتدمر جزءًا كبيرًا من مبانيه، والطائرة تابعة للخطوط الجوية الأمريكية (American Airlines; Flight AA77) وكانـــت فـــى طريقها من مطار دالاس فى مدينة واشنطن إلى مدينة لوس أنـــجلوس.

وضـــلت طائـــرة رابعة طريقها وكانت تقصد الاصطدام بالبيت الأبيض ولكنها ســـقطت أو أسقطت على أحد الحقول فى منطقة «سومرست بولاية بنسلـــفـــانيا ــ Somerset County, Pennselvania» والطائرة تابعة للخطوط الجوية المتحدة (United Airlines; Flight 93) وكانـــت فـــى طـــريقها مـــن مدينة نيويورك إلى مدينة سان فرانسيسكو.

هـــذه الأحداث المتسارعة فى أقل من ساعتين، أدت إلى ذهول الناس ــ لا فى

أمـــريكا وحدهـــا ـــ ولكـــن فى العالم أجمع نظرًا للشلل التام الذى أصاب الأجهزة الحكومية فى أكبر دولة فى العالم، حتى اضطرت إلى إخفاء رئيسها ونائبه فى مكان ســـرى آمـــن دون جدوى، وقد أدى ذلك إلى اهتزاز صورة هذا الجهاز الحاكم فى الولايات المتحدة الأمريكية بصورة لم يكن يتخيلها أحد فى العالم، وبخاصة أجنحته الأمنية والتى تتعدى الخمسين جهازًا، لكل منها إمكانات بشرية ومالية وتقنية تصلح لـــتجعلها دولـــة كاملة..، ولذلك أصيبت الولايات المتحدة الأمريكية بهزيمة معنوية، وإهانـــة ضمنية لم تكن تتوقعها أبدًا ولا من أكبر أعدائها قوة، وألدها خصومة وهو الاتحـــاد الســـوفييـــتى فـــى أوج تماســـكه وقوته العسكرية، فقد أدت هذه الهجمات الانـــتحارية إلى انهيار صورة الولايات المتحدة فى أذهان الناس وضياع هيبتها إلى غير رجعة ...!!! وكان على الولايات المتحدة أن تبحث عن كبش فداء تصب عليه جـــام غضـــبها، وغضـــب رجل الشارع الأمريكى الذى خاب أمله فى قدرة إدارته الأمريكية على توفير الأمن لـــه على أرضه، وهى التى كانت تتباهى بحرب النجوم كمـــا تسميها، أو الصواريخ المعترضة لتلك القادمة من خارج الحدود وتفجيرها قبل وصـــولها إلى الأجواء الأمريكية. وكان كبش الفداء هو بعض عناصر من المسلمين وعلـــى رأسهم أسامة بن لادن وتنظيمه المعروف باسم «تنظيم القاعدة»، وتم فورًا إعـــلان حالة الطوارئ القصوى فى كافة أنحاء البلاد، ثم فى ليلة ٩/١٤ أعلن بوش فـــى الكونجرس أن أمريكا فى حالة حرب، وفى صبيحة اليوم التالى (٩/١٥) أعلن وزير العدل الأمريكى أن المتهم الأول فى الحادث هو أسامة بن لادن.

وبـــدأت الحكومـــة الأمريكـــية بالتهديد والوعيد لأسامة بن لادن وتنظيمه ولمن يأويه، وبالتهديد بضرب أفغانستان، وكل من اليمن، والصومال، والسودان، والعراق بدعـــوى أنهـــا دول راعـــية للإرهـــاب، وتحول الغضب الأمريكى فى أعقاب ذلك للتخطـــيط لحملـــة انتقامـــية مسعورة لا تستهدف مجرد اقتلاع الإرهاب الدولى من جـــذوره كمـــا يقولون، وتجفيف كل منابعه، بقدر ما تستهدف تلقين العالم درسًا لا ينســـى بـــأن القـــوة العسكرية الأمريكية قادرة على سحق كل من يحاول المساس بكرامـــتها كأكـــبر دولة فى العالم، وأن ما تراه هذه الدولة الكبرى من إجراءات فى ســـبيل تحقـــيق ذلـــك، هو القانون الذى يحكم العالم ويتجاوز كل منظماته الدولية، ونسيت الإدارة الأمريكية أن الدافع الحقيقى من وراء هذه الهجمات هو دافع سياسى

محض موجه إلى الإدارة الأمريكية احتجاجًا على سياساتها الخارجية الجائرة، وليس ضـد الشـعب الأمريكي، وذلك نظرًا للرمزية الواضحة للأهداف المقصودة وهي: مركز التجارة العالمي (رمز الغلبة الاقتصادية)، والـبنتاجون (رمز القهر العسكرى الأمـريكى فـى كل مكان من الأرض)، والبيت الأبيض (رمز المظالم العديدة التى تفرضـها السياسات الأمريكية على مختلف دول العالم فى غطرسة واضحة وتكبر مكـروه). ولـم تشعر الإدارة الأمريكية بعد بعمق الكراهية لسياستها الخارجية فى العالم كله، فتفكر ــ ولو للحظة ــ فى إعادة مراجعتها لتلك السياسة، وإن كان بعض طوائف الشعب الأمريكي قد بدأ يتساءل عن ذلك ...!!!

ومن الغريب أن يتساءل الرئيس الأمريكي لماذا يكرهنا الآخرون؟

وبـدون أن يفكر ولو للحظة في مراجعة السياسات الأمريكية الخارجية الظالمة فـى عهد سابقيه، والأكثر من جائرة فى عهده، يجيب جوابًا غاية فى العجب والبعد إن لم يكن فى المواربة والتحايل على تجاهل الحقيقة، فيقول: «لأنهم يحسدوننا على هـذه الحـرية التى ننعم بها؛ لأنهم يكرهون الحرية» وهو جواب أبعد ما يكون عن الحقـيقة، فضلاً عما فيه من الصلف والكبر على الآخرين، **فهل يوجد عاقل على وجه الأرض يكره العيش في جو من الحرية!!؟**

وتوالـت الأحداث بعد ذلك متسارعة بشكل جنونى لا يتسم بأقل قدر من الحكمة والتعقل، فذكرت المصادر الأمريكية ١٩ اسمًا متهمًا بالقيام بتلك الهجمات الانتحارية من بينهم ستة أسماء لمصريين والباقى أسماء لسعوديين وعرب من جنسيات أخرى **علمًـا بأنـه لم يثبت وجود أى اسم عربى فى قوائم الركاب المنشورة على شبكة المعلومـات الدولية (الإنترنت)، وأن الأسماء التى أعلنتها الإدارة الأمريكية غير صـحيحة جملـة وتفصـيلاً، وذلـك بثبوت أن بعضهم مازال على قيد الحياة فى أوطانهم خارج الولايات المتحدة الأمريكية، بل يعيش أحدهم فى فلوريدا ويعمل مع الـــ FBI ، والـبعض الآخر قد توفى منذ أكثر من عام، والبعض الثالث ثبت أن جوازات سفرهم كانت قد فقدت منهم منذ مدة طويلة وكانوا قد أبلغوا عن ضياعها فى حينه، مما يؤكد أن كافة الأسماء المتهمة من قبل الإدارة الأمريكية هى أسماء مـن خـيال أجهزة الاستخبارات الأمريكية التى أرادت أن تنتقم لكرامتها المهدرة بمسـرعة بالغـة وبأيـة وسيلة ممكنة...!!!** وتم التعدى على الحرية والديمقراطية

وحقـوق الإنسان ، فى كل من أمريكا وبعض الدول الغربية بسن عدد من القوانين الاستثنائية وإعلان إنشاء المحاكم العسكرية.

وتوالـى بعـد ذلـك هجـوم وسائل الإعلام الأمريكية والغربية على الإسلام والمسـلمين فى الشرق الأوسط، وحرصت على تصوير الحادث على أنه وجه من أوجـه الصـراع الحضارى بين الإسلام والغرب، واعتقال مئات من المسلمين من أصـول عربـية مـن الزائرين والمقيمين، والحاملين للجنسية الأمريكية، وحدثت تجـاوزات كثـيرة فـى اسـتجواب بعضهم، وإساءة معاملتهم، وظهرت شعارات العنصرية الدينية والعرقية البغيضة لتجتاح أمريكا والعديد من الدول الغربية ضد كل مـا هـو عربى أو إسلامى، حتى وصلت جرائم الحقـد العرقـى والدينـى فـى الأسـابيع الـثلاثة الأولى بعد ٢٠٠١/٩/١١م إلى أكثر من ألف جريمة مسجلة فى وثائق وكالة المباحث الفيدرالية (FBI) كانت كلها ضد العرب والمسلمين.

وحاولت الإدارة الأمريكية امتصاص نتائج مثـل هذه الإثارات الإعلامية، فقام الرئيس بوش ــ بعد إعلان حربه بأنها حرب صليبية ــ بزيارة للمركز الإسلامى بواشـنطن، وبالإعلان بأن الإسلام هو دين السلام والمحبة بين الناس، وأنه من غـير اللائـق أن تسـتمر وسـائل الإعـلام فى ترديد عباراتها الفجة من مثـل «الإرهاب الإسلامى» أو الاشارة إلى المسلمين «بالإرهابيين المسلمين»، وأكد أن العـرب والمسـلمين الأمريكيين هم جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع الأمريكى. وتأكـيدًا لذلك، دعا بوش قيادات المسلمين الأمريكان لصلاة جماعية على أرواح ضـحايا الحادث المروع فى الكاتدرائية القومية بواشنطن، حيث أهدوه نسخة من ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الانجليزية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد اجتاح الرعب والهلع كثيرًا من تجمعات المسلمين فى الولايـات المتحدة الأمريكية، وفى العديد من الدول الأوروبية إلى حد الامتناع عن الخـروج من البيوت، واضطرار اللاتى يخرجن من المسلمات إلى خلع أحجبتهن، وإغـلاق المساجد، وتعطيل أنشطة عدد من المدارس والمراكز الإسلامية، ومعاهد تحفـيظ القـرآن الكـريم واللغـة العربـية، وقد هدمت بعض المساجد والمدارس الإسلامية، وتم حرق أو تلويث البعض الآخر. وتعرض عدد من أصحاب السحنات العربية أو الإسلامية للضرب والقتل فى عرض الشوارع، ووصل الخوف بالمعتدى

علـيهم أنهـم لم يجرؤوا على إبلاغ رجال الأمن بما تعرضوا لـه من تحرشات، وإهانـات، فضـلاً عـن سـوء معاملة العرب والمسلمين فى المطارات الأمريكية والغربية، وتعمد إهانتهم وإذلالهم خاصة السعوديين والمصريين منهم.

وقـد نـددت بعـض القيادات المسيحية واليهودية والمسئولين عن الصحافة الدينية بهذه التصرفات والتصريحات العدوانية التى صدرت، ولا تزال تصدر عن غلاة المتعصبين من اليهود والمسيحيين (والذين يطلق عليهم وصف الأصوليين) ضـد كـل من العرب والمسلمين، علمًا بأن عدد ضحايا المسلمين فى حادث تدمير مركز التجارة العالمى قد تجاوز الأربعمائة من المدنيين.

والشـعب الأمـريكى الـذى يتميز عن غيره من الشعوب الغربية بأنه شعب مخـتلط مـن العديـد من الأعراق، والعقائد واللغات، واللهجات والألوان، والذى اشتهر بتقبل الآخرين بسهولة، بأفكارهم ومعتقداتهم وآمالهم وآلامهم، بات ممزقًا بيـن طوفـان الإعلام الصهيونى والـبروتستانتى الأصولى المتطرف والمغرض الذى يصور له الإسلام والمسلمين والعرب أجمعين على أنهم العدو الأول والأخير لهم وللحضارة الغربية، وبين الأصوات العاقلة من بين قياداته الروحية والسياسية التى تنادى بالوحدة الوطنية فى مواجهة الكارثة ...!!!

وبـدأت الإدارة الأمريكية فى تهيئة العالم للوقوف خلفها فى حربها المعلنة ضد الإرهاب، فاعلن الرئيس بوش قراره العجيب «إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهاب» وهـو قرار فيه من الديكتاتورية والإرهاب ما فيه، فى ٢٠٠١/٩/١٢م تبنى كل من مجلـس الأمن الدولى والجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا بإدانة الهجمات الإرهابية المـروعة الـتى وقعـت علـى كل من نيويورك، وواشنطن، وبنسلـڤـانيا، بأشد العبارات، ويدعو جميع الدول إلى العمل معًا بتضافر لتقديم مرتكبى ومنظمى ورعاة الهجمات للعدالة.

ثـم أعلـن الرئيس بوش فى ٢٠٠١/٩/٢٤م اصداره قراره الرئاسى بتجميد أموال الكثير من الجمعيات الخيرية والمنظمات الجهادية الإسلامية التى أصدر بها بيانًا دون دليل أو بينة، ثم يعجب السيد بوش بسؤاله لماذا يكرهوننا؟

وقـد حولت حرب فيتنام الاستراتيـجية العسكرية الأمريكية إلى استراتيـجية

حرب بلا ضحايا أمريكان، وقد طبقت هذه الاستراتيجية فى حربى الخليج الأولى والثانية بخبث شديد.

وبدأت الحرب الأمريكية ــ البريطانية ضد أفغانستان فى ٢٠٠١/١٠/٧م بناءً على ظنون وأوهام غير ثابتة، وتحت افتراضات لا يدعمها دليل واحد، وذلك أن أحكمت الإدارة الأمريكية خطة تدمير أفغانستان تدميرًا كاملاً بأسلحة تقليدية وغير تقليدية، بعضها من الأسلحة المحرمة دوليًا، ومهدوا لذلك بدفع قوات تحالف المعارضة الأفغانية الشمالية ــ بعد تزويدها بأحدث الأسلحة الأمريكية ــ إلى الاقتتال مع قوات حكومة طالبان والاستيلاء على كل أفغانستان (لا بواسطة القوات الأمريكية ــ البريطانية المشتركة)، كما مهدوا لها بسلسلة من الضغوط والمساومات الأمريكية التى اتسمت بالكثير من الإرهاب والإغراء لكل الدول المحيطة بأفغانستان لضمان التسهيلات اللازمة لأسلحة «القتال عن بعد» والتى برعت فيها الترسانة الأمريكية، ثم بعد شهرين من القصف الوحشى لكافة المدن والأقاليم الأفغانية وبكافة الوسائل القتالية المتطورة، تم قتل الآلاف من المدنيين الأفغان من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، وتم تهجير ملايين المدنيين الأفغان تحت ظروف جوية قاسية بدون مأوى أو غطاء أو كساء، وتم تدمير أفغانستان تدميرًا كاملاً، كما تم القضاء على حكومة «طالبان» بعد اقتتال طاحن مع قوات المعارضة الأفغانية الشمالية التى تنافس كلاً من الأمريكان والروس على تزويدها بالسلاح المتطور «لغرض فى نفس يعقوب»...!!!

وفى ٢٠٠١/١٠/٨م أى بعد يوم واحد من إعلان أكبر دولة فى العالم الحرب على أفقر دولة فى العالم، أعلن الأمين العام لمنظمة حلف شمال الأطلسى روبرتسون أن سفراء الحلف قد أعربوا عن كامل تأييدهم للعمليات التى قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ضد منشآت تنظيم القاعدة، ومنشآت حركة طالبان العسكرية فى داخل أفغانستان، وتبعه فى ذلك الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة بتاريخ ١٠/١٥ الذى أعلن فيه أن الدول الأعضاء قد أبدت اشمئزازها الشديد للهجمات الانتحارية التى تعرضت لها الولايات المتحدة فى ٢٠٠١/٩/١١م.

وبعد التدمير الشامل لأفغانستان، دخل المغاوير من الأمريكان والبريطانيين وانضم إليهم مغاوير آخرون من كل من ألمانيا وإيطاليا وتركيا؛ ليستعرضوا

عضـــلاتهم على الأرض الأفغانية المحروقة، والبريطانيون يحاولون الثأر لهزائمهم السابقة على أرض أفغانستان، والأمريكان يمهدون الأمور لإقامة قواعدهم العسكرية فـــى قلـــب آسيا، التى يعلنون ــ بكل جرأة وفجاجة ــ أنهم سوف يبقون فيها لمدد طويلـــة، وهو حلم طالما راود الساسة الأمريكيين دون أن يتصوروا إمكانية تحقيقه فـــى يـــوم مـــن الأيام...!!! والروس لا يملكون إلا إحناء رؤوسهم للأمريكان وهم يدركـــون خطر هذا الوجود العسكرى الغربى فى قلب آسيا، معللين أنفسهم بأن فى ذلـــك شـــيئًا مـــن الانتقام لكرامتهم التى أهينت على أرض أفغانستان وطردهم منها مذمومين مدحورين من قبل عقدين من الزمان.

كـــل ذلك تم والناس فى ذهول من تسارع الأحداث وتعقيدها، دون أن يفهم أحد حقـــيقة ما جرى ولا يزال يجرى على سطح هذا الكوكب، إلا أن هناك ثلاث رؤى أساسية مطروحة على الساحة فى محاولة لتفسير ما حدث...!!!

الرؤى المطروحة فى محاولة لتفسير ما قد حدث

انقسمت الرؤى المطروحة لتفسير مأساة كل من نيويورك وواشنطن التى وقعت فى صبيحة الثلاثاء ٢٠٠١/٩/١١م إلى ثلاث مجموعات على النحو التالى:

(١) المجموعة الأولى:

وهـــى توافـــق ادعاءات الإدارة الأمريكية فى نسبة كل ما حدث إلى أسامة بن لادن وتنظـــيمه المســـمى «تنظـــيم القـــاعدة» بناءً على قناعة أجهزة الاستخبارات الأمريكية بأن هذا التنظيم سبق لـــه التورط فى أعمال هجومية متعددة على عدد من المصـــالح الأمريكية فى خارج الولايات المتحدة الأمريكية، منها العمليات الجهادية ضـــد الغزاة الأمريكان فـــى الصومال، ومنها انـــفجار الريـــاض (١٩٩٥م) ومنها قـــتل عدد من الأمريكيين فى أحد فنادق عدن، ومنها انفجار الخبر (١٩٩٦م) الذى راح ضحيته أكثر من عشرين أمريكى، ومنها ضرب السفارتين الأمريكيتين فى كل مـــن نـــيروبى (كينيا) ودار السلام (تنزانيا) فى ١٩٩٩/٨/٧م، وفى ضرب حاملة الطائرات الأمريكية «كول» التى كانت راسيه فى المياه الإقليمية اليمنية، وبناءً على ذلـــك فقـــد ظلت الإدارة الأمريكية تطالب «حكومة طالبان» بتسليم أسامة بن لادن

لمحاكمته فى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هذه الحكومة الأفغانية رفضت الطلب الأمريكى رفضًا قاطعًا باعتباره تعديًا على سيادتها، وطالبت بالأدلة على تورط «ابن لادن» فى تلك الأعمال، وهى مستعدة لمحاكمته داخل أفغانستان، وقوبل هذا العرض بالرفض من جانب الإدارة الأمريكية التى لم يمكنها تقديم دليل واحد على تورط «أسامة بن لادن» فى تلك الأعمال أو فى غيرها من الأعمال التى تعتبرها إرهابية، وبنت أحكامها على الظن والافتراض اللذين لا يدعمهما دليل، ولا تقف من ورائه قرينة مقبولة.

وبناءً على ذلك، استصدرت الولايات المتحدة الأمريكية من مجلس الأمن قرارًا بالإجماع يطالب حكومة طالبان بتسليم «أسامة بن لادن» لدولة يمكن تقديمه فيها للعدالة (بناءً على قرار سابق بتاريخ ١٩٩٩/١٠/١٥م) وإغلاق جميع معسكرات تدريب ما سماهم القرار بالإرهابيين فى أفغانستان، والإذعان لمطالب مجلس الأمن الأخرى.

وترد الإدارة الأمريكية دوافع ابن لادن وتنظيم القاعدة الذى يرأسه، وغيرهما من التنظيمات التى تسميها خطأ «بالأصولية» إلى مشاعر الكراهية والحسد للرفاهية والحرية التى يحياها الشعب الأمريكى خاصة، وبقية الشعوب الغربية بصفة عامة، وهذا تفسير قاصر ومغالطة مقصودة حتى لا تعترف الإدارة الأمريكية بأخطائها العديدة فى حق العرب والمسلمين وفى حق غيرهم من شعوب الأرض، وهى أخطاء نابعة من سياسة خارجية ظالمة، جائرة، منحازة، لا تتسم بشىء من الموضوعية أو العدل، وهى بالقطع ليست فى صالح الأمة الأمريكية على المدى الطويل، والعقلاء فى الولايات المتحدة يشعرون بعمق الكراهية لسياسة حكومتهم الخارجية، وبدأوا ينادون بضرورة مراجعة تلك السياسة خاصة بعد مأساة الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

علامات فى علاقة

الولايات المتحدة بالشرق الأوسط

(١) بدأت أولى صلات الولايات المتحدة الأمريكية بالعالمين العربى والإسلامى بعدد

من الحملات التنصيرية التى نافست بها الهيمنة البريطانية على المنطقة فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى.

(٢) فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، أنشأت الولايات المتحدة الأمريكية كلا من جامعتى بيروت والقاهرة الأمريكيتين وعددًا من المدارس والكنائس البروتستانتية من أجل أمركة المنطقة والتأثير على تراثها العربى ـ الإسلامى، وتكوين عملاء لها بالمنطقة، وكان ضرر إنشاء هاتين الجامعتين على المنطقتين العربية والإسلامية بليغًا، فقد تخرج منهما كل دعاة التغريب فى المنطقة.

(٣) فى سنة ١٩٠٢م اقترح المؤرخ الأمريكى أ.ت. موهان اسم الشرق الأوسط لتبرير مكان اليهود فى المنطقة.

(٤) فى سنة ١٩٠٧م شكل الحلفاء لجنة باسم «كامبل باترمان» كان للأمريكان دور كبير فيها من أجل غرس الكيان الصهيونى فى قلب العالم العربى.

(٥) فى سنة ١٨٨٣م احتلت القوات البريطانية أرض مصر بمؤامرة الاعتداء على «مالطى» ! ، وتبنتها المخابرات البريطانية، وفى سنة ١٩١٠م زار أول رئيس أمريكى مصر داعمًا لهذا الاحتلال وهو الرئيس السابق تيودور روزفلت (الأب) والذى انتقد ما وصفه بالتساهل البريطانى مع المصريين، بدلاً من انتقاد تعسفهم ومحاولة إذلالهم لهذا الشعب العظيم.

(٦) فى يونيو سنة ١٩٢٢م، ألقى السناتور الأمريكى هنرى كابوت لودج خطابًا فى مدينة بوسطن أعلن فيه بخليط من الجهل والعنصرية وكراهية الآخر ، فضلاً عن الأصولية عن ضيق صدره ونفاد صبره من بقاء مدينة القدس وكافة أرض فلسطين فى أيدى المحمديين، وأنه يرى ذلك وصمة كبرى فى جبين الحضارة الغربية ينبغى أن تزول.

(٧) فى ١٩٢٢/٧/٢٤م أقر مجلس عصبة الأمم بزعامة كل من أمريكا وبريطانيا مشروع صك الانتداب البريطانى على فلسطين، كتوطئة لتسليمها للصهاينة دون أدنى حق، فى مشروع مطابق لمشروع الحركة الصهيونية العالمية، وقد قام بصياغة صك الانتداب اليهودى الأمريكى بنيامين كوهين مع الخارجية البريطانية.

(٨) فـــى ١٩٤٢/٥/١١م أعلنت الحركة الصهيونية العالمية فى مؤتمرها الذى عقد بمدينة نيويورك عزمها على إنشاء دولة لها على أرض فلسطين.

(٩) بتاريخ ١٩٤٧/١١/٢٩م أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بزعامة الولايات المـــتحدة الأمريكـــية ورئاسة الرئيس السابق ترومان قراراها الجائر رقم ١٨١ والقاضـــى بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية، وعندما قام الصدام المســـلح بيـــن العرب والصهاينة، وقف الغرب كله بزعامة أمريكا وراء اليهود الغاصبين عسكريًا وسياسيًا وماليًا.

(١٠) فى ١٩٤٩/٥/١٢م دعمت الدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية قبول الكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين عضوًا بالأمم للمتحدة لإعطائه شرعية لا حق لـــه فيها(*).

(١١) فـــى ١٩٥٠/٥/٢٥م صـــدر ما يسمى بالبيان الثلاثى عن كل من الولايات وبريطانيا وفرنسا؛ لينظم الأمور فى الشرق الأوسط كما لو كان مستعمرة لتلك الدول الثلاث.

(١٢) فـــى ١٩٥٦/١٠/٢٧م وقـــع العـــدوان الثلاثى على مصر بواسطة مؤامرة بريطانية ــ فرنسية ــ إسرائيلية، غضبت أمريكا لإخفاء اخبارها عنها. وأمرت الدول الثلاث بالخروج من مصر. وقد تكون هذه هى الحسنة الوحيدة للولايات المتحدة.

(١٣) فـــى ١٩٦٧/٦/٥م قام الصهاينة المحتلون لأرض فلسطين باعتداء ثان على أرض الكنانة وعلى كل من الضفة الغربية وغزة والهضبة السورية وأجزاء من الأردن، اقـــترفوا فيه من الجرائم ضد أسرى الحرب، والاختراق لكافة القوانين والأعـــراف الدولـــية بدعم من كل دول الغرب وفى مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية.

ومـــنذ ذلك التاريخ والصهاينة المحتلون لأرض فلسطين ولغيرها من الأراضى العربـــية، يعيـــثون فـــى المـــنطقة فسادًا ويغرقونها فى بحور من الدماء والأشلاء والخراب والدمار والمؤامرات، برعاية أمريكية كاملة ومباركة غربية شاملة.

(*) ومن الغريب أن ترفض ــ الآن ــ الولايات المتحدة وإسرائيل أى دور تقوم به الولايات المتحدة لحل مشكلة الشرق الأوسط ، بعد أن قامت شرعية إسرائيل على قرار الأمم المتحدة.

خمسة حروب دامية بين هذا الكيان الصهيونى الغاشم الحاقد الغاصب (١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٧٣م، ١٩٨٢م) راح ضحيتها مئات الألوف من الشهداء والجرحى والمقعدين، وترمل مئات الآلاف من النساء، وتيتم ملايين الأطفال، ودمرت البنيات الأساسية لكل من فلسطين وسوريا ولبنان والأردن ومصر، بينما يقول جراهام فولر النائب السابق لرئيس مجلس الأمن القومى الأمريكى وزميله ايان ليسر فى كتابهما المعنون «شعور بالحصار» الصادر عن معهد راند سنة ١٩٩٥م والذى ترجم فى مصر وصدر سنة ١٩٩٧م بواسطة مركز الأهرام للترجمة والنشر تحت عنوان: «الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة» وفى صفحة ٥٢، ٥٣ من الترجمة العربية ما نصه: «ومنذ ذلك التاريخ، تلقى الدولة اليهودية الناشئة الدعم المباشر والمطرد من جانب الغرب، بما فى ذلك كميات هائلة من المال والسلاح، وأصبح وجودها الآن واقعًا لا رجوع عنه، **ويؤكد المسلمون أيضًا أنهم عاشوا تاريخيًّا فى سلام مع اليهود طوال غالبية التاريخ الإسلامى، وأن الإمبراطورية العثمانية هى التى قبلت اليهود الإسبان على أثر طردهم من إسبانيا عقب عام ١٩٤٢م. وتوسعت إسرائيل مع الزمن كأمر واقع فرضته على الضفة الغربية، وعلى جنوب لبنان، وأثار هذا التوسع من جديد مخاوف من نزعة توسعية إسرائيلية كامنة للتوسع فى المنطقة، خاصة وبعد أن ثبت إغفال الغرب عمليًّا لغالبية قرارات الأمم المتحدة التى تدين إسرائيل ..».**

ويضيف الكاتبان: «**... وساد اعتقاد بأن التفوق العسكرى الإسرائيلى الدائم على جيرانها، هو هدف صريح للسياسة الأمريكية فى ظل جميع الإدارات الأمريكية دون اعتبار للأحداث أو لسياسات إسرائيل.** ومن ثم فإن مسألة إسرائيل ــ بعيدًا عن جوانبها الخاصة بالأراضى واللاجئين ــ تحمل إرثًا تاريخيًّا ووجدانيًّا كبيرًا يتجاوز كثيرًا حدود المنطقة المباشرة، ويمتد ليشمل العالم الإسلامى الذى يراها واحدة من أكبر أسباب شكوى المسلمين من الغرب».

هذا بالإضافة إلى محاولات الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية إلى فرض القيم الغربية على المسلمين، وإخضاع العالم الإسلامى إخضاعًا كاملاً للثقافة الغربية، وفرض الهيمنة الأمريكية على منابع النفط، ومحاولات التدخل السافرة فى شئون الحكم، وإقصاء الإسلام عن مراكز القرار، والتخطيط للانقلابات والحروب

العسكرية، وإثارة النعرات العرقية والصراعات التعصبية ودعم النظم الدكتاتورية والشمولية، في ظل نفاق واضح من الشعارات الكاذبة التي مؤداها إن الولايات المتحدة هي حامية الحريات والديموقراطيات وحقوق الإنسان، وهي تمثل أكبر قوة إرهابية، قهرية، مبتزة لحقوق وثروات الشعوب، والقوة الحاجبة للسلاح الفعّال عن كافة الدول الإسلامية.

لكننا لا نرى ــ برغم ذلك ــ ما يؤكد على اشتراك ابن لادن في الهجوم الانتحاري على مركز التجارة العالمي وعلى مبنى وزارة الدفاع الأمريكية وذلك للأسباب التالية:

(١) إن العملية تمت بكفاءة علمية وتقنية لا تقدر عليها إلا قوة عسكرية مدربة تدريبًا عاليًا على الأرضية وفي الأجواء الأمريكية.

(٢) إن التغطية على العملية ــ من قبل وقوعها ــ بتعمية كافة أجهزة الاستخبارات الأمريكية عنها بالرغم من ضخامة إمكاناتها البشرية والمالية والتقنية تؤكد ذلك ــ ومن بعد وقوعها ــ بدفع الولايات المتحدة إلى إعلان الحرب على أفغانستان حتى ينشغل الناس بأمور القتال وعدم متابعة التحقيق بدعم من هذا التأكيد.

(٣) إن سرعة إعلان الاتهام قبل البدء بالتحقيق يوحي بشيء من التآمر، خاصة وأن هناك قضايا عديدة مرت عليها عشرات السنوات ، مثل قضية مقتل كنيدي ، لم تحسم بعد.

(٤) إن توقف أجهزة الإنذار المبكر خاصة بالنسبة لمبنى وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) والذي كان الأمريكيون يفتخرون بأن ما من ذبابة تستطيع أن تطير فوقه إلا وترى على شاشات أجهزة الإنذار وتحرق بواسطة الإشعاعات المتعددة الحارسة للمبنى على الفور، يشير إلى شيء من التآمر الأمريكي الداخلي.

(٥) إن عدم مؤاخذة المسئولين عن أجهزة الأمن والمخابرات الأمريكية المتعددة على تقصيرهم الشديد، وفشلهم الذريع في حماية مؤسسات البلاد الرئيسية ، مما ملأ قلوب الأمريكيين بالإحساس بالرعب وبالمهانة الشديدة، والشعور بالإحباط

والحـــزن والقهـــر والخوف ومن إمكانية تكرر مثـــل هذه الكارثة فى المستقبل يوحى بشىء من التآمر الداخلى.

(٦) إن موضوع نشر جرائم الجمرة الخبيثة التى وزعت بواسطة البريد على عدد مـــن مكاتـــب كبار المسئولين الأمريكيين، والتى ألصقت زورًا بتنظيم القاعدة ورئيســـه «أسامة بن لادن»، قد ثبت أنه عمل إرهابى أمريكى داخلى محض لا علاقة لـــ «ابن لادن» به! ولا يزال التحقيق جاريًا للكشف عمن وراءه، ولماذا لا يكون مرتكبه هو من وراء أحداث ١١ سبتمبر؟

(٧) إن المسرحيات الهزلية الرخيصة، من مثـــل وجود أوراق بها تعليمات للطيران بالعربية، أو العثور على جواز سفر عربى بجوار الانقاض فى نيويورك ، مع عدم العثور على الصناديق السوداء، أو اكتشاف أفلام فيديو يتحدث فيها «أسامة ابـــن لادن»، واضـــح فـــيها العبث والتلفيق، أو نشر عدد من الأسماء المتهمة باختطاف الطائرات المهاجمة من بينها أسماء من قد ماتوا منذ فترة غير قصيرة قبل الحدث، ومنهم من هو لا يزال على قيد الحياة فى بلده بعد مغادرة الولايات المـــتحدة بشهور طويلة، يشير إلى شىء من التلفيق والتخبط والاضطراب فى بيانات الإدارة الأمريكية.

بقـــى لنا أن نقول إنه على الرغم من كل هذه الشكوك يبقى احتمال ولو واحد فى المائة أن يكون لابن لادن وتنظيمه يد فيما قد حدث، ولو صح ذلك لكان تهورًا أســـاء به إلى الإسلام والمسلمين، وأرجع به عمل المؤسسات الدعوية والخيرية الإســـلامية إلـــى الوراء عشرات السنين، وأعطى للإدارة الأمريكية مبررًا ـــ ولو صـــوريًا ـــ لتدمير دولة أفغانستان المسلمة، وقتل آلاف الأبرياء، وتشريد ملايين الأبـــرياء، وفـــوق ذلـــك وقبله، احتلال هذه الأرض المسلمة التى استعصت على المحتليـــن الانجلـــيز من قبل، ومن بعدهم الغزاة الروس، وإقامة قواعد عسكرية أمريكية فيها ليكرر الغرب دسائسه ومؤامراته واستغلاله وابتزازه لشعوب أوساط آسيا كما فعل من قبل فى كل من أفريقيا والعالمين العربى والإسلامى، من قبل ولا يزال...!!!

ولـــم تـــتوقف الإدارة الأمريكية ولو للحظة للتفكير فى أسباب هذا الصراع

بيـــنها وبين «ابن لادن» وأمثاله، وتنظيمه منذ ١٩٩٣م على الأقل، ورده إلى أسبابه الحقيقية.

وإذا تحـــرك عربى أو مسلم لمقاومة الظلم والمظالم اتهم هو ودينه بالإرهاب!!! علمًـــا بـــأن الإسلام هو دين السلام، ودين الرحمة، ودين الإنسانية، لأن من أسس الإسلام العظيم الإيمان بوحدانية الخالق (بغير شبيه ولا شريك ولا منازع)، والإيمان بوحدة الدين، وبوحدة الخلق وفى ذلك يقول ربنا ــ تبارك وتعالى ــ

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾

[البقرة: ١٦٣]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩]

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ومن أسس الإسلام العظيم، الإيمان بحرية التدين ولى ذلك يقول الحق ــ تبارك وتعالى ــ:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

ويقول عز من قائل :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]

فالإسلام يدعو إلى وحده الإنسانية مع الإيمان بوجود الاختلافات الفردية والجماعية، والإيمان بوجود هذه الاختلافات البشرية يقتضى الإيمان بحق الغير فى الوجود المتميز، وفى حقه أن يدين نفسه بما يشاء من معتقد ما دام لا يتعدى على حقوق الآخرين، ولا يدعو إلى إشاعة الفاحشة والظلم بين الأفراد فى مجتمعه، وأن يحفظ حقوق المواطنة فلا يخون أمته، ولا يتآمر عليها، ولا يعين ظالمًا عليها.

والإسلام يرفض الظلم، والله يبغض الظالمين ويحذرهم من مغبة ذلك فى الدنيا ويدعو إلى إقامة عدل الله فى الأرض مع كل الناس، ويدعو إلى إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، ومن هنا شرع الله الجهاد ــ لا لفرض الإسلام على الناس بحد السيف كما يشيع أعداء هذا الدين ــ ولكن للدفاع المشروع عن النفس والمال والعرض، ولرد الظلم عن الناس ومقاومة العدوان على حقوق الناس باستباحة حرماتهم، أو سرقة ثرواتهم، أو احتلال أراضيهم، فمن القيم الإسلامية الأصلية حرمة الدماء والأموال والأعراض، ولذلك يقول ربنا ــ تبارك وتعالى ــ فى محكم كتابه

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].

ومن القيم الإسلامية العظيمة الحرص على إقامة العدل، وفى ذلك يقول ربنا ــ تبارك وتعالى ــ

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٩]

ومن هنا لا يمكن أن يدعى مدع بأن الإسلام يدعو إلى الإرهاب فى غير ساحات القتال، فالإرهاب سلاح الضعفاء الذين يعجزون عن مواجهة المواقف، وإرهاب المدنيين فيه ترويع للآمنين، وقتل للمدنيين بغير ذنب وتدمير للمنشئات وهى كلها مواقف لا يرضى عنها رب العالمين.

وقد عانى المسلمون من الإرهاب معاناة شديدة فى القديم والحديث، ولم يبادلوا الإرهاب بالإرهاب أبدًا، وإن كان الإرهاب ظاهرة قد عمت العديد من المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ، وإن كان قد مارسها بعض من المسلمين فهو إما عن جهل بالإسلام وأصوله، أو عن شعور بالإحباط أمام ظلم لا يستطيعون دفعه بقدراته فى ساحة القتال، وهو فى الحالتين مخالف لأوامر الله ورسوله، وإن كانت هذه المبررات لا تقبلها الإدارة الأمريكية وتفسرها بمجرد التعصب الدينى والكراهية والحسد للدولة الأولى فى العالم تقدمًا وثراءً، بدلاً من استرجاع أخطائها السياسية.

(٢) المجموعة الثانية:

وترى هذه المجموعة فى مستوى الأداء الذى تمت به العملية والتقنيات العالية التى استخدمت فى تنفيذها ما يفوق إمكانيات أسامة بن لادن ومجموعته، بل وإمكانيات أى تنظيم خارج الولايات المتحدة الأمريكية، ومن هنا فلابد من وجود تنظيم عسكرى عميق الجذور فى الأرضية الأمريكية له من التدريب العالى، والدراية بالتقنيات المتقدمة والمعرفة بأرضها وسمائها، والقدرة على اختراق أجهزة الأمن والاستخبارات الأمريكية على تعددها، والتمكن من إغلاق كل وسائل الإنذار المبكر فيها، والتعمية على العملية من قبل القيام بها، ومن بعد تنفيذها، والقدرة على المساهمة الفعالة فى الإسراع بتقديم الاتهامات الجاهزة والمعدة سلفًا لاتهام الإسلام والمسلمين، ونشرها بإلحاح فى كافة وسائل الإعلام الأمريكية والغربية ما يضمن لهذا التنظيم العسكرى إمكانية القيام بهذه العملية الإرهابية بنجاح دون انكشاف خططه.

والمرشح لذلك، إما اليمين الأمريكى المتطرف الذى نفذ عملية مشابهة فى أوكلاهوما من قبل أربع سنوات (فى ١٩/٤/١٩٩٧م)، أو أجهزة الاستخبارات

الصهيونية (الموساد) لما لها من سوابق إجرامية عديدة فى مختلف الدول وعبر التاريخ.

(أ) اليمين الأمريكى المتطرف متهم فى حوادث ٢٠٠١/٩/١١م:

قياسًا على ما جرى فى مدينة أوكلاهوما بتاريخ ١٩٩٧/٤/١٩م فى حوالى التاسعة صباحًا (أى فى نفس توقيت بدء الهجمات فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م) وبنفس الأسلوب الإجرامى، يرى كثير من المراقبين أن العملية قد قام بها أفراد من فريق عسكرى يمينى متطرف يتبع المجرم «تيموثى ماكفى» والذى قام بعملية أوكلاهوما، التى سرعان ما اتهم فيها المسلمون وُتعرضوا لإيذاء كبير فى داخل أمريكا وخارجها، حتى أظهر الله الحق بمعجزة من عنده..!!

ففى حادث أوكلاهوما، تم تفجير شاحنة تحمل حوالى ١٥٠٠ كيلو جرام من مواد شديدة الانفجار عن بعد وهى واقفة بساحة انتظار سيارات مبنى حكومى مؤلف من سبعة طوابق، وفى خلال دقيقتين اثنتين لنهار المبنى بالكامل تقريبًا على من فيه، وتحولت المنطقة إلى حطام وخراب تامين لم نشهد لهما مثيلاً من قبل، وسقط مئات الضحايا بين قتيل وجريح...!!!

وعلى الفور بدأت أصابع الاتهام بالإشارة إلى كل عربى ومسلم فى كل مدينة وقرية على طول الولايات المتحدة وعرضها، وبدأت وسائل الإعلام الأمريكية والمملوكة فى غالبيتها الساحقة للحركات اليهودية المتطرفة ومن عملاء الكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين، فى الترويج للدعاوى العرقية والعصبيات الدينية البغيضة ضد العرب والمسلمين.

ثم يشاء السميع العليم أن يلحظ أحد رجال الشرطة سيارة بدون لوحة أرقام يقودها راكبها بسرعة فائقة فى منطقة تبعد عن موقع الانفجار بحوالى مائة وعشرين كيلو متر، فساورته الشكوك فى قائد السيارة وقام بمطاردته حتى تمكن من القبض عليه، وقام بتفتيشه، وباستجوابه اتضح أنه لا يحمل رخصة قيادة، ولا رخصة للسيارة التى لا تحمل لوحات، وضبط معه قطعة سلاح بدون ترخيص فزادت شكوكه فيه، وباقتياده إلى مخفر الشرطة وبدء التحقيق معه

اتضـــح أن اســـمه «تيموثى ماكفى» وأنه هو المجرم الحقيقى الذى قام بتفجير المبنى الحكومى فى أوكلاهوما، وقال فى التحقيق إنه ارتكب جريمته وهو مقتنع تمامًـــا بضـــرورة ضـــرب الحكومة الأمريكية وكافة مصالحها، اعتراضًا على سياساتها القمعية فى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وانطلاقًا من أفكار يمينية شـــديدة الـــتطرف وواسعة الانتشار بين الشعب الأمريكى، لدرجة أن المحققين حـــذروا مـــن إمكانية وقوع حوادث كثير مشابهة لحادثة أوكلاهوما بصورة أو بأخرى خاصة وأن «ماكفى» هذا قد توعد الحكومة الأمريكية عدة مرات طوال فـــترة التحقـــيق معه، والتى استمرت لأكثر من سنتين، وقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه، بمزيد من العمليات الانتقامية التى سوف يقوم بها أتباعه الكثيرون.

وقـــد ســـبق عملـــية أوكلاهوما الإجرامية عمليات رفض عديدة للسياسات الداخلـــية لـــلإدارة الأمريكية، منها حركة داڤيد كورش وأتباعه الذين ماتوا فى معركة طاحنة مع الشرطة الأمريكية، ومنظمة «كلوكلوكس كلان» التى أرهبت الأمريكيـــين مـــن الأصول الأفريقية لسنوات طويلة ولا يزالون، وحركة كنيسة «المورمـــون» الـــتى دخلت فى صراع طويل مع السلطة فى الإدارة الأمريكية وغيرها.

وقـــد تكون التحقيقات قد وصلت لشىء من ذلك أو لا تكون، ولكن المخطط الأمـــريكى الشـــيطانى لغزو أفغانستان كان معدًا من قبل، وسرعان ما اتجهت الأجهـــزة الأمريكـــية إلى انتهاز فرصة الحدث لتطبيقه بغض النظر عن فاعله الحقيقى...!!!

(ب) اتهـــام أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) بتنفيذ حوادث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م:

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال مهم مؤداه ما هى مصلحة الكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين فى القيام بعملية كهذه تمس أكبر دولة داعمة لوجوده؟

وللإجابـــة علـــى ذلـــك نقول إن الكيان الصهيونى اعتمد فى وجوده دومًا على سلســـلة مـــن الأساطير المنحولة، والأكاذيب المختلقة، والافتراءات على الله ـــ تعـــالى ـــ وعلـــى ملائكته، وكتبه ورسله، وعلى التاريخ، وبمثل هذه الأكاذيب

اخـــترقوا جـــدار الكنيسة الغربية واقنعوا مسيحيى الغرب بأن المسيح ــ عليه وعلـــى نبينا السلام ــ ان يعود حتى تقام لليهود دولة على أرض فلسطين، علمًا بأنهم لا يؤمنون بالسيد المسيح ــ عليه السلام ــ وهم الذين حاربوه، وحرضوا عليه ــ وحاولوا صلبه وقتله، وشوهوا سمعته وسمعة أمه (شرفها الله) وحرفوا رسالته!!

كمـــا اخترقوا جدار السياسة فى الغرب، واقنعوا الساسة الغربيين أنه على الضـــفاف الشـــرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط توجد أمة ذات حضارة واحدة، وتاريخ واحد، ولغة واحدة، ومعتقدات واحدة، وأن هذه الأمة إذا توحدت فســـوف تشـــكل خطرًا على أوروبـــا الغربية وحضارتها، وأن الوسيلة الوحيدة لمقاومـــة توحد الأمة العربية، هو خلق كيان لجسم غريب فى المنطقة يثير فيها الفتـــن والقلاقـــل والحـــروب، حتى ينهك قوى تلك الأمة البشرية والاقتصادية والعســـكرية والفكـــرية، ويخرجها عن إطار معتقداتها وحضارتها، وهذا الجسم الغريـــب هـــو دولـــة الكـــيان الصهيونى ينتقم للغرب من هزيمته فى الحروب الصليبية أمام جيوش المسلمين التى طردته مذمومًا مدحورًا من أرضها، ويكون موطـــئ قـــدم للغرب ينطلق منه لتأديب أية دولة عربية تفكر فى الخروج على الـــنظام العـــالمى الجديد، أو ترفض الانصياع لمطالباته وأوامره، أو أن تقدم لـــه ثرواتها الطبيعية طائعة مختارة، وبمثل هذه الأكاذيب وقف الغرب بكل إمكاناته وفـــى مقدمـــته بريطانـــيا والولايـــات المتحدة الأمريكية من وراء إنشاء الكيان الصهيونى والدفاع عنه والمحافظة على تفوقه العسكرى فوق كافة الدول العربية مجتمعة.

وللمحافظة على هذه الأكاذيب، ولضمان استمرار الدعم الغربى لهذا الكيان الغريـــب الـــذى غـــرس فى المنطقة على الرغم من أهلها، وحرص هذا الكيان الصـــهيونى الغاصـــب على الهيمنة على الإعلام فى العالم، وفى العالم الغربى بصـــفة خاصـــة، حتى لا تصل إلى الناس أية معلومة إلا من خلال تصوراتهم الصـــهيونية المتعصـــبة والضـــيقة وحتى لا تتكشف أكاذيبهم التى اجتهدوا فى تزييفها للناس حتى يقبلوها.

ولفجـــأة لاحـــظ هذا الكيان الصهيونى أنه على الرغم من سياسة التشويه

للإسلام والمسلمين التى ينتهجها منذ سنوات، وينفق عليها المليارات من الدولارات، وفى كل وسائل الإعلام، إلا أن الغرب قد بدأ فى الإقبال على الإسلام بمعدلات عالية، وبدأ هذا الدين العظيم فى الانتشار بين كبار المثقفين فى المجتمعات، حتى أعلنت كافة أجهزة الاستخبارات فى العالم أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشارًا اليوم...!!!

كما لاحظ الصهاينة أن الذين اعتنقوا الإسلام من الغربيين من أمثال الأستاذ جارودى والدكتور مراد هوفمان، والبروفيسور ت.ب.ارنولد، والأستاذ محمد أسد (رحمه الله) والسيدة مريم جميلة وغيرهم، قد بدأوا فى تعرية الأساطير المؤسسة للفكر الصهيونى، وبدأ هذا المد فى كشف المؤامرات الصهيونية فى الغرب، وفى إقناع المزيد من قادة الفكر وأهل الرأى هناك فى قبول الإسلام دينًا.

ووصل هذا المد الإسلامى فى السنوات العشر الماضية مبلغًا لم يصله من قبل، فحققت الجاليات الإسلامية مستويات من حسن التنظيم، وسعة الانتشار، والاعتراف الرسمى بوجودها، مثل وصول بعض المسلمين إلى مجلس العموم واللوردات فى بريطانيا، وتعيين أئمة للمسلمين فى مختلف قواعد الجيش الأمريكى وفى عدد من الوظائف المرموقة، واحترام عبادات المسلمين ومحرماتهم وأعيادهم مثل يوم الجمعة، وعيدى الفطر والأضحى، واحترام مواقيت صلواتهم، وحرمة مساجدهم، وغير ذلك من حقوق.

وأمام هذا المد الإسلامى، كان على الصهاينة إيقافه بأى ثمن، ولما كان من المستحيل إيقافه من خلال التشريعات المحلية، لأن الغرب يتباهى دومًا أنه أرض الحريات، والديمقراطيات، والمحافظة على حقوق الإنسان، فكان لابد من القيام بعملية كهذه تعطى الحكومات الغربية المبرر الكافى لضرب كافة المؤسسات الإسلامية ومصادرت أموالها وممتلكاتها، ومهدوا لذلك بسلسلة من الإجراءات، منها كثرة الكتابة عن معركة «أرماجدون» لتهيئة نفوس الغربيين للدخول فى معركة فاصلة مع المسلمين، والكتابة عن صراع الحضارات حتى يقتنع الغرب بإلغاء الآخر، وعن نهاية التاريخ، وعن العولمة (بمعنى فرض القيم الغربية على كافة دول العالم بما فيها الدول الإسلامية)،

والمسارعة بتقديم العديد من الاتهامات الجاهزة للإسلام والمسلمين بمناسبة وبغير مناسبة، ونشرها فى كافة وسائل الإعلام.

والكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين والمهيمن على السياسة الغربية له مخطط يتمثل فى ضرورة هدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل مكانه، وضم القدس عاصمة موحدة لكيانه الغاصب، وإعلان إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل (لا مكنهم الله من ذلك) ولن يستطيعوا تحقيق هذه الأحلام الشيطانية إلا بإشعال حرب عالمية ثالثة بين المسلمين من جهة (وهم فى أضعف أوضاعهم) والعالم الغربى بأسره (وبيده أسباب الغلبة المادية، ولذا فهو فى أقوى مراحل وجوده).

ويؤكد على ذلك أن المستفيد الأول والوحيد من هذه المحنة هو هذا الكيان الصهيونى الذى استغلها لمزيد من القتل والتدمير والحصار والتجويع ومصادرت الأراضى، وكافأته الولايات المتحدة الأمريكية بمنحه (٦٢) طائرة إف ــ ١٦ لدوره التجسسى والتخريبى فوق أرض أفغانستان، ولدوره فى إشعال الفتنة بين الهند وباكستان، ولدوره فى التجسس لصالح الغرب فى كل مكان.

ويدعم هذا التصور ما نقلته وسائل الإعلام الأمريكية من خبر عن خمسة من الإسرائيليين الذين ضبطوا فى وقت الحادثة على سطح مبنى قريب من مركز التجارة العالمى، وبحوزتهم أجهزة تصوير متطورة قاموا بواسطتها بتسجيل الحادث بالصوت والصورة منذ اللحظة الأولى لارتطام الطائرة بالمبنى الشمالى من المركز، إلى تمام انهيار المبنيين والهرج الذى ساد المنطقة بعد ذلك، وقد لفت الانتباه إليهم ما عمهم من ابتهاج وسرور لوقوع هذه الفاجعة، فقامت الشرطة باعتقالهم على الفور، وبالتحقيق معهم ثبت أنهم قد دخلوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بطريقة غير مشروعة، ولولا تصرفاتهم بأسلوب وصف بالغرابة من رقص وتصفيق وسط الدمار الذى حدث ما انتبه إليهم أحد، وقالت وسائل الإعلام إنه قد تم التحقيق معهم، ولكن مثل هذه التحقيقات تتم بسرية كاملة، ولم يعلم أحد دور هذه العصابة فى العملية، خاصة وأنه قد تم ترحيلهم إلى فلسطين المحتلة دون إعلان عن نتائج التحقيق، ونظرًا لانغراس الكوادر الصهيونية فى الإدارة الأمريكية بشكل

ملحوظ، خاصة في أجهزة الأمن والاستخبارات، فإن مثل هذه القضايا سرعان ما تطوى وتندثر أخبارها حماية لهذا التغلغل الصهيوني.

ولم يكن تفجير مبنى البحرية الأمريكية في بيروت إلا من عمل الموساد، ولم يوجه إليهم لوم واحد على ذلك على الرغم من كثرة الضحايا. وبالمثل كان إغراق باخرة التجسس الأمريكية (ليبرتي) في المياه الإقليمية المصرية في سنة ١٩٦٧م صورة من صور الجريمة الإسرائيلية، وتمنع السلطات الأمريكية إعلان نتائج التحقيق فيها.

قد يعترض معترض على هذا الاستنتاج بجبن اليهود المعهود، وعدم قدرتهم على مثل هذه التضحية التي تمت بها العملية، والقرآن الكريم يصفهم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦]

وللرد على ذلك نقول إن التقنيات المتقدمة تمكن من توجيه الطائرات توجيهًا كاملاً من على سطح الأرض، أو قد تعين على القفز من الطائرة قبل اصطدامها، أو اختراق أية جماعة إرهابية واقناع أفراد منها بالقيام بذلك الدور بأي وسيلة وبأي ثمن.

(٣) المجموعة الثالثة:

وترى أن العملية برمتها من صنع أجهزه الاستخبارات الأمريكية من أجل إعطاء الإدارة الأمريكية المبرر أمام العالم لغزو أفغانستان، وإقامة قواعد عسكرية لها في قلب آسيا، حتى تتمكن من الهيمنة على نفط بحر قزوين باحتياطياته الهائلة، وعلى وسائل نقله وتكريره، وتكون قريبة من كل من روسيا والصين أعدائها الأزليين الألداء، ومن أعدائها الجدد في قلب إيران، ومن القوتين النوويتين الصاعدتين الهند وباكستان ومن كل من كوريا الشمالية وفيتنام...!!!

ويدعم ذلك أن التاريخ سجل للمخابرات الأمريكية العديد من العمليات المشابهة، وهي أجهزة لا تقيدها أية مبادئ أخلاقية أو دينية، والغاية عندها تبرر الوسيلة مهما كلفتها من ثمن، ولو من دمار أرضها ودماء أبنائها.

وقد كتب أحد المحللين السياسيين الفرنسيين كتابًا بعنوان: «الحقيقة الممنوعة ـ The Forbidden Truth» اتهم فيه المخابرات الأمريكية صراحة بالتخطيط للعملية وتنفيذها بالكامل، ويستشهد بعمليات مشابهة تمامًا عرضت من قبل على عدد من الرؤساء السابقين ورفضوها.

الخلاصة

كما بينا هناك ثلاث رؤى منفصلة وقد تكون متداخلة فى محاولة فهم حقيقة ما حدث فى صبيحة الثلاثاء ٢٠٠١/٩/١١م، وأيًا كانت هوية ودوافع منفذى العملية، فقد كان لها العديد من الآثار السلبية التى منها:

(١) إعطاء الولايات المتحدة الأمريكية المبرر لتدمير دولة مسلمة مثل أفغانستان، وقتل آلاف الأبرياء وتشريد الملايين، ثم الدعوة إلى إعادة إعمارها بأموال دول الخليج لتشغيل الشركات الأمريكية وفتح أسواق لها فى كل الخليج.

(٢) إعطاء الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من قيادات الدول الغربية المبرر لتحجيم المد الإسلامى، ومصادرة أمواله وممتلكاته ومراكزه، وإلغاء الاتجاه نحو مناخ الحرية والديمقراطية والمحافظة على شىء من حقوق الإنسان لديه، والسيطرة الكاملة على الأمم المتحدة.

(٣) إعطاء للكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين فرصة للوقيعة بين العالمين الإسلامي والغربى، وإشعال حرب عالمية ثالثة يكون هو أول المستفيدين فى ظلها لتحقيق آماله وطموحاته بعد تدمير العالم الإسلامى (لا قدر الله).

(٤) إعطاء الإدارة الأمريكية مبررًا شكليا تتجمل به أمام العالم لاحتلال أفغانستان وإقامة قواعد عسكرية لها فى قلب آسيا لفرض مزيد من هيمنتها على العالم ولتهديد القوى المعادية لها تقليديًا والممثلة بكل من روسيا والصين، وتأديب كل من تسول له نفسه من دول العالم مجرد التفكير فى الخروج على الأوامر والتعليمات الأمريكية.

(٥) إعطاء الولايات المتحدة الأمريكية فرصة للهيمنة على منطقة بحر قزوين وما تحتويه من ثروات نفطية كبيرة.

(٦) إعطـــاء الكـــيان الصـــهيونى الغاصب لأرض فلسطين مبررًا لمزيد من الظلم والقهـــر وسفك الدماء ونسف المنازل ومصادرة الممتلكات تحت مظلة محاربة الإرهـــاب، ومحاولـــة وصـــم الحركات الجهادية والتحررية ضد هذا المحتل الغريب بأنها عمليات إرهابية.

• • •

المسلمون وميراث القوة والعنف(*)

د. خالد أبو الفضل

منذ أوائل ثمانينيات القرن الماضى ، يجادل المعلقون بأن المسلمين يعانون من أزمة هوية ، وبأن انهيار الحضارة الإسلامية فى العصور الحديثة ، خلّف على المسلمين إحساسًا دفينًا بالظلم والاختلال. التحديات التى تواجه الأمم الإسلامية ، مثل : فشل مشروعات التطور ، ترسخ النظم التسلطية ، وعدم القدرة على الاستجابة الفعالة للعسكرية الإسرائيلية ، أدى كل ذلك إلى حالة عميقة من الإحباط والغضب ، مما ولد ـ بدوره ـ صعودًا للحركات الأصولية فى العالم الإسلامى. آثر بعض المعلقين ـ فى محاولتهم لوصف ظاهرة الحركة الاجتماعية / السياسية ـ أن يطلقوا عليها مصطلحات: الجماعات المتعصبة، أو المتشددة، أو ببساطة: الإسلام السياسى. ومع ذلك، فوجئ الجميع بضراوة وفداحة أحداث ١١ سبتمبر: المعلقون، غير المسلمين، والمسلمون.

إرهاب ١١ سبتمبر لا يمثل ـ فقط ـ انحرافًا فى جماعة، بل هو بيان عن اتجاه عقائدى مؤسس وراسخ داخل بعض فئات المجتمعات الإسلامية. الإرهاب هو عصارة جرائم القوة .. إنه فعل يتحدى ويقوض سلطة المجتمع المستهدف. وهو ـ أيضًا ـ ككثير من جرائم القوة، هو جريمة كراهية، فهو يعتمد على تصوير المستهدف كأنه شيطان رجيم، عارٍ من أى قيم أو أخلاق. وتحتاج شيطنة المستهدف إلى بيئة راديكالية، ترن فيها الإحباطات الاجتماعية والسياسية، فتزداد حدة وعنفًا، وإلا انزوت وتهمشت.

السؤال المثار الآن: لأى مدى تمثل تلك الأحداث عرضًا فى أيديولوجيا

(*) هذه مقالة كتبها الدكتور خالد أبو الفضل للصحافة الأمريكية ، لذلك نجد بها بعض المصطلحات المعروفة لدى القارئ الأمريكى ، بخلفيته التاريخية ، والدينية ذات الصبغة اليهودو/مسيحية.

ونقـاش العـالم الإسـلامي الـيوم ؟ واضـح أنه ليس كل الإحباطات الاجتماعية والسياسـية تقـود إلـى الإرهاب، وإذا لجأت حركات التحرر القومية إلى العنف، فهجمات ١١ سبتمبر لها سمات تختلف تمامًا عن تلك الحركات التحررية. فمرتكبو الهجمـات ليسوا ذوى شخصية قومية معينة، ولا يتحدثون باسم عرق معين أو دولة معيـنة. بالإضافة لذلك، ليس لهم طلبات حدودية أو أجـندة سياسية مفصلة، كذلك هـم بخـلاف حركات التحرر، لم يعلنوا مسئوليتهم عن الأحداث، داخل سياق من المطالـب السياسـية. وحـتى إذا أمكن تخمين قائمة بأسباب الظلم الرئيسية ، مثل القهـر الإسرائيلى المستمر للفلسطينيين، الهجمات ــ شبه اليومية ــ على العراق، والوجود العسكرى الأمريكى فى منطقة الخليج، فإن الحقيقة تبقى: لم يتبع الهجمات إعـلان بالمسـئولية وقائمة بالمطالب السياسية، أو حتى الأهداف الرئيسية لها. بل تمـثل تلـك الهجمـات الانتحارية حالة عميقة من الإحباط واليأس، أكثر مما تمثل نضالا لتحقيق أهداف محددة.

مال بعض المعلقين لاعتبار أساس تلك الهجمات كجزء من الصراع الحضارى بيـن قـيم الغـرب والـثقافة الإسلامية. وليست الهجمات ــ فى نظرهم ــ مسألة أصـولية إسلامية أو إسلام سياسى، بل هى صراع رئيسى وأساسى بين قيم ورؤى وأعـراف أخلاقـية متناقضـة. وبمعـنى ما، العنف هو عرض لأعمال معارضة مقاومـة حضارة، لحضارة أخرى فى مفهوم العدل. ومن هذا المنطلق، لا يندهش المـرء مـن أن لا يعلـن أحد مسئوليته عن الهجمات، ولا يتقدم بطلبات متماسكة مفصـلة، فـالهدف من الهجمات ضرب رموز الحضارة الغربية، وتحدى سيطرتها على أمل أن يعمل ذلك على إعادة القوة للحضارة الإسلامية.

صراع الحضارات، أزمة الهوية، الإحباط الاجتماعى والسياسى، تلك المناظير الـثلاثـة، لا يحتكر أى منها ــ وحده ــ تـفسير صعود الإرهاب فى المجتمعات المعاصـرة. ولا يحتكر أى منها التعامل، ولا تفسير، طرق إعادة تكوين وصياغة التقاليد فى عالم اليوم.

يدعى أصحاب منظور صراع الحضارات ، أن الأصولية والـبـيوريتانية(*) ،

(*) الـبـيوريـتانز طائفة من الـبـروتستانت ، تميزت بالاستقامة والتشدد ، ولكن عانت وعانى معها المهاجرون الأوائل لأمريكا من تسلطها وقسوتها وعنفها ، مع ضيق أفقها ، الذى هو تولم للتعصب.

وحتى الإرهاب ، لها ــ بشكلٍ ما وإلى حدٍّ ما ــ جذور أصلية فى التقاليد الإسلامية. أما أصحاب منظور أزمة الهوية ، ومنظور الإحباط الاجتماعى والسياسى، فلا يفسرون ــ بطريقة كافية ــ الموقف العقائدى الخاص للجماعات الأصولية، أو كيف فندوا العنف والإرهاب فى العصر الحالى. بالإضافة لذلك، لم تتعامل المناظير الثلاثة مع التقاليد الأصلية (السنّة) فيما يخص العنف السياسى، ولا مع تراث الفكر الإسلامى فى ذلك. كذلك لم تتعامل المناظير الثلاثة مع الطرق التى أعاد بها بعض المسلمين بناء التقاليد الأصلية (السنّة).

ومن الأهمية بمكان، أن نفكر فى كيفية استخدام بعض الحركات الإسلامية المعاصرة للإرهاب، سواء كان ذلك بناء على مفاهيم معاصرة ، أو التقاليد الأصلية (السنة)، وشتان بينهما.

الحرب والتمرد والإرهاب ، والشرع الإسلامى

لم يأت القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) إلا وكان علماء القانون الإسلامى قد طوروا أقوالاً وكتابات متقنة ومفصلة ، متعددة المستويات، عن قضايا الحروب والعنف والإرهاب. حث القرآن الكريم المسلمين على الجهاد بالقتال فى سبيل الله ضد أعداء الله. لم يتطرق القرآن للتفاصيل، ولكنه نهى مرارًا وتكرارًا عن العدوان. مال علماء الشريعة (الفقهاء) ــ فى سياق ظروفهم التاريخية ــ لتقسيم العالم إلى ثلاث فئات رئيسية: دار الإسلام (ذات الغالبية المسلمة والحكومة المسلمة)، دار الحرب (التى تحارب دار الإسلام) ، دار العهد، أو دار عدم الاعتداء (التى بينها وبين دار المسلمين معاهدات ومواثيق سلام). ولم يقسم الفقهاء العالم إلى قسمين: عالم الإسلام فى مقابل العالم الآخر ، وغنى عن الذكر أنه منذ العصور الأولى ، عاش غير المسلمين فى الدول الإسلامية ، وعاش المسلمون فى الدول غير الإسلامية(*) ، ومنع أكثر الفقهاء شن الحرب على الدول غير الإسلامية إلا بسبب عدوانها، أو تهديدها بالخطر على الدول الإسلامية. وقال أكثر الفقهاء المتقدمون: إن معاهدات السلام تحدد بعشر سنوات ثم تُجدد ، بينما قال أكثر الفقهاء بعد القرن العاشر: إنه يمكن تجديدها بلا نهاية ، أو أن تكون من الأصل لمدد أطول من عشر سنوات ، وإلى ما لا نهاية.

(*) إقرأ سورة النساء الآية (٩٢).

الحرب

ومن الأهمية، مع ذلك، أن أولئك الفقهاء لم يحصروا اهتمامهم على فكرة الحرب العادلة، ولكنهم أكدوا ضرورة قيام المسلمين برد العدوان ، فيما يبدو أنهم افترضوا أن قرار الحرب أو السلام يرجع للسلطة السياسية وليست الدينية.

وهناك الكثير من أقوال الفقهاء (المستندة لنصوص القرآن والسنة) التى تمنع انتهاك المعاهدات والمواثيق ، والخيانة ، بل وحتى الهجوم على العدو قبل إنذاره(٥). أما الأقوال التى تحدد حرب الجهاد وتعطيها المشروعية ، فهى قليلة. لا يعنى هذا أن الفقهاء رأوا دائمًا مشروعية الحرب أو برروها ، ولكنهم بالأحرى رأوها من عمل أصحاب السياسة ، ومع ذلك فقد وضعوا حدودًا لممارستها.

ضوابط الحرب فى السنّة

أكد الفقهاء ــ بناءً على ما جاء فى السنّة ــ على ضوابط الحرب :

* لا تعتدوا.
* لا تقتلوا النساء.
* لا تقتلوا الأطفال.
* لا تقتلوا الشيوخ.
* لا تقتلوا النساك.
* لا تقتلوا المسالمين.
* لا تقتلوا العبيد إلا إذا قاتلوكم.
* لا تمثلوا بالقتلى.
* لا تقتلوا الأسرى .
* حتى لو فعل العدو ذلك.

تكلم فقهاء ذلك العصر ــ من موقع التفوق والسمو الحضارى ــ بناء على نصوص القرآن والسنّة.

---

(٥) استنادًا لما جاء فى الآية ٥٨ من سورة الأنفال.

وبصيغة أخرى ، لم يتكلم الفقهاء من موقع اليأس والإحباط. قبل الفقهاء توكيل أمـــر الحرب إلى السلطة السياسية ، ولكنهم أصروا على وضع الضوابط الأخلاقية لها ، كما فهموا من القرآن الكريم والسنة.

التمرد

وبجانـــب قضية وضع ضوابط الحرب ، أظهر فقهاء المسلمين قدرًا عظيمًا من التســـامح ـــ كمـــانع ـــ و فـــي مواجهة التمرد السياسي ، نظرًا للظروف التاريخية للقرون الأولى في الإسلام.

مـــنع الفقهاء التمرد حتى على الحاكم الظالم ، وفي نفس الوقت رفضوا إعطاء الحكومة حرية التصرف ضد المتمردين. وأدخلوا كل ذلك في نطاق السياسة وليس نطاق الدين.

الإرهاب

اخـــتلف تناول الفقهاء للإرهاب. فمنذ القرن الإسلامي الأول ، عانى المسلمون مـــن الأفكـــار المـــتطرفة ، التي لم تكتف برفض المؤسسة السياسية للإمبراطورية الإســـلامية، بـــل أنكرت صلاحية الفقهاء. لم ينضو الفقهاء تحت ما يماثل الكنيسة الكاثوليكـــية أو الأرثوذكسية ، ولم تكن لهم صلاحيات هرمية مماثلة ، ولكنهم تقلدوا مـــنازلهم بين الناس، بأفكارهم وأعمالهم. من الأهمية بمكان أن أولئك الفقهاء نهلوا المعـــرفة مـــن مصادر عامة مشتركة(*) ، وتبنوا منهجًا تفسيريًا لهما ، ودخلوا في حـــوارات ونقاشـــات مع العامة ، اتسعت حتى تجاوزت الحوادث إلى الاحتمالات والافتراضـــات. ولذلـــك لـــيس مـــن المستغرب أن تجد عشرة آراء مختلفة حول تفاصيل مسألة واحدة ، عند مدارس الفكر المختلفة.

رفضـــت حـــركات الـــبيوريتانز (راجع شرح قصد الكاتب بذلك المصطلح المســـيحي الـــبروتستانتي في هامش صفحة ٢) الاعتراف بالمدارس الفقهية ـــ الـــتي مثلت التيار الرئيسي في الإسلام ـــ وما مثلته من سعة وتعددية (حتى شاع بينها مقولة: اختلاف الأئمة رحمة).

(*) يقصد الكاتب القرآن والسنة ، وهما مصدران متاحان للجميع ، بلا أسرار ولا خصوصية ولا كهنوت، كما هو الحال عند بعض الطوائف المسيحية.

كانت الخوارج بين تلك الجماعات المتطرفة ، كذلك القرامطة والموحدون، والحشاشون ، وكانت العلامة المسجلة لتلك الجماعات فكرهم غير المتسامح ، ليس مع غير المسلمين فقط ، بل ومع المسلمين المنتمين للمدارس الفكرية الأخرى ، بل وحتى المحايدين. اعتبرت تلك الحركات المسلمين المختلفين معهم فكريًا ، بل وحتى أولئك غير المبالين بالمسائل الفكرية ، أعداءً خرجوا عن عباءة الإسلام ، فهم لذلك هدف شرعي للعنف. كان العنف المفضل لتلك الجماعات ــ مع احتمال استثناء الموحدين ــ هو الهجمات المباغتة ونشر الرعب بين العامة.

انسم رد فعل الفقهاء على تلك الجماعات بالشدة ، حيث رأوهم مفسدين في الأرض وأعداءً للإنسانية ، وسموهم « المحاربين » ، ومعناها الحرفي : أولئك الذين يحاربون المجتمع. وفي الواقع ، جادل الفقهاء بأن أي إقليم أو منطقة تحمي أولئك «المحاربين» ــ سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة ــ تعتبر معادية ، ويجوز لقوات المسلمين مهاجمتها.

بالرغم من أن الفقهاء التقليديين اتفقوا على تعريف تلك الجريمة ، فهم لم يتفقوا على أي الأعمال الإجرامية تعتبر إرهابًا (محاربة). فعلى سبيل المثال ، اعتبر كثير من الفقهاء أن الاغتصاب ، السطو المسلح ، الاغتيال ، تدمير المباني ، القتل بالسم ، تدخل ضمن ذلك ، وجادلوا بوجوب معاقبتهم ، بصرف النظر عن دوافعهم الفكرية أو الدينية لارتكاب تلك الجرائم.

ومن الأهمية بمكان ، لأن الفقهاء رأوا أن ذلك العقاب أمر ديني مُلزم ، وبناء على ذلك ، فإنه بصرف النظر عن الأهداف المطلوبة والتبريرات الفكرية ، يُعد إرهاب المدنيين خطأ أخلاقيًا ، وذنبًا في حق المجتمع والله.

التزام المسلمين بالسنّة

كثيرًا ما يقال إن الإرهاب سلاح الضعفاء ، الذين لا يستطيعون تعبئة الجيوش وشن الحروب التقليدية. ومن الملاحظ أن الفقه التقليدي نشأ وتطور في زمان سادت فيه الحضارة الإسلامية على العالمين ، وصبغ ذلك التفوق روح الفقهاء بالأريحية والخير للعالم كله. أبحرت عقول الفقهاء بين حاجات ومتطلبات ومنافع الحياة الدنيا من ناحية ، ومبادئ الفكر غير الانتهازي ، والعصي على التطبيق من

ناحية أخرى. وفى النهاية ، تكلم الفقهاء بإلحاح ، ولكن ليس بيأس. ويجد المرء أن القوة والسيادة السياسية لم تكن مرامهم الوحيد.

تغير الكثير من ذلك فى العصور الحديثة .. تدهورت الحضارة الإسلامية ، والمدارس التقليدية الحرة للفقهاء اندثرت ، واندثرت معها القيادة التى استخرجت القوانين الإسلامية والدينية ، مخلفة وراءها فراغًا معرفيًا. وذهب مع كل ذلك التسامح مع الخلاف السياسى (لدرجة التمرد) ، والعداوة للإرهاب(*). مناقشات المسلمين المعاصرة ، إما تكتفى بإخراج نبذبات هوائية عن جوهر السنة ، أو حتى تتجاهل جوهر السنة تمامًا(**).

ساهمت أمراض كثيرة فى الوصول لتلك الحالة الراهنة. منها الفترة الاستعمارية التى فككت مؤسسات المجتمع المدنى، ومن بعدها صعود حكومات استبدادية عاتية، وغالبًا ما تكون فاسدة، وبسطها قبضتها على المؤسسات الدينية، مما أسفر عن تقويض دور الفقهاء الواسطى فى المجتمعات الإسلامية. وفى الحقيقة ، فإن بسط الحكومات قبضتها على الأوقاف الخيرية(***) وجعل معظم فقهاء العالم الإسلامى موظفين بالمرتب لدى حكوماتهم ، أفقدهم شرعية الفقهاء التقليديين فى المدارس الحرة إبان عصور الإسلام الأولى ، وحولهم لما يُطلق عليه « فقهاء السلطة ».

أضف لكل ذلك تأسيس دولة للصهاينة على أرض فلسطين، طرد الفلسطينيين ، والصراعات العسكرية التى ألحقت بالدول العربية خسارات ثقيلة ، ساهم كل ذلك فى صنع ونشر عقلية مُحاصَرة ، وجدال سياسى محوره القطبى الحرب والقتال. وربما تكون هناك أهمية قصوى لعامل آخر : رموز الحضارة الغربية ، أنماط الإنتاج الغربى ، القيم الغربية .. كل ذلك لاخترق العالم الإسلامى بدرجة خطيرة ،

(*) هل هناك تلازم بين التسامح مع الخلاف السياسى وعداوة المجتمع للإرهاب ، وتلازم آخرين عدم التسامح السياسى وقبول المجتمع للإرهاب ؟ ــ الناشر.

(**) من جوهر القرآن والسنة ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ :
الشورى ــ التكافل والعدل الاجتماعى ــ العلم ــ العمل ــ القوة ــ الصدق والأمانة ــ تكاتف المسلمين لخيرهم وخير العالم ، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. وتحريم النفاق ، وقول الزور، والكذب ــ الناشر.

(***) تمثل الأوقاف الخيرية فى الولايات المتحدة أهم مصدر لتمويل الجامعات الخاصة ، التى تقود ، ليس أمريكا ، بل العالم كله ــ الناشر.

وتحـدى الموروثات وممارسات المسلمين المعاصرة ، فأضاف بذلك احساسًا دفينًا بالانعزال الاجتماعى والحضارى.

تطـوران آخـران تعلقا بأفول تطبيق القانون الإسلامى. خاضت معظم الدول الإسـلامية عملية اقتراض بالجملة لمفاهيم القانون المدنى من الغرب. مالت الدول الإسـلامية لأنظمة قانونية مكودة ، أكثر تحديدًا وتركيزًا ، بدلا من منهجية الفقهاء التقليدية الأولى، ذات الطبيعة الجدلية والسعة.

وحـتى العلمـاء للمعاصرون مثل عبد الرزاق السنهورى، وعبد القادر عودة، ومحمـد أبو زهرة، وصبحى المحمصانى، الذين حاولوا إصلاح القانون الإسلامى، تأثـروا بشـدة بـنظام القانون المدنى، وسعوا وراء مقاومة السعة المتدفقة للقانون الإسلامى ، وزيادة صفة التركيز والتوحيد فيه.

لـم تقـع المفاهـيم القانونـية للمسـلمين وحدهـا تحت طائلة التقاليد القانونية الأوروبـية ، بل حتى أيديولوجـيات المقاومة فى الدول الإسلامية حملت بصمات حركات التحرير القومية وتحديد المصير(*).

وهيمنت فكرة الدولة القومية على فكرة الدول الإسلامية ، ومارست نفوذا أقوى لتناسـب أيديولـوجـيات العالم الثالث فى التحرر من الاستعمار والإمـبـريالية ، بدلا من أن يحدث العكس.

فـى حيـن لجأت حركات التحرر القومية فى الجزائر وفلسطين وجنوب لبنان لحرب العصابات ، أو الحرب غير التقليدية ، قامت الهجمات الإرهابية على برجى الـتجارة فـى نيويورك على أسس أيديولوجـية مختلفة. وهناك قليل من الشك أن المـنظمات الـتى قامـت بعملـية ٢٠٠١/٩/١١م تأثرت بحركات التحرر القومية والأيديولـوجـيات المعادية للاستعمار ، ولكنها ربطت نفسها بأفكار بـيوريتانية ، ذات صـبغة انتهازية ونظرة دونية للآخر. وكل ذلك ناتج عرضى لبروز سجالات الفكر التبريرى فى عالم اليوم.

(*) قـد يكون قصد الكاتب أنه انفكت عرى الأمة الإسلامية وراء لنموذج الدولة الأوروبـية الحديثة (فى القرنيـن الثامـن والتاسـع عشر) ، فى حين توحدت أوروبـا الآن فى كثير من المسائل الحيوية ، وأصبح لها برلمان واحد ، وتحالف عسكرى واحد ، يعلن ويؤكد ويكرر ، أن الاعتداء على أى دولة هـو اعتداء على كل دولة فى التحالف الأوروبـى / الأمريكى ، وأصبح لأوروبـا سوق مشتركة ، ومـن أول عام ٢٠٠٢م عملة واحدة. أى فى حين رجعت أوروبـا عن الدولة القومية تزداد تشرذم وتفكك ، بل وعداوة الدول الإسلامية لبعضها البعض ــ الناشر.

الأفكار البيوريتانية فى العالم الإسلامى المعاصر

تأسس الفكر الوهابى فى القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب (توفى ١٧٨٧)، حين سعى ــ بحماسة إلى تخليص المجتمع الإسلامى من المفاسد والانحرافات التى طالته ، حسبما رأى. لجأت الوهابية إلى التزام حرفى بالنصوص ، وقاومت أى سعة أو تعددية تقابل ذلك ، فأظهرت عداءً شديدًا لكل أنواع إعمال الفكر، والتصوف ، وأى تعددية داخل العالم الإسلامى. كذلك اعتبرت الوهابية أى فكر أخلاقى خارج نطاق فهمها للنصوص ، كأنه نوع من عبادة الأوثان ــ الذاتية ، وعاملت مجالات المعرفة الإنسانية ، خاصة الفلسفة ، على أنها علوم الشيطان.

طبقًا للوهابية ، يجب الرجوع لإسلام أصلى نقى ، ومستقيم ، متمثل فى تنفيذ حرفى لسنة النبى ﷺ ، وبالتمسك الشديد لممارسة الطقوس. ورفضت الوهابية أى تفسير للقانون الإلهى فى سياقه التاريخى ، ورأت أن معظم التاريخ فى المجتمعات الإسلامية فساد وتيه وضلال عن الإسلام الحقيقى والأصلى. واعتبرت سعة وجدلية تفسيرات وتأويلات المدارس الفقهية التقليدية سفسطة. وبالطبع ، لم تقبل الوهابية ــ الممارسة الإسلامية ــ طوال التاريخ الإسلامي ــ لتعدد المدارس الفكرية جنبًا إلى جنب ، واعتبارها جميعًا مشروعة ومستقيمة وصحيحة على حدٍّ سواء.

حصرت الوهابية ذلك واحتكرته ، وكان ابن عبد الوهاب مغرمًا بوضع قائمة من الاعتقادات والأعمال التى اعتبرها نفاقًا ، تخرج المسلم فى التو واللحظة من دائرة الإيمان.

فى نهاية القرن الثامن عشر ، وحدت العائلة السعودية جهودها مع الحركة الوهابية ، وتمردت على الحكم العثمانى فى شبه الجزيرة العربية. ذهبت القوات المصرية عام ١٨١٨ بقيادة محمد على وحطمت ذلك التمرد. ولكن عادت الوهابية للحياة فى أوائل القرن العشرين تحت قيادة عبد العزيز بن سعود ، الذى حالف قبائل نجد وأسس ما أصبح المملكة العربية السعودية.

وصف علماء التيار الرئيسى فى الإسلام ذلك الوقت ــ مثل ابن عابدين (الحنفى، توفى ١٨٣٧) ، الصاوى (المالكى، توفى ١٨٢٥) ــ الوهابية بأنها

جماعـــة متطرفة متعصبة هامشية ، واطلقوا عليها « خوارج الإسلام المعاصر »• عـــامل علمـــاء التـــيار الرئيسى « الوهابية » على أنها انحراف متعصب عن ذلك التيار•

ومـــع ذلك ، أسفرت ثلاثة عوامل رئيسية عن بقاء ، بل وازدهار ، الوهابية فى الإســـلام المعاصر• أولها ، جذب التمرد على الحكم العثمانى أيديولوجـــية القومية العربـــية فـــى القـــرن الثامن عشر ، باعتبار الحكم الإسلامى العثمانى قوة احتلال أجنبـــية ، فضربت الوهابية سابقة فى فكرة الاستقلال وتحديد المصير• ثانيًا دعت الوهابـــية للعودة إلى الإسلام الأصلى النقى ــ ورفضت الميراث التاريخى المتراكم للفقهـــاء ــ وأحلـــت محلـــه أقـــوال وأعمال «السلف الصالح». أدرك المصلحون الإســـلاميون ذلـــك الوقـــت مـــا فى الفكرة من صبغة تحريرية تدعو لميلاد جديد للاجـــتهاد ، أو التخلص من الميراث الفقهى والرجوع للمصادر الأصلية فى تناولهم الجديـــد لقضـــايا ذلك العصر• ثالثـــًا ، وبأهمية قصوى ، أدى اكتشاف واستخراج البترول لتوفير سيولة هائلة للسعودية ، خصوصًا بعد حرب ١٩٧٣ حين تضاعفت أســـعار البترول ، فروجت السعودية ــ بشدة ــ للوهابية فى العالم الإسلامى• وأى فحص ــ ولو خاطف ــ سيجد انتشارًا للنفوذ الوهابى فى عالم الأفكار والممارسات الإسلامية اليوم•

ومـــع ذلـــك ، لم تنتشر الوهابية تحت لوائها ! فمصطلح « الوهابية » يُعتبر ــ حـــتى لأتـــباعه ــ انتقاصًا وازدراءً فى القدر ، فهم لا يعتبرون أنفسهم إلا الممثلين للإسلام الصحيح• فالوهابية ــ فى نظر أتباعها ــ ليست مدرسة فكر فى الإسلام ، بـــل هـــى الإسلام• ورفض الوهابيون اعتبارها مدرسة فكر ، سهل لهم نقل ونشر أفكارهـــا ومنهجيـــتها ، وبالطـــبع بـــزداد نفوذها عـــنـــدما تـــتـــكلم تحت شعار وباسم « السلف الصالح »• ويصف الوهابيون أنفسهم ــ بإصرار واستمرار ــ فى كتاباتهم بأنهم سلفيون وليسوا وهابيين•

السلفية

مـــنهج فكـــرى تأســـس أواخر القرن التاسع عشر على أيدى مصلحين مثـــل : الأفغـــانى، محمـــد عـــبده، رشيد رضا• تنادى السلفية بالرجوع والاحتكام إلى سنة

النبى ﷺ وأصحابه: السلف الصالح، وهى فى ذلك تتشابه مع الوهابية، إلا أن الوهابية لا تتمتع بتسامح السلفية وإيمانها بالسعة والتعددية. لا تعارض السلفية الحس الإسلامى، فهى تدعو للرجوع للمصادر الأصلية (القرآن والسنة) ، وتأويلها بما يناسب مقتضيات العصر ، فى كل القضايا ، وبدون الاضطرار للأخذ بمفاهيم وتراث الفقهاء طوال التاريخ الإسلامى ، فذلك بمثابة تحويل اجتهادهم وفهمهم للدين ، لم تعارض السلفية إعمال الفكر ، ولكنها كالوهابية ، لم ترضخ للميراث الفقهى لما بعد الصحابة (السلف الصالح) ، واعتبرت العهد الأول للإسلام هو العهد الذهبى ، وتجاهلت أو قللت شأن ما بعده. أكثر من ذلك ، فبنقض الميراث الفقهى لما بعد العهد الذهبى ، تبنت السلفية مفهومًا مساوٍ ، أى يمنع بناء أى سلطة دينية داخل العالم الإسلامى ، فيمكن لأى مسلم النهل من المنابع الأصلية ، فيتأهل للتحدث عن الشريعة والإرادة الإلهية. وبتحرير المسلمين من أى أحمال فكرية من تراث العلماء والفقهاء طوال التاريخ الإسلامى ، عدا فترة العهد الذهبى الأولى والقصيرة، ومن الأهمية بمكان، أن مؤسسى السلفية هم مسلمون قوميون، تطلعوا أن يقرأوا قيم الحداثة فى المصادر الأصلية للإسلام. ومن ثم، لم تكن السلفية ــ بالضرورة ــ معادية للغرب. بل فى الواقع ، كافح مؤسسو السلفية لإسقاط مؤسسات وديمقراطية ودستورية الحكم فى الغرب على النصوص الأصلية ، وأن يبرروا الدولة القومية الحديثة فى سياق الإسلام.

انتهى ما يمكن أن نسميه السلفية الليبرالية فى ستينيات القرن الماضى(*). ومن بعد ١٩٧٥ ، تخلصت الوهابية من تعصبها الشديد ، ومالت لبقايا السلفية حتى أصبحتا أشبه بكيان واحد تخيل مفكرو السلفية والوهابية عهدًا ذهبيًا ، واستلزم ذلك الاعتقاد فى مدينة فاضلة يمكن استعادتها بالكامل فى الإسلام المعاصر. كل منهما أسقطت الاهتمام بالفحص النقدى للتاريخ ، وتجاوبت مع تحديات الحداثة بالهروب إلى ملاذ النص.

لكتنفت التناقضات الوهابية والسلفية ، حتى أصبحت كل منهما مثالية ونفعية فى نفس الوقت، والأمر ذو الأهمية القصوى، أنه أصاب كلا منهما داء من الاستعلاء والتسيد فى التفكير، خصوصًا فى الثمانينيات والتسعينيات، وحتى اليوم.

(*) ربما يقصد الكاتب مع هزيمة ٦٧ وما تابعها من أحداث فى مصر والعالم العربى.

بين الدفاع / التبريرى ، والاستعلاء

يمكـن القول إن الدفاع التبريرى مثل أكبر الاستجابات الفكرية لتحديات الحداثة عند المسلمين. انتشرت تلك الاستجابة فى القرن العشرين ، ومازالت مزدهرة حتى الـيوم. تكونت تلك الاستجابة من مجهودات لكثير من المعلقين للدفاع عن الإسلام ضـد انقضاض المستشرقين، والتغريب، والحداثة، والتأكيد على قدرته وتفوقه. فى حيـن تجنبـت تلـك الاستجابة الرؤية النقدية لمفاهيم وممارسات المسلمين اليوم. تمثلـت إحدى الوسائل الدفاعية المعتادة، فى القول بأن معظم قيم وإنجازات الغرب، سـبقت لدى الإسلام والمسلمين، من الديمقراطية إلى حقوق المرأة، التعددية، حقوق الإنسـان، الضمان والتأمين الاجتماعى(*). ومع ذلك، فتأكيد تلك الحقوق والقيم ، لم يـبرز مـن ممارسـتها ولا الضرورة أو الحاجة لها، ولكن فقط للرد على الغرب ومقاومـته، وتأكيد الهوية، مما أدى فى النهاية إلى حالة من الرضا عن الذات، بل وتمادى إلى غطرسة فكرية وأخلاقية ، وعم ذلك حتى امتنعت الرؤية النقدية وسبل الإصلاح.

واسـتلزم زيادة الهوة الحضارية بين المسلمين والعالم المتقدم، البحث عن مبرر مرضى ، فكان فى تلك الأجواء ، إلقاء اللوم على الغرب.

لـم يهتم الأسلوب الدفاعى التبريرى بتفعيل الشورى، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والتكافل الاجتماعى، وما إلى ذلك داخل المجتمع، بقدر ما اهتم بإثبات تفوق الإسـلام علـى مناقسـه الحضـارى. استغرق مفكرو ذلك الأسلوب، واستـنفدوا جهودهـم وأعمـالهم، فـى إثبات تفوق الإسلام على الغرب ، ولم يعيروا اهتمامًا لمحاولة إدخال تلك القيم الإسلامية فى الحياة اليومية لمجتمعاتهم.

فـيما بعـد للسـبعينيات مـن القرن الماضى ، تبنت السلفية المقدمات الدفاعية التـبريرية إلـى آخـر مداهـا ، ومارسوا استعراضات وغطرسة القوة ضد غير المسـلمين، والمسلمين أيضًا. وعلى عكس ما يقولـه السلفيون من الالتزام بالنص، أصبحوا يفرضون رؤاهم وإحباطاتهم على فهم النص ، وتحولوا من نقيض الادعاء

(*) بـل يمكن أن نضيف لذلك الإنجازات العلمية ، والاكتشافات الجغرافية. ولكن السؤال : أين نحن من كل أو أى من ذلك الآن ؟ ــ الناشر.

بـــأن كـــل فضـــائل التقدم الغربى جذورها إسلامية قديمة ، إلى رفض كل ما لدى الغرب.

بالطـــبع لا توجـــد مؤسسة بعينها تمثل الوهابية أو السلفية، فهما اتجاهات دينية أكثر من أن يكونا مدارس فكرية، ولذلك داخل الاتجاهات اختلافات وميول متعددة، وإن كـــان المـــرء لا يفـــتقد فـــى كل ذلك إحساسًا دفينـــًا بالإحباط ، إن لم يكن بالهزيمة والانسلاخ عن العالم.

الإسلام والسنة الصحيحة

بعد الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة ، تساءل العديد من المعلقين: هل يشجع الإسلام العنف والإرهاب ؟

جادل بعضهم أن مفهوم «الجهاد» ومفهوم «دار الحرب» مسئولان عن ذلك.

يعـــانى ذلك الجدل من مفارقة تاريخية(*) ، ومن نظرة استشراقية ، فهو إسقاط لتصـــنيفات الغـــرب وتجاربه التاريخية على حالة خاصة جدًا ومعقدة. فيمكن لأى معلـــق أن يرى بكل وضوح ، وبساطة ويسر تقاليد إسلامية معادية لأخر مدى لكل أنـــواع الإرهـــاب. وبـــنفس الدرجة ، يمكنه أن يرى التسامح مع الآخر، والوعى بالكرامة والعزة لكل الجنس البشرى.

ولكن ــ أيضًا ــ فى الحقيقة ما سميته الـــبـــيوريتانية الاستعلائية فى الإسلام، خالـــية مـــن أى قـــيم أخلاقية ، بصرف النظر عن أساسها أو مصادرها ، وهى لا تعنى إلا بالقوة ورموزها ، ويخضع كل ما خلاف ذلك ، لذلك.

• • •

(*) فعـــندما مارس المسلمون الأوائل الجهاد ، لم يمارسوا العنف ولا الإرهاب ، بل رحبت بهم ، بحكمهم وعدلهم وتسامحهم ، كل البلاد التى حكموها ، من فارس إلى مصر إلى الأندلس ، والتاريخ شاهد على ذلك ــ الناشر .

وماذا بعد الرعب ؟

د٠ عصام العريان

(١) قراءة لعلاقة الغرب بالإسلام
وكيف يكون المستقبل؟

كـــان للموقف المبادر والسريع من الجمعيات الإسلامية الأمريكية سواء بالإدانة الســـريعة للحـــادث البشـــع المروع الذى راح ضحيته آلاف من كل جنسيات العالم ولـــيس الأمريكيين فقط، والذى تم بصورة أشبه بأفلام هولى وود، ثم الطريقة التى تصـــرف بها قادة المسلمين فى أمريكا وقيامهم بما يمليه عليهم الواجب الشرعى والإنســـانى من تبرع بالدم وصلوات ومقابلات إعلامية، كان لكل ذلك أثر كبير فى تخفيف حدة العداء الذى سببته قلة نادرة، ممن أظهروا بعض مظاهر الشماتة فى أمـــريكا، واختلطـــت لديهم المشاعر بالحزن والأسى لإزهاق أرواح أبرياء لا ذنب لهـــم فـــى حدث إجرامى بكل المقاييس، ومشاعر الانتقام من الإدارة الأمريكية ـــ المنتخبة بطريقة ديمقراطية، مما يوحى برضا الشعب الأمريكى عن سياسة الإدارة ـــ الـــتى تمـــارس سياســـة منحازة كل الانحياز ضد المصالح العربية والإسلامية، خاصة فيما يتصل بفلسطين.

وكان موقف الحركات الإسلامية فى العالم وقادتها فى جميع دول العالم، وفى مقدمـــتهم « الإخوان المسلمون » الذين سارعوا بإدانة الحادث فور وقوعه على لســـان المـــتحدث الرســـمى « المستشار الهضيبى » وغيره ؛ ثم فى بيان صدر صـــبيحة اليوم التالى مباشرة دون إشارة لأى أمر آخر يتصل بمواقف أمريكية سبق للإخوان أن أدانوها صراحة ودعوا لوقفة صارمة تجاهها، ثم البيان الذى وقع عليه قـــادة إسلاميون عديدون، وطالب بعدم التسرع فى إدانة طرف قبل التحقيق العادل، حـــتى لا تتأثر علاقة الغرب وأمريكا بالعالم الإسلامى، كان لهذا الموقف أثر كبير

فـي تصـحيح الصـورة أمام العديد من الناشطين الإسلاميين حول علاقة الإسلام والحركات الإسلامية بالغرب الأوروبـي ولمريكا.

لا يخفـى علـى أحـد أن مواقف حكومات الدول الإسلامية لا تعكس صورة مواقـف الشـعوب المسلمة، لأن هذه النظم لم تنتخب بصورة ديمقراطية، ولا تعبر بالضـرورة عـن حقـيقة مشاعر شعوبها، قد تعبر عن مصالح وطنية أو شخصية ارتبطـت لنصف قرن أو يزيد ــ منذ تسلمت مقاليد الأمور ــ ثم ساعد الغرب فى تثبيـت كثير منها فى كراسى للحكم فى صفقة متبادلة لا تخفى على العيان : الحكم والسـلطان، مقـابل المصالح الغربية الواضحة سواء فى تثبيت وضع إسرائيل، أو الـنفط الـذى لابد من ضمان تدفقه باستمرار وأمان وبأسعار متفق عليها، وقهر أى رغـبة شـعبية للعودة إلى ممارسة أمة الإسلام لدور عالمى يسمح بحرية شعوبها وتطبـيق شريعتها، وتحقيق وحدتها، ويحقق لها تنمية شاملة، بحيث تستطيع منافسة العـالم الغـربى، وتقديم حضارة إنسانية إسلامية قد تعيدها إلى موقع الصدارة فى العـالم كله، كما عاشت لمدة ألف عام تقريبًا، كان الغرب يرزح فيها تحت استبداد الملوك والباباوات، ويعيش فيها فى ظلام دامس، لم يخرج منه إلا عندما تحقق لـه احتكاك بالعالم الإسلامى عبر التجارة والأندلس والحروب الصليبية.

لقـد أعـاد الحادث البشع المروع إلى الأذهان، تلك العلاقة الملتبسة بين أمة الإسلام، التى ظهرت موحدة كأثر لهذا الحادث ومتهمة فى أقدس مقدساتها، وهى عقـيدتها التى يريد الصهاينة أن يروجوا لاتهامها بالإرهاب، وبين أمريكا خاصة والغرب عامة.

لقـد تطـورت هذه العلاقة على مدار ألف وخمسمائة عام بل يزيد، منذ سنوات الاحـتكاك الأولى بين الشرق والغرب، بحملات الإسكندر قبل الإسلام، ثم غزوات الـرومان واحتلالهم بعض لجزاء المشرق، ثم جاء ظهور الإسلام ليعيد التوازن إلى العلاقـة ويحـرر شعوب الشرق من الاحتلال الرومانى، ويعطيها الحرية، فتعتنق العقـيدة الجديـدة مـع احتفاظ أقلية فيها بعقيدتها المسيحية، وتعيش فى ظل تسامح الإسـلام حـتى يومـنا هذا، وتتحرر من اضطهاد الكنيسة الرومانية الغربية. وفتح الإسـلام جـنوب أوروبـا من شاطئيه فى الأندلس وفى البلقان، ثم كان التردى والانحطـاط الـذى أصـاب العالم الإسلامى، مما جعله عرضة للغزو والاحتلال، فالأيـام دول وسنة الله لا تختلف، والله لا يحابى أمة ولا شعبًا، وجثم الاحتلال على

أنفاس الأمة الإسلامية فترات طويلة (٤٥٠ سنة فى إندونيسيا، ١٣٠ سنة فى الجزائر، ٧٠ سنة فى مصر، على سبيل المثال) ولم يتركها إلا ممزقة سياسيًا، متخلفة اقتصاديًا، منهوبة الثروات، وأخطر من ذلك هو تشويه عقيدتها وشريعتها، فقد نحيت الشريعة الإسلامية وأصبحت محلا للاتهام بواسطة بعض أبنائها، وصارت هناك نخبة متغربة تفكر بعقول الغرب، وتعمل لربط أمة الإسلام بالمصالح الغربية، وتمييع حضارتها ومسخ هويتها، ثم كان الانقطاع التام عن تطوير الحياة فى ظل الإسلام.

تركت كل هذه التطورات رواسبها وآثارها على الجانبين، مما يصعب معه رسم تصور للمستقبل إذا لم تعالج هذه الرواسب، ويتم الاعتراف صراحة بإيجابيات وسلبيات هذه الفترات التاريخية، ولا ننسى هنا أن البابا فى زيارته لسوريا لم يعتذر عما سببته الحملات الصليبية من دمار وإزهاق أرواح، بينما كان من السهل الاعتراف بالجرائم فى حق اليهود وتبرئه أسلافهم من دم السيد المسيح، الذى ينطق الكتاب المقدس عند المسيحيين بدورهم فى التحريض عليه، بل والإسراع بصلبه فى عقيدتهم، وهناك من يقول بأن الاعتذرات إذا تمت يجب أن تكون متبادلة.

عندما ننظر إلى الآثار التى ستترتب على أحداث الثلاثاء الرهيب فى نيويورك وواشنطن، فإن هناك محاور عديدة محل البحث والدراسة الآن، أهمها هو :

١ــ سيناريوهات الرد الأمريكى : كيف؟ وضد من؟ وفى أى إطار؟

٢ــ أمريكا بعد الرعب : هل ستنعزل أم تطور سياستها العالمية؟

٣ــ الأمن الأمريكى وكيف تزيل الخوف من نفوس الأمريكيين؟ وفشل أجهزة الـ CIA، والـ FBI .

٤ــ الحريات فى أمريكا والوضع الدستورى ودور أجهزة المخابرات.

٥ــ مستقبل مشروع حرب النجوم.

٦ــ الإرهاب العالمى وكيف يتم مواجهته؟ وفى أى تصور؟ وفى أى إطار؟ وهل ستشجع هذه العملية أطرافًا أخرى مترددة فى الولوج إلى ساحة الإرهاب؟ وهل تلجأ دول ضعيفة لا تقدر على كلفة الحرب إلى استخدام هذا السلاح الرخيص؟

٧ــ علاقة أمريكا والغرب بالعالم الإسلامي والإسلام، خاصة الأقليات المسلمة فى الغرب.

هـذا كلـه يجـرى البحث فيه الآن، وستتوفر مراكز البحوث والدراسات لعقد اللقـاءات والندوات للنقاش حولـه، بعد أن تستقر الأمور ويتم تحديد هوية مرتكبى الجـريمة وكيفـية اختراق كل هذه الأجهزة المخابراتية والأمنية الأمريكية، والذين اسـتطاعوا أن يقصـفوا عـالم المال والاقتصاد (برجى التجارة العالميين) وعالم الحـرب والدفـاع (الـبـنتاجون)، وكادوا يدمرون أيضا ــ كما تردد ــ عالم الحـريات والديمقراطـية (البيـت الأبيض والكونجرس) أى أصابوا كل مظاهر العولمة الأمريكية فى ضربة واحدة.

لقـد سـاهم الحدث المرعب فى التفرقة فى العالم الإسلامى بين ما يمكن أن نسـميه «حركة إسلامية مسئولة »، وفصائل لا تتمتع بالفهم الصحيح للإسلام ولا بفضـيلة المسـئولية، فـالأولى تـنظر إلـى مقاصد الشريعة ومصالح الإسلام والمسـلمين، وتضعها فى إطار سياسة شرعية طويلة المدى، والثانية تنظر تحت قدميها فقط نظرة قاصرة خاطئة، الأولى هى تيار الوسطية والاعتدال الذى تقوده جماعـة الإخـوان المسـلمين، والثانية هى تيار التشدد والغلو، وينتظم جماعات صـغيرة خارج التيار الرئيسى، عالية الصوت حادة النبرة، أثبتت أحداث العقدين الأخيريـن أنها ألحقت بممارساتها أكبر الضرر بمسيرة الحركة الإسلامية عامة، وبصـورة الإسلام فى العالم، وسواء تلك التى تمارس العنف أو هذه التى تبرره وتقدم لـه الأعذار والتفسيرات.

ويـأتى الموقـف من الغرب وأمريكا نتيجة لرؤية كلا الاتجاهين، فبينما يتبنى الإخـوان، من قديم، موقفـاً ناصحًا محاورًا للغرب، لا يستجلب عداءه، ويريد منه أن يصـحح موقفـه مـن أمة الإسلام، ولن يتركها تحدد مستقبلها بأيدى أبنائها فى حـرية وعزة واستقلال، ويجاهد بكل السبل لرفع الهيمنة الغربية عن مقدرات العالم الإسـلامى، داعـيا لتعاون متكافئ فى المستقبل، وهناك ملايين من المسلمين الذين يعيشـون فـى بـلاد الغـرب، يتبعون هذه المدرسة الفكرية، وهم فى بلاد الغرب يحـترمون قوانيـنها ونظمهـا، يحـافظون فـيها على دينهم ويتمسكون بتقاليدهم، ويؤثرون فى المجتمعات الغربية ولا ينعزلون عنها، ويميز بين غرب وغرب، كان للاتجـاه الآخـر موقف مختلف، ينطلق من رفض الغرب جملة واحدة دون تمييز، ويـرفض التعايش معه حتى على مستوى العالم، ولا يحترم إذا عاش فى بلاده أى

ضـــوابط أو قواعـــد، بل يصرح برغبته فى تدميره وهو يعيش على أرضه ويريد الانتقام منه بكل صورة من الصور.

وينســـى هـــؤلاء أن أى قراءة لنصوص الشريعة أو تاريخ المسلمين مع الغرب ومع الآخرين، لا تنطق أبدًا بمفاهيمهم المغالية المتشددة، وأنهم يقعون فى تناقضات شديدة، حيث يصرون على أن يأويهم الغرب الذى يعادونه بكل حدة.

كـــان أيضا للمسارعة بتقديم اتهامات جاهزة ومعدة سلفـــًا ضد الإسلام ككل، وقـــد كان وراء هذا الاتهام أجهزة إعلام متحيزة إلا فى الاشتباه، وصهاينة مثـــل شـــارون وكيسنجر، أصرت على إظهار بضع عشرات من أطفال فلسطين ــ الذين يضـــربون بالرصـــاص يوميـــًا ــ يـــتظاهرون أو يتهللون فرحًا(*)، بينما تناست تصـــريحات الإخوان المسلمين وشيخ الأزهر والدكتور القرضاوى وخطيب الجمعة فـــى طهـــران والسيد فضل فى لبنان وغيرهم، التى أدانت العملية البشعة. ورغم تصـــريحات الرئـــيس بوش وبعض المسئولين الأمريكيين، حدثت اعتداءات على المسلمين الأمريكيين ليست قليلة، مما دعا عضوًا بالكونجرس إلى تقديم مشروع قـــانون يجرم هذه الاعتداءات العنصرية، بينما توالت الاعتداءات وتصاعدت إلى حد القتل وتلويث المساجد ونزع الحجاب عن الفتيات.

هـــناك اتجاه فى الغرب يدفع نحو صدام قادم بين العالم الإسلامى وبين الغرب، تبـــناه أيديولوجـــيا « صمويل هنتنجتون » فى كتابه « صدام الحضارات » وتغذيه دوائر صهيونية وبـــروتستانتية يمينية متعصبة، تؤمن بأساطير من الكتاب المقدس، مـــن معـــركة دموية حتى يهبط المسيح ثانيًا، ومن ضرورة قيام دولة إسرائيل حتى يتم ذلك، ويتناسون أن اليهود رفضوا المسيح عندما جاء، وأنه قال : مملكتى ليست فى هذا العالم، ولأن دعوته كانت للحب والزهد والسلام، ونبذ العنف والمادة. ولكن تتبنى بعض الدوائر السياسية تلك الأساطير بواعز من ضرورة وجود عدو، فإن لم يكـــن موجـــودًا فلنخـــتلقه أو نوجـــده، وللأسف، خلق الرئيس بوش الابن عداوات لأمـــريكا علـــى مستوى العالم كله فى ٨ شهوركانت أمريكا والعالم، وكان هو فى غنى عنها.

الصـــورة إذن قاتمة وموحشة : رواسب تاريخية لم يتم الاعتذار عنها، ولا يبدو

(*) ثبت أن شريط الـــفيديو ملفق، وأنه تم تصويره قبل أحداث ١١ سبتمبر !

فـي الأفق بوادر اعتذار، وصراع حضارى قائم على أرض فلسطين، يقف الغرب فيه منحازًا ضد الحق وضد حقوق الإنسان وضد قرارات الأمم المتحدة، وإصرار على ربط الإسلام كدين وعقيدة بالإرهاب، فكل مسلم أصبح إرهابيًا بالضرورة. والمستقبل يحمل عدة احتمالات : أرجحها أن ما حدث يوم الثلاثاء الرهيب، وقد خلط كل الأوراق بعنف بالغ القسوة، سيعيد ترتيبها من جديد، والأرجح أن الأداء الإسلامى الحالى شعبيًا ورسميًا سيعمل على إعادة رسم الصورة الصحيحة، لأن جماعات العنف المسلح التى انطلقت من بدايات متواضعة، كانت المخابرات المركزية الأمريكية فى أفغانستان هى الحاضنة والمرضعة لها.

أما الوقوف العالمى بحسم وقوة ضد العنف والإرهاب أيًا كان مصدره، فهو يتطلب حتى تتكون له مصداقية بين الشعوب الإسلامية :

وقف آلة العنف الصهيونية التى تذبح الشعب الفلسطينى ليل نهار ... تهدم منازله، وتصادر أراضيه، وتقتلع زراعته، وتقوض اقتصاده، ووقف العنف الحكومى المنهجى ضد الحركات الإسلامية والمفكرين والناشطين الإسلاميين، الذين يحاولون بشتى الطرق العمل من داخل الأنظمة السياسية، ومنع تأييد الحكومات الاستبدادية، وبدء صفحة جديدة فى العلاقات مع العالم الإسلامى كله، فى إطار هدف واضح، هو التعايش السلمى، واستراتيجية ثابتة هى حوار الحضارات والتفاعل فيما بينها لتحقيق التعاون وأن العالم يتسع لأكثر من أمة قوية تتعارف وتتعاون فيما بينها فى سلام على الخير، حيث يقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

والوقوف ضد الإرهاب يحتاج إلى تحديد واضح لمفهوم الإرهاب، كى لا يختلط بحقوق إنسانية أخرى، كالدفاع الشرعى عن النفس، ومقاومة الاحتلال ورد العدوان.

والوقوف ضد الإرهاب عالميًا يحتاج إلى آليات واضحة، فلا يعمل الجميع وفق أجندة أمريكية بحتة، بل أجندة عالمية تحدد من هو الإرهابى؟ وما هى الدول الراعية للإرهاب؟ وكيفية التعامل مع الإرهابيين؟ وطريقة محاكمتهم؟ ووفق أى قانون؟ وما هى العقوبات؟

هـذه الفرصـة قـد تضيع إذا اندفعت أمريكا فى سبيل الانتقام، وستفقد حينذاك التعاطف الإسلامى.

إننا لا نستطيع أن نغفل الأهداف الاستراتيـجـية لأمريكا فى غزو أفغانستان:

- تمـثـل أفغانستان لمن يسيطر عليها حرية حركة ومناورة واسعة النطاق، تطـول روسـيا والصين وإيران وشبه القارة الهندية، وهى بجوار مخزون الـنفط الاسـتراتيـجـى الهائل فى بحر قزوين، والذى يمثل رصيد العالم لنصف القرن القادم.
- بـاكسـتان والهـند تمـتلكان قنابل نووية، إيران متهمة بالسعى إلى ذلك، فضلا عن تطوير آلتها العسكرية بالتعاون مع روسيا.
- الصـين تمثـل التهديد المستقبلى لأمريكا والغرب بعد ربع قرن أو نصف قرن، وتنمو اقتصاديًا بصورة مطـردة. إذن فإن موطئ قدم فى أفغانستان يعتبر هدفا استراتيـجـيًا بالغ الأهمية لأى قوة تريد الهيمنة على العالم.

إن علاقـة أمـريكا والغـرب بالعالم الإسلامى فى المستقبل، ستحددها قضايا حالـّة وشائكة فى مقدمتها :

ـ وضع الجاليات المسلمة فى أمريكا والغرب وطريقة التعامل معها.

ـ الموقف الغربى والأمريكى من الاحتلال والعدوان الصهيونى المستمر.

ـ الدعم المستمر والدائم للحكومات المستبدة فى العالم الإسلامى.

ـ احترام حقوق الشعوب الإسلامية فى الحياة طبقـًا لإرادتها.

لقـد تسـارع تطور الأحداث، وعقب أحداث الثلاثاء الرهيب، سارعت جهات رسـمية أمريكـية باتهـام أسامة بن لادن، وبدأت تتسرب خطط لضرب أفغانستان وغـزوها مـع تسـليم مقاليد الحكم فيها للملك المخلوع ظاهر شاه فى غياب القائد المـيدانى القوى أحمد شاه مسعود، الذى كان يربط بين أطراف التحالف المعارض لحـركة طالبان، وليس ذلك فقط، بل إن التسريبات تتحدث عن ضربات أخرى لعدة دول مـن تلك التى وضعتها أمريكا فى السنوات السابقة على لائحة تسميها « الدول الراعـية للإرهـاب » مـنها الصومال واليمن والسودان والعراق، وقد تستمر هذه الضربات لمدة سنة كاملة.

وقد دعا ذلك الإخوان المسلمين إلى إصدار بيانهم الثانى الذى يحذرون فيه من إلصاق التهم الجاهزة بالمسلمين، وكذلك من أى عدوان على الأبرياء من العرب والمسلمين، وطالبوا الحكومات والشعوب العربية والإسلامية بالوقوف فى وجه أى عدوان، وذلك بالاعتصام بوحدتها وعقيدتها.

ما هو واجبنا الآن؟

إن التفاعل مع الأحداث يفرض نفسه على كل مسلم، وهو واجب شرعى عليه، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، والمسلمون جميعًا كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

وأول واجباتنا : هو الوقوف بجانب كل مسلم يتعرض للعدوان الغادر، وأن نمنع الظلم الذى يتعرض له المسلمون فى جميع أنحاء العالم، وأن يتم تشاور على كل المستويات لتحديد ما يمكن أن نفعله مثل :

ـ نشر الوعى بالأحداث مع متابعتها باستمرار فى المحيط حولنا.

ـ دعم المسلمين فى كل مكان وبلد يتعرض للعدوان، بما نستطيع.

ثانيًا : كف هؤلاء الظالمين لأنفسهم ـ الذين يعرضون المسلمين جميعًا لمخاطر، بتصريحات أو تصرفات هوجاء، وعنف أعمى ـ بالنصح والإرشاد والحوار والإقناع، وعدم تقديم تبريرات لأعمالهم أو الرضا عنها أو تقديم أى دعم لمثلهم.

ثالثًا : ألا يشغلنا الحدث الهائل عن واجباتنا الدائمة وسعينا الحثيث لإصلاح الأوضاع فى بلادنا بالرجوع للديمقراطية الحقيقة وليس الشكلية، ومقاومة التخلف والانحطاط، وإحياء القيم الإسلامية الرئيسية، ومنها : حرمة الدماء والأموال ـ الشورى ـ العدل ـ التكافل الاجتماعى ـ تأمين الحياة الكريمة والقضاء على الجهل والمرض والفقر، والنفاق والانتهازية.

رابعًا : أن نفكر فى رؤية : كيف نتغلب على أى مخطط ضد الإسلام والمسلمين؟

خامسًا : الدعوة لحوار الحضارات بدلا من صدام الحضارات.

* * *

(٢) الانعكاسات العربية للحملة الأمريكية

أ ــ القضايا الرئيسية

بــدأ الأمريكــيون يشعرون بعمق الكراهية ضد سياستهم الخارجية، خاصة فى الوطــن العــربى، وتوافــد مــندوبو الإعلام الأمريكى ورجال البحث والدراسات، لمخــتلف الأجهــزة، لقياس ردود فعل الرأى العام العربى والإسلامى حول حملتهم الحالــية ضد الإرهاب، وحول التحالفات القائمة، وحول مستقبل العلاقة بين أمريكا من جانب، والعالم الإسلامى من جانب آخر.

وقــد لقيــت خلال الشهر الماضى ما يزيد على ٤٠ مراسلاً وباحثــاً وكاتبًا، وكان هذا السؤال محوريًا، لماذا كل هذه الكراهية لأمريكا؟

وكانــت إجابــتى غالبًا تدور حول ٣ قضايا رئيسية حاكمة للعلاقة بين أمريكا وبين الأمة العربية والإسلامية وهى :

١ ــ القضــية الفلسطينية والانحياز الأمريكى الكامل للاحتلال والعدوان الصهيونى المستمر.

٢ ــ الحصــار الذى تفرضه أمريكا على دول عربية كثيرة تسميها الدول المارقة، خاصــة العــراق، الذى يتعرض شعبه لحملة إبادة منظمة للشعب، بينما يتمتع النظام الحاكم بالاستقرار والأمن، فضلا عن السودان (الذى رفع الحصار عنه أخيرًا) وليبيا وسوريا ولبنان.

٣ ــ إعاقــة الولايــات المــتحدة لمســار الديمقراطــية فى العالم العربى لحساب الدكتاتوريات القائمة.

ومــن الجديــر بالذكــر أنه يجب التفريق بين الموقف الشعبى، وبين الإدارة الأمريكــية الــتى تــتحكم بالسياسة الخارجية ولا تخضع إلا لضغوط الكونجرس واللوبيات التى من ألقواها اللوبى اليهودى، وأن الشعب الأمريكى عادة يصوت فى الانــتخابات حول القضايا الداخلية وأهمها الضرائب، وأن الجهل بالعالم الخارجى فى الثقافة الأمريكية واضح كل الوضوح.

وكنــت ــ ومــا زلــت ــ أدعــو مع بعض المراقبين إلى أهمية التحذير من استمرار وضع السياسة الخارجية الأمريكية بين يدى الإدارة والكونجرس فقط دون

رقابة شعبية، فقد اتفق الجميع على أن سبب التفجيرات هو سياسى بالأساس، موجه ضد السياسات الأمريكية الخارجية، سواء أكان الفاعل من الداخل الأمريكى أو من الخارج، وليس ضد الشعب الأمريكى نفسه، وذلك نظرًا للرمزية الشديدة فى الأهداف المضروبة : مركز التجارة العالمى، البنتاجون، البيت الأبيض، وتركزت الدعوة فى ضرورة قيام الشعب الأمريكى بمراقبة السياسة الخارجية الأمريكية، حيث بات يدفع ثمنها من دمه وحياته، أو ضرائبه وأمواله، أو أمنه واستقراره، أو حتى من حالته النفسية والمعنوية، **ولابد للشعب الأمريكى أن يسأل قادته : لماذا كل هذا الدعم لإسرائيل التى تجلب لنا كراهية العالم العربى والإسلامى؟**

وما هى الفوائد التى تعود علينا من التحالف مع هذا الكيان العنصرى؟

ولماذا يتحمل دافع الضرائب الأمريكية تكاليف ذلك؟

ولماذا نعادى العرب والمسلمين كل هذا العداء؟

ولماذا نفقد حلفاءنا فى المنطقة الإسلامية بوضعهم فى حرج شديد؟

وكيف يزعم أحد بأن إسرائيل ديمقراطية وهى تحكم أكثر من ثلاثة ملايين عربى بالإكراه؟

ولماذا تبقى قواتنا فى أماكن عديدة فى العالم دون رضا شعبى (على عكس ما يقول تشينى) وبالضغط ــ أو حتى بناء على طلب ــ حكومات لا تتمتع بمصداقية أو شرعية؟

وألا يمكن حماية مصالحنا الحيوية عن طريق التعاون مع الشعوب والحكومات بدلا من الاعتماد فقط على التعامل مع حكام يحكمون بصورة فردية مطلقة؟

ولقد تبنت بعض الأقلام الأمريكية هذا الاتجاه من منطلقات أخرى، لعل أهمها هو ممارسة الضغوط على المترددين من الحكام العرب للانضمام إلى التحالف دون تحفظات، أو دون طرح ما يشبه الشروط، وفى مقدمتها عدم توسيع دوائر الحرب لضرب دول عربية، أو السعى بجدية لحل القضية الفلسطينية.

وفى مقدمة هؤلاء الكاتب (الهندى الأصل والنشأة) فريد زكريا فى مجلة «نيوزويك» التى خصصت ملفها الرئيسى فى عدد ١٥ أكتوبر ٢٠٠١م (لماذا يكرهون أمريكا؟ احتل ١٨ صفحة).

وتـناول الملـف ٤ قضـايا هـي : الحكام، أفكار فاشلة، عامل الدين، العمل المطلوب.

وعـندما تحدث عن الحكام، ختم بقولـه « بحلول أواخر الثمانينيات، وفيما كان العـالم يشـاهد تصدع الأنظمة القديمة من موسكو إلى براغ وسول وجوهانسبرج، حوصـر العـرب تحت ظل الحكام الديكتاتوريين، وكشف الستار عن الأنظمة التى ربمـا كانـت ستبدو واعدة فى الستينيات، على أنها أنظمة حكم: مرهقة ــ تحظى بكراهـية عميقة على المستوى الشعبى ــ وغير شرعية بالمرة، ويجدر بالمرء أن يضيف أن العديد منها حليف مقرب لأمريكا ».

(٣) قراءة فى الأحداث

الموقف المصرى من أحداث أمريكا

بـدأ القلق يتسرب إلى دوائر الحكم فى مصر بسبب هجوم الصحافة الأمريكية علـى الحكومة المصرية، وظهر ذاك القلق فى تعليقات وردود الصحافة المصرية وكـتاب الأعمـدة ورؤسـاء تحرير الصحف، بل كان التوجيه الرئيسى على لسان الرئـيس مـبارك عـندما قـال : إننا لسنا ديكتاتوريين، إنما الديكتاتورية هناك فى إسرائيل.

ولعـل هذا التصريح الموجز يشكل مفتاحًا لفهم مواقف الأطراف المختلفة حول هـذه الأزمـة فـى العلاقات المصرية ــ الأمريكية ــ الإسرائيلية والتى تأتى فى توقيت حرج جدًا لكل الأطراف.

لقـد كـان موقـف مصر من أحداث الثلاثاء الرهيب فى نيويورك وواشنطن واضحًا، فالموقف الشعبى أدان الأحداث، وكان فى المقدمة « الإخوان المسلمون»، وتأخـرت أحزاب المعارضة فى إعلان مواقفها حتى حدثت التوابع، فانقلب الشارع المصرى كله ضد العدوان الأمريكى على الشعب الأفغانى واندلعت المظاهرات فى كـل الجامعـات، كمـا شـهدت الـنقابات المهنية عدة مؤتمرات، وكذلك تظاهر المواطنون فى صحن الجامع الأزهر.

أما الموقف الرسمى، وهو الذى يهمنا هنا فقد مر بمرحلتين :

الأولـى : حاسـمة وقاطعـة فـى إدانة الحدث والجريمة، والتذكير بأن مصر حـذرت من قبل من إيواء المتهمين بالإرهاب (خاصة من مصر) وإعلان أن أحد

أهم أسباب الإرهاب هو استمرار القضية الفلسطينية دون حل، وأن الإرهاب الإسرائيلى لا يقل عن أى إرهاب آخر إن لم يكن أشنع.

الثانية : بدأت تصريحات جديدة وكان محورها « إدانة الحدث البشع، وتأييد أمريكا فى كل إجراءاتها ضد الإرهاب وإعلان التعاون مع أمريكا باستثناء إرسال قوات للمشاركة فى القتال وتقديم التسهيلات العسكرية (ومنها المرور فى قناة السويس وقد حدث) واستمر الحديث حول الربط بين الإرهاب وبين عدم حل القضية الفلسطينية، كما بدأ حديث وتصريحات حول عدم قبول أى عدوان أمريكى ضد أى بلد عربى، ثم تسريبات حول حصول مصر على تأكيدات أن دولا عربية لن تضرب مع عدم ذكر العراق من بينها.

وهنا بدأ القصف الإعلامى الأمريكى ضد النظام المصرى وتركز على عدة محاور أهمها :

(١) ديكتاتورية النظام المصرى وفشله فى حل المشاكل الحياتية رغم الدعم الأمريكى، مما أدى إلى تفريخ الإرهاب (هناك مصريون يشكلون المرتبة الثالثة فى الـ ١٩ متهمًا فى الأحداث (حوالى ٦ أشخاص)).

(٢) أن النظام المصرى يستخدم نفس لغة أسامة بن لادن فى الربط بين الأحداث وبين القضية الفلسطينية، أو بمعنى أدق اتهام السياسة الأمريكية بالفشل، وأنها هى التى خلقت لها عداوات فى المنطقة العربية بسبب تحيزها الكامل والدائم لإسرائيل، وعدم قدرتها، أو بالأحرى رغبتها فى الضغط على إسرائيل وحكوماتها المتعاقبة.

(٣) ما جدوى الدعم الأمريكى المستمر للنظم، وفى مقدمتها النظام المصرى: سياسيًا وعسكريًا ومالـيًا، إذا لم ينجح ذلك الدعم فى تخفيف حدة الكراهية ضد أمريكا؟

وجاء القصف من كبريات الصحف والمجلات الأمريكية، وبأقلام كتاب بعضهم محسوب على اللوبى الصهيونى، والبعض الآخر ليس كذلك، فكانت المقالات والملفات فى «الواشنطن بوست»، «النيويورك تايمز» ومجلة «نيوزويك» التى أشرت ـ كما ذكرنا سابقًا ـ ملفًا خاصًا فى عدد ١٠/١٥ تحت عنوان «لماذا يكرهون أمريكا» حرره الكاتب الأمريكى، الهندى الأصل : «فريد زكريا» وشغل ١٨ صفحة فى الطبعة العربية، وكان تركيز الملف على فشل الحكام والأفكار.

وكذلك أضاف : «إذا ما كان هنالك من سبب كبير واحد لظهور الأصولية الإسلامية، فإن ذلك هو الفشل الكامل للمؤسسات السياسية فى العالم العربى» ويلخص إبراهيم نافع فى أهرام الجمعة (١٠/١٩) اتهامات الواشنطن بوست لمصر فى الموقف الأخير : «أنها تحتج بشدة على ربط تصريح الرئيس مبارك فى تأييده الإجراءات الأمريكية المضادة للإرهاب، وضرورة تسوية القضية الفلسطينية، كما نتحفظ على أن مصر قد تأخرت فى إعلان تأييدها الإجراءات التى اتخذتها الإدارة الأمريكية فى معركتها ضد الإرهاب، وتتهم نظام الحكم فى مصر بأنه نظام ديكتاتورى، بل إن الصحيفة تذهب بعيدًا، فتتهم مصر اتهامًا عجيبًا، هو أنها تؤيد ضمنيًا الموقف السياسى لأسامة بن لادن، فيما يتعلق بتبريره أعماله الإرهابية، بأنها تمثل ردًا على التحيز الأمريكى الصارخ لإسرائيل».

وجاء الرد على هذه الاتهامات سريعًا من الرئيس مبارك نفسه عندما أعلن أن الديكتاتورية الحقيقية هى ما تمارسه حكومة شارون فى فلسطين ضد العرب بقوله فى حواره مع مكرم محمد أحمد فى المصور (١٠/١٨) « كما أننا لا نعتدى على الآخرين، ولا نفتئت على حقوق الأقليات، ولا نهدم المنازل أو نقتلع الأشجار أو نجرف البيوت أو نقتل بالطائرات والمروحيات الأفراد الذين قد لا نحبهم دون محاكمة عادلة ».

• • •

الأزمة وحوار الثقافات

رؤية إنسانية

هبة رؤوف عزت

مدرس مساعد علوم سياسية
جامعة القاهرة

تمهيد

يشـــهد العالم مع القفزات التكنولوجية المتسارعة فى مجال المعلوماتية والإعلام نقلـــة نوعـــية فى التفكير وفى إدارة السياسة والاقتصاد والاجتماع، فالإنترنت ليس مجـــرد «شبكة اتصالية بينية» كما يدل الاسم، بل أضحى عالمًا موازيًا ومتشابكًا مع عالمـــنا ومساراته اليومية، ورغم سرعة التحولات فقد يكون المتغير الثابت هنا ـــ إذا كـــان هناك ما هو ثابت فى هذا التحول ـــ هو الوعى الإنسانى الذى يملك حتى الآن ـــ وحـــده ـــ تحديـــد الدور والغاية والطبيعة للحظة الإنترنت وأثرها، استقبالاً وتفاعلاً، ودوائرها: تأثيرًا وتأثرًا.

وقـــد أسهمت تحولات ثلاث فى استقرار هذا الشكل الجديد من «التشبيك» عبر الإنترنـــت، أولهـــا عولمة الاقتصاد والحاجة لإدارة اتصالية سهلة وفعالة لانتقالات رؤوس الأمـــوال فى النظام العالمى الرأسمالى النقدي/ المصرفى والتجاري، وثانيها تطور التقنيات الاتصالية بشكل سريع بل ومذهل، ثم أخيرًا تنامى ثقافة الفردية على المســـتوى الاجـــتماعي والحاجـــة لكفالة قنوات اتصالية تتيح للفرد الحصول على المعلومـــات وإقامـــة العلاقـــات ، وتكفـــل لـــه الخصوصية فى ذلك دون قيود من سلطات سياسية أو اجتماعية أو قطرية/ قومية.

وقـــد شـــغلت هذه التحولات العقل العربى ، فظهر العديد من الكتب المترجمة لتـــنقل رؤى العقـــل الغـــربى ورصـــده لأثـــر هـــذه التحولات على الحياة اليومية

والعلاقـــات والظواهر الاجتماعية، ناهيك عن علاقة هذه التحولات بتغيرات أوسع فـــي مجـــال العلم من هندسة وراثية والكيمياء الحيوية وبيولوجيا، والمشكلة أن هذه الكـــتابات ترصـــد التحول من منظور غربى ووفق نقاط الاهتمام الغربية، وتسيطر علـــيها الـــرؤية الوصـــفية دون تقويـــم اجتماعى أخلاقى للتحولات بحكم المنطلق الوضعى الـــبراجماتى للباحثين.

وتعـــد كـــتابات د. نبـــيل علـــى مـــن أهم الكتابات المتخصصة التى تحلل أثر الإنترنـــت علـــى ثقافتـــنا العربـــية بشكل تحليلى، وقد أفرد مساحة فى تحليله لأثر الإنترنـــت على الثقافة العربية ونظام المعتقدات والدين الإسلامى، لكن اهتمامه كان ينصـــب على التحليل الكلى ويركز على دور المؤسسات الرسمية والنخب الثقافية ومســـئوليتها دون تركـــيز على دور الفرد والجماعات الصغيرة النشطة فى المجال الإلكـــترونى فـــى المشـــاركة الإيجابـــية والمبادرة فى هذا المجال بدلاً من الاكتفاء بالشعور بالتهديد أو الدعوة للحاجة لاستراتيـــجيات كبرى للمواجهة.

ومـــن اللافت أن كتابات غربية هى التى اهتمت بشكل أكبر بأثر الإنترنت وما يخلقـــه مـــن مجالات إلكترونية تتم فى إطارها علاقات بين البشر ــ تتجاوز المكان وتخـــتزل المواقيت ــ على الوعى وإدراك الفرد لدوره و «تمكينه» ، لكن معظمها إما يحتفى بهذا التحول لأنه يعطى الفرد حرية أكبر من كل أنساق القيم السائدة ، أو يستشـــرف مغـــبة ذلك على فكرة «الذات الإنسانية» و«الجماعة الاجتماعية»، دون اهـــتمام كـــاف بالتنظـــير لتفعيل الفرد ودعم ممارسته لمسئوليته ودوره الأخلاقى والاجـــتماعى تجـــاه أمته والعالم، وكيف يمكن للإنترنت أن يدعم هذا الدور لخدمة قضايا العدل ونشر الوعى والخير ــ كفرد فى جماعة.

لقـــد اخـــترت لهـــذه المساهمة فى هذا الكتاب عنوان: «رؤية إنسانية»؛ لأننى أعـــرض تجربة شخصية مع تداعيات أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، حيث شاء القدر أن أكـــون فـــى قلـــب عاصفة المتابعة الإلكترونية الإعلامية لما جرى على ساحة الإنترنـــت من خلال مشاركتى فى موقع «خدمة الإسلام على الإنترنت/ إسلام أون لايـــن.نـــت ــ www.Islamonline.net » والـــذى ساهمت من خلاله منذ بداية الأزمـــة فى الرد على الرسائل التى انهالت على الموقع وتفاوتت،من رسائل كراهية

وعنصـــرية ضـــد المســـلمين، لرسائل تستفسر عن الإسلام أو قضايا إسلامية، إلى رسائل دعم ومساندة من غير مسلمين.

عالم الإنترنت عالم الناس

مـــن الإشراف على قسم «مفاهيم ومصطلحات» والتطوير الفكرى للموقع، وهو مـــا يتفق مع اهتماماتى الأكاديمية والبحثية، ومع إعلان حالة الطوارئ لتزايد حجم الإقـــبال على الموقع بعد ١١ سبتمبر ضمن حالة عامة من الاهتمام بالإسلام، بدأت فـــى المساعدة فى الرد على الرسائل، ولأن الموقع الذى تم إنشاؤه وبدأ البث أكتوبر ١٩٩٩ مـــن جانـــب هيئة تأسيسية تضم علماء ومفكرين من شتى أنحاء العالم، قد حظـــى بسمعة ومكانة ومصداقية عبر أدائه فى تقديم رؤى إسلامية وثقافية فى شتى مـــناحى الحـــياة أهلـــته لعـــدة جوائز، فقد شهد الموقع إقبالاً من جمهور واسع من الباحثيـــن عن المعلومة الإسلامية والخبر الصادق وموقف الشرع من الأحداث، كما تلقـــى تساؤلات عن الإسلام وقضاياه من جمهور راسلنا باللغة الإنجليزية، وتوليت مـــن القاهـــرة الرد عليها، بجانب أستاذ أديان مقارنة من مكتب قطر، وباحث شاب من مكتب واشنطن.

أذهلـــنا فـــى البداية حجم الزيارة للموقع، فقد بلغ قبل الحادى عشر من سبتمبر ٨٠٠ ألف زيارة تصفح لأقسام الموقع المختلفة يوميا، وقفزت بعد الحادث إلى ١,٤ ملـــيون ثـــم بلغـــت فى بعض الأيام ٢ مليون زيارة، ليصل الإجمالى الشهرى فى أواخر سبتمبر إلى ٤٤ مليوناً، ويبلغ فى أواخر أكتوبر ٥٢ مليوناً ويقترب مع نهاية نوفمبر من الـــ ٦٠ مليوناً.

ويمكـــن لـــبرنامج الرصد الإحصائى أن يدلنا على الزيارات من مناطق العالم المخـــتلفة التى جاءت الزيارات منها ، وتدل المؤشرات على أن الزيارة من أمريكا الشمالية زادت بشكل ملحوظ.

لـــيس كل من زار الموقع للتصفح أرسل رسالة، لكن الرسائل زاد أيضًا معدلها باللغـــة الإنجليزية، مما دفع الإدارة بالقاهرة لتكليفى بالرد، وأعترف أننى فى البداية كنـــت أظـــن هـــذا عمـــلاً إجرائيًا تختص به السكرتارية، ولكننى استجبت شعورًا

بالمسئولية ولرغبتي في متابعة رؤى الآخرين لما يحدث، لكنني أدركت بعد عدة أيام أن هذه الساحة هي من أهم ساحات التفاعل التي تمت أثناء الأزمة، والتي لا تشير لها عناوين الأخبار ولا تقارير الحكومات وأجهزة الإعلام.

رسائل الكراهية بلغت في بداية سبتمبر ٢٠% ، ولمتلأت بالسباب القبيح للمسلمين، ومن علامات الاستفهام التي ما زالت بلا إجابة، هي كيف انصرف البعض عن متابعة الحدث إعلاميًا مباشرة ليرسل لنا رسائل سباب قبيح بعد الحدث بساعات قلائل، لكننا قررنا أن نرد على كل رسالة، فكان أن كتبنا «ندرك الغضب ونتفهم الارتباك ونتمنى أن نتواصلوا معنا حين تستبين الرؤية وتتضح الأمور»، ومع الأيام قلت نسبة هذه الرسائل لتهبط إلى أقل من ٥% مع نهاية ديسمبر، ويرسلها أصحابها بعناوين مزورة.

على الجانب الآخر، كانت هناك خطابات دعم ومساندة يقول أصحابها: إنهم يعرفون أن الإسلام دين تسامح وعدل، وأنهم لا يأخذون أمة بجريرة أفراد، ويقدمون مساندتهم المعنوية للمسلمين ضد حملات الكراهية والعنصرية.

أما الغالبية العظمى من الرسائل، فقد كانت تساؤلات عن الإسلام وموقفه من القضايا المختلفة، أو تساؤلات عن آفاق التسوية السلمية في فلسطين، أو استطلاعًا لموقف المسلمين من الأحداث. وقد مثلت الإجابات بابًا للتواصل مع هذه الغالبية من السائلين، وعادة ما كان يأتي رد موافق أو مخالف ليستمر الحوار لفترة ثم نصل لمساحة محايدة تقل فيها بدرجة كبيرة اختلافات الرؤى، رغم استمرار النظر للأمور من منظارين حضاريين مختلفين.

ما زلت أذكر رسائلي المتبادلة مع جون، والذي يرسل تحيات وتهاني الأعياد من حين لآخر ، وهو أمريكي قاتل في فيتنام وأرسل في البداية يسأل عن موقفنا من بن لادن، ثم بدأنا حواراً حول السياسة الأمريكية الخارجية لأجده أشد حدة في نقدها، وما زلت أحفظ كلمات إحدى رسائله التي كتب فيها:

«هذه الحرب ليست ضد الإسلام، إنها ضد التعساء، إننا لم نغضب لأننا هوجمنا في ديارنا، بل لأن الذي ضرب البرجين من التعساء، لذا كان لزاماً أن

نذهب ونؤدبهم. لقد حاربت فى فيتنام وكان كل الجنود معى من ولايات فقيرة وأسر متواضعة، فوقود الحروب الأمريكية هم تعساء أمريكا أيضًا.

رغم الغضب والإدانة، أفهم الآن لماذا يريد البعض قتل الأبرياء، فلو كنت عراقيًا من بغداد قصفت الصواريخ الأمريكية دارى وقتلت ابنى وزوجتى ودمرت مدينتى لتحولت إلى قنبلة بشرية..».

أما جريتشن فقد كتبت: «لماذا لا تتم التسوية للقضية الفلسطينية بعيدًا عن «الحقوق التاريخية للشعب الفلسطينى» ويحصل الفلسطينيون على تعويض مناسب للعيش فى سلام؟».

كان ردى أن الأرض لها لدى الطرفين مكانة دينية، أما الحق التاريخى للفلسطينيين فلا يسقط ولا يتقادم، ولو سلمنا لكل مغتصب وقبلنا «الأمر الواقع» لانتفت كل معانى العدل.

جاكى بدأت رسائلها بتساؤلات تحمل تحفظًا واضحًا ولا تنم عن ثقافة واسعة، ومع تبادل الرسائل زاد اهتمامها وبدأت بمطالعة الإنترنت وأخبار الحرب فى أفغانستان، ورغم أننا كنا نختلف جوهريًا فى رؤانا فقد استمرت المراسلات وتبادلنا المقالات وعناوين المواقع المهمة، وأيضًا أخبار الأولاد وما نشترك فيه من حب للطبيعة وللسفر، وصارحتها بملاحظتى لتطور اهتماماتها العامة حتى صارت تحاورنى فى مشكلة جنوب السودان ورؤيتها للسياسة الاستيطانية، ونتابع معًا كتابات روبرت فيسك ونتناقش بشأنها.

لم يخل الأمر من صدامات حادة، «بيث» أرسلت تستهزئ من الأخبار على الموقع وكيف أنها غير صادقة خاصة أخبار قصف المدنيين فى أفغانستان وقالت غاضبة: «كيف تلمحون مجرد التلميح إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكنها أن تقدم على قصف مدنيين؟ هذه سخافة!».

وكان ردى: «عفوًا..هل نحن نتحدث عن الولايات المتحدة ذاتها التى أبادت الهنود الحمر واستعبدت الأفارقة السود وكان لكل رئيس فيها حرب فى مكان ما، وما زال عدد من قتلتم فى فيتنام غير معلوم بخلاف الإحصاءات المتوفرة عن آثار هيروشيما؟ يا سيدتى أنتم تقتلون الأبرياء منذ نشأة دولتكم!».

ردت بغضب: «إذا كان هذا الوطن لا يعجبكم فارحلوا!»

أجبــت: «مــن حيل الإنترنت أنه خارج المكان، فلا يدل على مصدر الرسالة بالضــرورة، أنا يا سيدتى لا أعيش فى أمريكا ، ولا أطمح للاستقرار بها، وأفتخر بهويتى وأعشق وطنى ـ شكرًا»..

واعتذرت «بيث».

الـبعض أيضاً توقف بعد فترة، فقال كلارك فى أحد رسائله: «هذا يكفى .. أنا لا أريد أن أتلقى منكم رسائل ثانية!».

كتبت لــه: «نحترم قرارك ويسعدنا أنك راسلتنا لفترة ونتمنى لك كل الخير ـ سلام عليك».

بعدهــا بشــهر عــاد مستأذنًا فى التواصل من جديد، ولقى ترحابًا صادقًا جعله يكتب: «لم أتوقع كل هذه الحفاوة، أنتم أناس كرام ويسعدنى أن أكون على صلة بكم وأنتم فى صلواتى».

القصــص كثيرة ولكن هذه مجرد أمثلة..تعلمت منها طبيعة البشر وحدود وقيود ثقافة الإنسان وآفاق التعارف والحوار..وجدواه.

ولســت هنا أرسم صورة وردية أو أقول: إن الرسائل تحل الأزمات، ففى يوم إتمــام كــتابة هــذه السطور، نشر هنتنجتون مجدداً فى العدد الأول للنيوزويك لعام ٢٠٠٢ مقــالاً يتهم المسلمين بأنهم أكثر أهل الأرض الآن خوضًا للحروب (هكذا)، ولا أنفــى من خلال كلامى أن هناك تدافعًا بين الأمم وأن القوى الرأسمالية تخوض استعمارًا جديدًا ومتجددًا للحصول على ثرواتنا، لكننى أقول: إن هناك أوجها أخرى للعلاقــات الدولــية، أوجها أكثر إنسانية على المستوى الفردى والإنساني، وأن هذه البنــية التحتــية مؤثــرة إذا استثمرنا فيها الجهد والوقت، والدليل على ذلك مؤتمر دوربــان ضد العنصرية الذى انعقد فى جنوب أفريقيا وأدانت فيه القوى المناهضة للعولمة الصهيونية كأيديولوجية عنصرية.

المراســلات لــم تكن أبداً تمضية وقت أو محض رد إجرائى، بل اكتشفت من خلالهــا عناصــر نشيطة مهمة وشخصيات فاعلة وترتب عليها تنسيق وتشبيك بين فاعلين.

أرسلت لنا امرأة أمريكية بعد الحادث بأسابيع قليلة تقول: إنها قررت ارتداء الحجاب هي ومجموعة من صديقاتها غير المسلمات لإظهار التضامن مع المرأة المسلمة الأمريكية تحت شعار «كلنا تحت الحجاب..نساء»، وأثناء تجوالي بين المواقع على الإنترنت، وجدت مجموعة أخرى ترتب حملة مشابهة، فدللت الأولى عليهن ــ ولم تكن تعلم بنشاطهن الموازى ــ ليتم التنسيق بينهن لحملة أوسع.

زوجان أمريكيان أرسلا لي لفترة رسائل منتظمة ودار بيننا حوار شابته خلافات في وجهات النظر، لكنني لمست فيهما الإخلاص، فدللتهما على حركة التسلح الخلقي في بريطانيا والتي تهتم بالحوارات بين الناشطين من خلفيات دينية مختلفة ولها موقف داعم لنضال الشعب الفلسطيني؛ لأنني أدركت أنهما قد يقرران التوقف عن الكتابة مع الوقت، وأردت ألا يفقدا الانشغال بمتابعة ما يجرى في العالم حتى وإن لم يكن ذلك في حوار مع مسلمين.

ولعل هذه النقطة تنقلنى إلى مناقشة إدراكنا لدور الإنترنت في خدمة قضايا العرب والمسلمين.

«لتتعارفوا»: هل يمكن «تحسين الصورة» ؟

غالبية ما كتب حتى الآن حول دور المسلمين بعد الأزمة يدور حول أمور كبرى مثل صراع الحضارات أو تحاوره، الغرب والإسلام تصادمًا أو توافقًا والتركيز كان على فعل الدول أو المؤسسات أو النخب أو أجهزة الإعلام، لكن الخبرة الذاتية في هذا المجال في قلب تداعيات مشهد الحادى عشر من سبتمبر لفتت نظرى إلى دور الأفراد والجهود الجماعية غير المؤسسية وغير المؤطرة، جهود البشر في حوار الثقافات وحوار الحضارات على شبكة الإنترنت في ما يسمى بالمجال الافتراضي أو المتخيل ــ The Virtual Reality .

الأزمة بلا شك كشفت عن جوانب تناقض بيننا وبين الغرب وبينت أن هناك تيارات حريصة على استمرار صراع الحضارات من الجانبين.

ولن أسهب في نقد الغرب ولا تحليل تصريحات زعمائه ولا التنديد بانتكاسة الحقوق المدنية وحقوق الإنسان في التعامل مع من يسمون بالـ «متهمين»، لكنني

سأركز على تقصيرنا نحن، وتقاعسنا عن تقديم حضارتنا للعالم وللدفاع عن حقوقنا ومخاطبة العالمين برسالتنا الحضارية.

لدينا نحن أيضاً مشكلات لم تؤد الأزمة إلاّ إلى رفع الستار عنها فى تقديم تصوراتنا للعالم وتفاعلنا معه، وعلينا أن نضع أيدينا على مواطن الضعف والقصور لنتعلم من المحن، ونعيد اكتشاف مقومات قوة نسيجنا الحضارى وكيف يمكن توظيف هذه النقلة التاريخية النوعية فى مجال المعلوماتية فى مساعى النهضة والتجديد الحضارى؟.

لقد أعادت الأزمة طرح أسئلة العلاقة بين الإسلام والغرب، لكننى أريد أن أوسع السؤال ليشمل العلاقة بين المسلمين والعالم، هذا العالم الذى يبدو أحياناً وكأننا لا ندركه إلا فى محيطه الغربى فلا نفكر كيف تتم تعبئة جهود أهل «الجنوب» بقومياتهم ومللهم فى معسكر يدافع عن العدل يكون للإسلام فيه ريادة، ليس كعقيدة وحسب، بل وكمنهج حياة لمن لا يختار اعتناق العقيدة، وهى فكرة قدمها فى كتاباته المفكر الأمريكى المسلم «على مزروعى» وهو أصلاً من كينيا، وتساءل لماذا لا نقدم الإسلام للعالم عقيدة ومنهج حياة، فإن لم يقبل الناس العقيدة وجدوا ضالتهم فى منهج الحياة الطيبة مثلما نشرت الحضارة الغربية منهج معاشها بين الأمم فى الملبس والمأكل والمشرب والأثاث والذوق العام وطبيعة العلاقات بين الناس دون أن تلزمهم بالضرورة بتغيير معتقداتهم، فحققت قبولاً ونفوذاً وهيمنة.

جاء الإسلام كرسالة للعالمين، لكنه فى الوقت ذاته يخاطب بشراً فى محيطهم المكانى والزماني، و«الحكمة» البالغة فى الدعوة تكمن فى قدرة أى رسالة دعوية على تحديد درجة العالمية ودرجة المحلية فى تلك الرسالة والموضوع الذى تتم الدعوة عبره ومداخل تقديمه للناس، وهنا نميز بين ثلاث مستويات للرسالة الإسلامية:

١- مستوى الشهادة: وهو أن يقيم المسلمون الدين فى أنفسهم وحياتهم فيقيمون بذلك الحجّة على الناس بنموذج مجتمعهم ومعاشهم وعلاقاتهم مع الشعوب والأمم، وهو ما يقترن بالخبرة الحضارية من اجتماع وسياسة واقتصاد وفنون، وهنا يصبح

إبـــراز إنجازات الحضارة الإسلامية كنتاج لعقيدة التوحيد هدفًا مهمًا من أجل نشر مـــنهج الإسلام كمنهج نافع للحياة وطريقة طيبة للعيش ورؤية للعدل نسعى لتقديمها للناس، أى كيف يسهم الإسلام بشكل متميز ومتفرد فى الحضارة الإنسانية.

٢- مســـتوى الـــبلاغ والتذكير: وهو المستوى الذى تقوم فيه الرسالة الإسلامية الاتصـــالية بتوجـــيه الخطاب للغير تعريفًا بنفسها بشكل مباشر لتتحدث عن رؤاها و«تبيـــن لهم» موقفها من قضايا العدل ونشر السلم بين الناس كافة واحترام الشورى وحفظ كرامة النساء وكفالة حقوق الأقليات الدينية واحترام الخصوصية والضمانات القضـــائية وغيرها من القضايا التى للإسلام فيها موقف متميز فى مجالات السياسة والقـــانون والترتيبات الاجتماعية والآداب والأخلاق، وهى مساحة التعاون على البر والـــتقوى و«التعارف» بمعناه المركب الواسع، وهو الموقف الذى يجب أن يتحول لبرامج وخطط عمل للتغيير ولا يبقى موقفاً لفظياً وحسب.

٣- مســـتوى الدعـــوة والمجادلـــة: وهـــو مستوى مجادلة أهل العقائد المخالفة والســـعى المنظم لدعوتهم للإسلام بالحسنى والإقناع، وهو من أكثر مجالات اهتمام الدعـــوة الإســـلامية المعاصرة رغم أنه فى مجال ترتيب الأولويات يأتى فى مرتبة تالية للتعارف والشهادة، بل ونزعم أنه لا يتحقق إلا بهما، فكيف نجادل لنقنع الناس بـــنموذج حضارى عجز أهله أن يجعلوا له الصدارة والهيمنة على ما عداه من كتب ومناهج حياة، ودولهم من أكثر الدول فقرًا وتخلفًا وانقسامًا؟.

مـــن هـــنا فإن رسالتنا الإعلامية ــ وخاصة على الإنترنت ــ يجب أن تعطى مســـاحة واســـعة للشـــهادة والتعارف عبر حدود العقائد والشعوب والقبائل من أجل تحســـين أوضـــاع العـــالم وأمـــه فى مجالات الأزمة الأخلاقية والجمالية والبيئية وقضـــايا الفنون والآداب وترقيتها، أى للمجالات المتاحة للتغيير الفردى والجماعى بـــالوعى والتنسيق والتشبيك عبر الإنترنت كوسيلة اتصال وربط تؤتى أكلها بدرجة كبـــيرة مـــن مســـارات كـــبرى لقضـــايا مـــتأزمة هيكليًا على الأصعدة السياسية والاقتصادية الدولية والحكومية.

واقـــع تواصـــلنا مـــع العالم بملايين الرسائل يوميًا، لم يتم ترشيده ليقدم للناس رسالة حضارية، وفى هذه الأزمة حاول مئات الألوف من شباب العرب والمسلمين

فـــى غـــرف الدردشـــة وعـــبر تبادل الرسائل الفردية والجماعية وتداول المقالات المنصـــفة على الإنترنت، أقول حاولوا أن يقوموا بتصحيح الصورة، وأزعم أن هذا كـــان أكـــثر نجاحًـــا من مؤسسات إعلامية بلا رؤية أو أجهزة رسمية بلا سلطة، والمطلـــوب هـــو المواصلة وطول النفس فى هذا المضمار وإبراز أهميته حتى لا يأخذه الناس مأخذًا هينًا وهو ــ والله ــ عظيم.

ولـــم يكن مبالغة أن وصف الدكتور يوسف القرضاوى توظيف شبكة الإنترنت بأنـــه «جهـــاد العصـــر» لأنه يحمل آفاق اتصال وتواصل وتشبيك وتعاون لصالح الأمة.

فـــى مـــراحل تاريخـــية ســـابقة كانت الحدود تفصل بين بلاد المسلمين والبلاد الأخرى، وكانت التحديات الفكرية والحضارية من شواغل نخبة محدودة ، فى حين كـــان الشـــارع الإسلامى يعيش حياة متجانسة لا تخلو من الجدل والاختلاف الذى يشـــهده أى مجـــتمع إنسانى، لكن العالم صار الآن: أون لاين، غرف الشات تجمع العربى مع الإسرائيلى، والفتى مع الفتاة، والمسلم بأتباع شتى الملل والمذاهب، وهو تحد لكنه أيضًا مجال فعالية ومبادرة هائل.

وإذا كـــان الإســـلام رحـــبًا متسعًا يتيح نهج مسارات مختلفة على سبيل الحق وصـــراط التوحـــيد ويســـمح بالاجتهاد ولا يصادر التفكير، فإنه لم يكن فى حاجة لـــتطوير خصائصه العالمية وتقوية حصونه من الداخل مثلما هو الآن، دعمًا للفكر الرصين والاختيار الواعى المسئول، وصياغة للعقل المتفاعل مع العالم الذى يسعى لمخاطبة العالمين بلسان مبين، وبكل اللغات، تعارفًا وبلاغًا.

إن تطويـــر آلـــيات يومية معاشية للاجتهاد وتزويد الناس بمفاتيح الفهم لقواعد العلاقـــة بين الثابت والمتغير، وكيفية تنزيل الأحكام فى الزمان والمكان، ثم التعاون على صياغة رؤية للمتغيرات برأى رشيد فى مواقف مستجدة،ومتواصلة مع العالم، والمشـــاركة فى قضايا وهموم الإنسانية المشتركة، والمعرفة بالعدو ولغته والرؤى المغايـــرة وتضاريسها والتفاعل معها بثقة وعزة، واستشراف التحديات، والنظر فى مواطـــن الفتن ومعرفة خصائص العصر المستجدة والتعامل معها بحكمة ورشد هو بحق: واجب العصر.

والـــنظر للإنترنـــت كمجال وقناة وفرصة لا يمنعنا من أن ندرك خطورة أن

يعتبر البعض الإنترنت بديلاً عن الواقع الحقيقى الذى نعيشه، فيفروا إليه ويولوا الأدبار عن استراتيجيات التغيير فى الواقع نحو عدل فى المال وشورى فى الأمر، أو يستبدل الفرد العلاقات الإنسانية والتواصل البشرى بالعلاقة الافتراضية، فتسقط فى عقله الفوارق بين الواقع والوهم، وقد يدمن ذلك فيفقد مع الوقت القدرة على التفاعل الإنسانى فى العلاقة الزوجية أو الأسرية أو فى مجالات الصداقة والتعامل مع المحيط الاجتماعى، وتنهار قواعد الهوية وتتلاشى المسئولية الاجتماعية، ويسقط الفرد فى التمحور حول ذاته بل ويدمن هذا الهروب من الواقع والشعور بالمسئولية تجاه الإصلاح والتغيير وما تلبث أن تصبح مفاهيم الأخلاق والانتماء مفاهيم نسبية مطاطة؛ ليتحول لإنسان مسخ يؤمن بالعدمية.

فما نقصده هو تكريس علاقة الإنترنت بعالم الواقع، والتعامل بحذر مع الهويات الإنترنتية الموهومة، وبيان حلال الإنترنت وحرامه، وأثر الصورة على الوعي، وتحجيم هيمنة الآلة على العقل حتى لا يتحول الإنترنت من وسيلة للانعتاق ندعو لتوظيفها بقوة بالمعرفة وللتواصل مع أطراف الأمة وبقاع العالم إلى سجن للعقل وهدر للزمن ومصادرة للفاعلية الحقيقية التى تنفع المجتمع وتطوره وتنهض به.

فالأصل هو الإصلاح ونفع الناس رغم كل الاختلافات، والسعى هو للتوحد من أجل صالح البشرية والغاية هى إقرار العدل والكرامة لبنى الإنسان كافة، فلا يجب أن تغيب هذه القيمة الكبرى عن الأذهان فى كل رسالة إعلامية فى أى مجال، فرؤيتنا ليست صراعية بل توحيدية تدرك حكمة التدافع لكنها لا تقف فى مواجهة العالم بأسره أو تخلق عداوات متوهمة مع العالمين.

وهنا نؤكد على المجادلة بالتى هى أحسن، وانتقاء الكلم الطيب؛ لأن الغاية هى تحسين أوضاع العالم وأممه فى مجالات الأزمة السياسية والاقتصادية الأخلاقية والجمالية والبيئية وقضايا الفنون والآداب وترقيتها، أى المجالات المتاحة للتغيير الفردى والجماعى عبر الإنترنت كوسيلة اتصال وربط على الأصعدة الدولية والمحلية، وعبر هذا وحده تتحسن صورة الإسلام ويسفر وجهه الحضارى.

لا بد من التأكيد على قبول التعددية واحترام التنوع، وتقديم رؤى إسلامية فى عالم متشابك يعانى من الانقسام، ونحاول تقديم ما يقف على أرضية الإسلام

ويـنطلق مـنه كمرجعـية دون مصادرة على الرأى أو هجوم على المخالف دون تحزب أو عصبية ودعمًا لتنوع البناء كسبيل للتجديد والنهضة.

قبل الختام

لقـد كـان الشيخ محمد الغزالى ــ رحمه الله ــ يقول دومًا: «نحن نراهن على الفطـرة»، وكـان يدعو لأن نفتح عقولنا وقلوبنا بإخلاص للآخرين وننتظر الغيث، وأن نمشى على قدم رسول الله لينًا ورحمة وليس ضعفاً واستكانة.

ولـم تحمـل لـى أحداث الحادى عشر من سبتمبر فقط خبرة الإنترنت كساحة حـوار ثقافى، بل أتيحت لى المشاركة فى ندوات أكاديمية جمعتنى بباحثين وساسة مـن الغـرب، وأن أشـارك فـى حوارات مسيحية ــ إسلامية مع شتى الطوائف المسـيحية، وأن أسـتمع فـى جلسات ضيقة لديـبلوماسيين غربيين يتحدثون عن رؤيـتهم لـنا وتفـاعلهم مع قضايانا، والخبرة التى خرجت بها من كل هذه الدوائر المـتقاطعة والمتشـابكة، هـو أن النهضـة لا تنبـنى على أساس واحد بل أسس متضـافرة، وأن الغـرب لا يمكن محاورته على مسار وحيد بل مسارات متوازية، وأن الـرهان علـى الفطرة هو رهان على الأفراد الذين لو تغيرت رؤاهم سعوا هم لتغيـير واقعهـم وعلاقات حضاراتهم بغيرها من الحضارات، وأن علينا أن نبحث عـن ذوى الفطرة والبصيرة ونتواصل ونتعاون على الخير والعدل، ونواصل الجهد ولا نملّ.

كاثريـن بـارون شابة بريطانية تقف كل أسبوع بلوحة كبيرة تكتب عليها أرقام وإحصاءات الحرب فى أفغانستان، وتبين عدد القتلى من المدنيين وعدد القرى التى تم تدميرها والمنازل التى هدمت.

كاثريـن تقف وحدها بمفردها كل أسبوع، يتجمع حولها المارة ويتناقشون معها، تدفـع قيمة اللوحة ومتابعة وتجديد بياناتها كل أسبوع من جيبها. فى يوم آخر تقف كاثريـن أسبوعيًا أيضًا بهذه اللوحة أمام مقر رئيس الوزراء البريطانى محتجة على مشاركة دولتها فى الحرب مع أمريكا.

مـارك هيرون أستاذ جامعى بريطانى مناصر للديمقراطية لديه على الإنترنت

موقـــع بـــه أرقـــام تفصيلية للخسائر البشرية الأفغانية ومسار الحرب يومًا بيوم من مصـــادر إعلامـــية مخـــتلفة يكتبها ويقوم بتحديث الصفحة أولاً بأول حتى صارت مرجعًا موثوقًا به فى الموضوع.

هـــؤلاء الأفـــراد لا تحركهم قوى غامضة، ولا يدفع المسلمون لهم أموالاً طائلة ليقفوا ضد حكوماتهم وسياساتها، بل لديهم فطرة وبصيرة، وإخلاص.

أنـــا موقنة أن هناك الملايين من هذه النماذج، وتكرر فى الرسائل التى وصلتنى عبارة: «أنا أمريكى لكننى لا أؤيد سياسة بلدى الخارجية وأعرف الكثيرين مثلى لا يؤيدونها، لكننى لا أدرى لماذا لا تعكس سياساتنا الخارجية هذه الرؤى!».

فـــى قلـــب الأحـــداث والأزمة، زاد إقبال الناس على الدخول فى الإسلام ثلاثة أضعاف فى أمريكا ونفدت كتب التعريف بالإسلام، ولكتظت مساجد الغرب بالزوار الذيـــن جاءوا ليشاركوا المسلمين صلواتهم، وتضاعف الإقبال على مواد الدراسات الإســـلامية فى الجامعات الغربية، ودخل فى الإسلام سفير إيطاليا بالرياض وممثل أمريكى شهير.

مســـارات الـــتاريخ متشابكة، ومختلفة أحيانًا، لكن الذى يصوغها فى النهاية هم البشر، أفرادًا وجماعات، وأشد ساعات الليل حلكة هى تلك التى تسبق الفجر.

والله أعلم

• • •

١١ سبتمبر الإنصاف والإجحاف

محمد صادق الحسيني ــ طهران

إن واقعـــة ١١ سبتمبر لم تحصل فى غفلة من الزمن. بل إنها جاءت فى سياق متوقع لتداعيات عولمة أمريكية متوحشة، كانت ولا تزال تتصاعد بصورة جنونية. لكن ذلك لا يعنى أبدًا أنها قد قسمت العالم فعلاً إلى فسطاطين كما زعم «بن لادن» ويمارس جورج بوش يوميًا.

إن ظلـــم الأمريكييـــن الفـــاحش، وظلامـــية الطالبان القاتمة لا يمثلان سوى الصـــورة الأبشـــع للعنف والعنف الآخر. ولا يمكن لهما أن يمثلا خلاصًا للأمم أو منهاجًا يقتدى به فى إدارة شئون البلدان والعباد.

الإنصـــاف يقـــول بـــأن السنن الكونية تحكمنا بتعددية قراءة الظواهر وتعددية مـــناهج التعامل مع الأحداث. وأن طرق الوصول إلى الحقائق بعدد أنفاس الخلائق. ولذلـــك فـــإن القـــراءة الأحاديـــة للعـــالم سواء من خلال منهاج الإملاء والسيطرة العســـكرية وتحكـــم القطب الواحد بالعالم، أو من خلال فرض مرجعية وحيدة تكفر وتفسق ماعدا هذا، إنما هى طرائق تتسم بالحروب والأحقاد والضغائن.

ما حصل فى ١١ سبتمبر محاولة فجة مبتورة وفجيعة من الضحية للرد على الجلاد بأسلوب مردود عليه كارثى المعالم لا يخدم قضية الضحية العادلة. وما أفرزته وقائع سبتمبر من ردود فعل همجية وعصبية متعجلة، ليس سوى تكريس لمنهج الاستعلاء والهيمنة والغطرسة وعبادة الأنا. وهى التعبير والمصداق الشفاف للآية الكريمة:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أمريكا التى أطلقت لجيوشها العنان لتفعل ما تشاء فى أفغانستان، إنما قامت فى الواقـــع بـــإطلاق رصاصـــة الرحمة على مدرسة الاعتدال فى الإسلام على المدى

البعيد، وليس بمكافحة الإرهاب كما تتوهم وتظن. والسنون القادمة ستكون علامات فارقة فى منعطف التاريخ.

العالم بعد ١١ سبتمبر ليس هو العالم نفسه قبل ١١ سبتمبر.

هـذا صحيح ــ مع أن أمريكا كانت تتحكم فى العالم قبل ١١ سبتمبر ولا تزال مـن بعده ــ لكن لأنها قبل ١١ سبتمبر كانت تخطط للإطباق على مصادر الثروة فـى العالم عبر السيطرة على منابع الطاقة فى الخليج، وبعد ١١ سبتمبر أرسلت جـنودها إلـى بـلاد الأفغـان، حيث عقدة الاتصال بين مفاصل القوى الإقليمية والدولية الصاعدة ومفتاح التوازن الاستراتيـجـى فى العالم الجديد؛ لتخيم وسط أخطـر كتل النهوض الصاعدة فى العالم: المليار مسلم والمليار هندوسى والمليار صـينى، كمـا أرسـلت جيوشها إلى هناك لتأمين السيطرة المباشرة على منابع الطاقة فى آسيا الوسطى والقوقاز فى مرحلة لاحقة.

العـرب والمسـلمون من جهتهم أكثر الأمم والشعوب تعرضًا للنار الأمريكية. وهم الآن فى حيرة من أمرهم وفى ضعف شديد.

المطلـوب مـراجعة تاريخية جادة لذواتنا نخلص منها إلى قراءة متوازنة لديننا وعقيدتـنا تظهـر صـورة إسلامنا الحقيقية كما هى. إسلام حقيقى صاحب شريعة سمحة سهلة إبراهيمية كما وصفها القرآن الكريم، وليس كما سيَّسها وأدلجها أرباب الفكر والسياسة السلطويين.

وفى رؤيتنا للعالم، لابد أن نأخذ بحديث رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ القائل: «اللهم أرنى الأشياء كما هى، ثم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه، وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه».

الاعتصـام وحـده بهـذا المـنهج القرآنى، يستطيع أن يتغلب على الإجحاف الجارى بحقنا، وأن يقوم بإنصاف ملتنا وقومنا.

وبهذه الطريقة فقط، سنكتشف أننا أمة لم تعد تنتج أى شىء، حتى مجرد الفكرة الـنظرية المجردة، وأننا نستهلك كل ما نحتاجه من على أيدى أرباب العالم قبل ١١ سبتمبر وبعده.

إنها معادلة غير متوازنة يجب أن تتغير.

لكن تغييرها لا يتم بالعناد والكبر والأنانية.

إننـا بحاجـة ماسة، أكثر من أى وقت مضى، للتواضع ومعرفة ذواتنا كما هى ونقد حالنا ومن ثم الانطلاق للتغيير. والتغيير لن يحصل إليها إذا ما غيرنا أنفسنا.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وعـندها فقط نستطيع القول: إن بإمكاننا أن نساهم مع سائر الشعوب والأمم فى بناء معادلة المستقبل، التى تقول:

نحـن أمـام احتمالات جادة لتفكك عالم قديم، وإن عالمًا جديدًا يمكن أن نساهم فيه، هو عالم ينهض.

* * *

هــؤلاء العــرب

Arab People

ميرال الطحاوي

بازدراءٍ ، بعنصريةٍ ، بتعالٍ، كان اللّقب يحاصرني، « Arab People ».

في الرابع والعشرين من أغسطس ٢٠٠١ ميلادية كنت ضيفة « قصر لاڤيني» وهو قصر على بحيرة جنيف خصّصه الناشر الألماني Ledig - Rowohlt لكتّاب العالم، يستضيفون من تختاره اللجنة لعدة أسابيع ، نغلق الحجرات على مشروعات الكــتابة ، ونلــتف فــي المساء كأسرةٍ صغيرةٍ نتحدث عن بلداننا وأطفالنا والكتابة والناشــرين والترجمات، وقبل أن نطفئ الشموع التي على الطاولة ونغلق الأبواب كعائلــةٍ حقيقيةٍ، نتواعد على مشروعات الصباح، تَسَكُّعٌ في شوارع جنيف أو رحلة إلــى مــتحف « لــوزان » للمديــنة الصناعية الضخمة التي تضم في متحفها أندر لوحــات بيكاســو وماتيس وڤــان جوخ ، وربما نتنزه في شوارع بلدة « أوبون ــ Upone » القريــبة، والتي تحفل بالكثير من الأنشطة الرياضية كالسباحة والجرى وركــوب الدراجــات ، فــي المطبخ نتواعد على صنع الأكلات الأكثر شعبية في بلداننا، تفوح رائحة السمك والبطاطس الأيرلندية ، مع الكارى الهندى ، والكسكسي المغــربى والسَّــلَطَة علــى الطــريقة الــبولندية ، ذرة مسلوقة مع حبات الطماطم والبــيض، وتــتعالى أصــواتنا ، إنجليزية بلكنة عربية ، وفرنسية مكسَّرة ، روسية مُطَعَّمــة بالاثنيــن معًا ، خليط من اللكنات واللغات ، حتى ذلك الوقت كنت الكاتبة المصــرية الــتي أرسل الناشر الألماني « لوسيان ليتس » روايتها، المترجمة حديثًا إلــى الألمانــية، لكــل ضيف من ضيوف « قصر لاڤيني » مع مقدمة عني وعن الرواية [الخباء].

المــائدة الليلية التي غالبًا ما تمتد إلى بعد العشاء، كانت دائمًا تساؤلات تنصب علــيَّ ، ابــتداء مــن اكتشاف موقع مصر على الخريطة ، حتى معنى اسمي الذي

اكتشفت أنه تركى بمعنى غزال ، وأن يَشْار كمال الكاتب التركى الشهير له رواية بهذا الاسم « ميرال » عن سرب غزلان بين جبلين ، نشرها بالمصادفة الناشر الألمانى نفسه « لوسيان ليتس ».

المجموعة التى كانت معى ، كانت تنتمى إلى دول قريبة فى إشكالاتها من بلادنا ــ أو هكذا اعتقدت ــ فهم : زوج وزوجة من أيرلندا ، شاعرة وكاتب فى BBC ، « كارى » ، و« شون هاردى » يتحدثان عن العالم العربى كثيرًا. أهدتنى «كارى» أول دواوينها، الذى قدمته بعبارة صوفية لجلال الدين الرومى، تقول: إن الرومى من أروع كُتّاب العالم، عميق وشفاف إلى حدٍّ بعيد ، هل هو عربى ؟! أهز رأسى معتقدة أن جلال الدين الرومى هو جزء من ثقافتنا العربية.

النسخة الإنجليزية من روايتى والتى فتحت نقاشًا عن مفهوم البدو والخيام والصحراء ... إلخ، مع كلاهما كانت تمتزج بذكريات « شون » عن العمارة اليمنية أو أسئلة صدّام والقذافى، والتيار الدينى والنفط واليهود والشرق الأوسط ، وأسئلة يهز رأسه بعد كل إجاباتى متفهمًا حتى لأكثر عباراتى شراسة « إن الحل الوحيد هو أن يحزم اليهود حقائبهم ويعودوا من حيث جاءوا. إنهم مجرد مليشيات وليس هناك أى مفهوم للدولة فى إسرائيل » ، يهز « شون هاردى » رأسه مدخنًا ويقول ــ ربما ليخرج من احمرار وجهى بالانفعال ــ إن لديه شيشة عربية أتى بها من خان الخليلى.

كان « دراپوش زوسكا » الشاعر البولندى يتحسّس بتعاطف لفظ اليهود فى سياق أحاديثى. من مواليد « قالنتينا ترتازالو » كاتبة، تقول دائمًا «مشكلة» ثم تصمت ، أو ربما تخفف الحرج الذى دائمًا ما تصنعه عباراتى بأنها تحب مصر أو تلقبنى بكليوپاترا الصغيرة.

كانت اللغة دائمًا ما تخوننى ، فأشعر أن هناك الكثير الذى أود التعبير عنه وأقف عاجزة، مدركة أن هناك سوء فهم عصىّ على أية لغة تواصل ، ومع ذلك فمازالت الكاتبة المصرية التى أهدوها كتبهم. وكتبت « كارى هاردى » قصيدة من الاستحسان لروايتى ووقّعتها وأرسلتها مع نسخة من كتابى إلى الناشر الإنجليزى الذى تتعامل معه، قائلة له إن أوروبا ينبغى أن تفتح نوافذها لمثل هذه الأعمال الجميلة.

فـــى المركز الثقافى المصرى ، كانت ندوة « الأدب العربى والألف الثالثة » ، قاعـــة مغلقـــة يحضـــرها بعض العرب والمهاجرين الذين يحاولون استعادة لغتهم بالســـماع ، واحتســـاء القهوة فى جيوب ثقافية لا تعنى أحدًا ، كلما دعيت إلى أحد الـــبلدان الأوروبية أعود محملة بالمشاعر المحبطة نفسها ، احتفالات عربية ربما يجرؤ البعض بادعاء أمجاد للأدب العربى فى الخارج أكثر منى ، لكننا جميعًا كأبـــناء ثقافـــة واحدة ، نعرف معنى التجاهل الذى نقابل به ، شىء أكبر من الخيبة يعـــود معى كلما دعيت إلى إحدى البلدان الأجنبية ضمن فعاليات ، غالبًا ما تكون ، مرتـــبطة بـــترجمة إحدى رواياتى ، ليس هناك من فرق ، بين إســـبـــانيا ، ألمانيا وسويسرا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، نفس الحياد والتجاهل والتعالى ، وبدل من أن يـــتاح لـــنا فرصـــة التســـاؤل لماذا لا نقبل ضمن خارطة الآداب الشرقية: الهندى والـــيابانى والصـــينى، أو حتى الزنجى الإفريقى، فإننا نقابل بشراسة الأسئلة ، أحد طلاب جامعة إشـــبيليه سألنى ضمن مجموعة من كُتّاب الرواية المصريين « لماذا لا تبحـــثون عـــن شـــكل أدبـــى يخصكم ، إن الرواية فن أوروبـــى، فلماذا تكتبون الرواية أساسًا ؟! ».

ســـؤال لم نسأله لأنفسنا ؛ لأننا اعتقدنا أن ثقافتنا مدرجة ضمن خرائطهم ، لكننا نكتشـــف ســـريعًا أن الـــدور المطلـــوب منا أن نصبح مجرد « كتبة تقارير » عن الحجـــاب والمرأة وإسرائيل والقذافى وصدام، أو مجرد « كروت بوستال » لشرق لـــم يعـــد موجودًا سوى فى مخيلة الآخرين ، فى إيطاليا تَحَوّل غلاف روايتى إلى كـــارت بوســـتال بجانب صورة لجمل وصحراء وفتاة منقبة، تهديه شركة رحلات لترويج برنامجها السياحى إلى مصر !.

كـــان علىّ أن أعود مدركة كل مرة أن ثمة سوء فهم لصورة العربى، التى هى خلـــيط من الجهل والعنف والتوحش والانحطاط، فهو إما برميل بترول أو متسولين مغاربة على الساحل الأوروبـــى للمتوسط، وأن الكتابة الإبداعية ليست سوى مجرد تقريـــر إخـــبارى عـــن مأزقـــنا السياسى والاجتماعى لطلبة الدراسات العربية أو المهتميـــن بشئون الشرق الأوسط ، وأن على الكاتب إذا أراد أن يكون كاتبًا أن يقدم صكوكًا كثيرة للوجود.

فـــى إســـبـــانيا وعقب صدور روايتى فى واحدة من كبرى السلاسل الأدبية

الـتى نشـرت لأهـم كُـتّاب العالم، دعانى «المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد» لنحتفل بذلك. دار النشر التى رفضت حفل توقيع لكتابى ، قالت إننى كاتبة عربية وليس هناك من يُقبل لكى يحصل على توقيعك.

كانـت صـورة « تسـليمة نسرين » فى بوسترات كبيرة وإعلانات ضخمة لحفـلات توقـيع، فـى أكـبر بيوت الأدب الإسـبـانية ، تسليمة نسرين صدرت روايتها بعد روايتى من السلسلة نفسها، وفصل كتابى عن كتابها ، أسبوعان فقط!!

فـى المركـز الـثقافى المصـرى الـذى نصب لى خيمة عربية وأدار القهوة لمواسـاتى ، كان الحضور رغم كل الإعلانات فى أجندة الجرائد الرسمية ــ عربيًا عربـيًا ــ المـترجمة لـم تجد ما تفعله سوى الابتسام ، كان لديها ترجمات ليحيى الطاهـر عـبد الله وبهاء طاهر ، ومحمد البساطى ، تبحث عن ناشر لها ولم تجد ؛ لأن الأدب العربى لا يشغل بال أحد.

فـى مسـاء إحدى الليالى ، لم يكن مساءً تمامًا ، كان « قصر لاڤينى » يستعد للاحـتفال بكاتبة رواتية سويسرية اسمها « أنا جروبتى » كانت ضيفة علينا ، لتقرأ بعـض أعمالهـا، المطبخ يشهد حركة أكثر من المعتاد ، الغرف التى تغلق وتفتح ، أسـمع أزيزها معتقدة أن ذلك كله استعدادًا لحفل المساء ، الثرثرة التى تتسلل من ثقـوب الـباب المغلق علىّ يعطرها صوت فيروز التى كانت ترافقنى. فى المساء السـابق، عندما وضعتها على العشاء ضمن أفكارنا عن تعارف الثقافات ، قالوا لى إن صـوتها ملائكـى ، عن أى شىء تغنى ؟! ضحكت... لم أكد أقصد أن أحمل تلـك القصـيدة ، التنهيدة العميقة « هذا مات أهلى » تسحب شجى اللحن « يا بنى وطنى » ، هزوا رؤوسهم فلم أكمل « الويل لأمة لا تأكل مما تزرع .. إلخ».

مـنذ الصباح لم يطرق بابى أحد ، لم يسألوا عن أحوال الكتابة، ولم يدخل أحد مـنهم بفـنجان مـن القهـوة كما كنا نتبادل التحيات ، باتجاه المطبخ اخترق الممر الطويل فأسمع أصواتهم أقرب ، مكدسين أمام شاشة التليـڤزيون الذى لم يفتحه أحد منذ وصلنا ، أقف وحيدة أُحَدّق « هل حدث شىءٌ ؟ » كنت أتوقع كل شىء إلا تلك العبارة « العرب Pepole ضربوا أمريكا .. قصفوا نيويورك » ، [واسم ابن لادن مـنذ اللحظـات الأولـى يـتردد] ، قلت بانفعال: « لا يمكنه أن يفعل ذلك ... لا يسـتطيع أو يملـك ذلك » ، شون الذى تغيرت سحنته التى كانت متعاطفة ــ سابقًا

قال: «بالطبع إنه ملاك ولا يمكن أن يفعل ذلك ، إنه مسلم حقيقى ولا يكذب، ويجب أن نصدقه » السخرية أم الاستخفاف أم النظرات التى تتحاشى الالتقاء بى ؟ أم توترى؟ أشعر أننى غادرت خانة سوء الفهم إلى خانات الاتهام للمرة الأولى والبحث عن صكوك البراءة ، قالو إن أمريكا لن تسكت. وكانوا يتساءلون عن إمكانية ضرب «مصر» التى تُصدّر الإرهابيين ، فضلاً عن سوريا ولبنان والسودان وليبيا والأردن واليمن، ولم تكن الصومال على الخارطة ، كلما غبت رأيتهم يتحدثون بحرية أكثر عن « العرب ــ People » ويؤكدون أن أمريكا هى أم الليبرالية وراعية العدالة ، ويتلمظون بالتعاطف ، فانشغلت بمحاولة الاتصال بأخى الذى يقطن شاطئ كاليفورنيا « سان دييجو ». الحديث عن حصر العرب فى معسكرات كما حدث لليابانيين بعد ضرب « بيرل هاربر » أكثر ما يزعجنى ، أصعد برتابة إلى الغرفة ، ألبس ثوبًا عربيًا وأضئ عينىّ الباكيتين ببعض الكحل، وأفتح « إذاعة الشرق » من باريس على نشرات متتالية غائمة لا تكشف شيئًا.

بدا المساء الذى لابد أن نتحلق فيه حول الضيفة ساهمًا ومتشحًا بكثير من النظرات التى لا أعرف لها تفسيرًا ، والأسئلة التى كانت تفتح أفواهها لتبدأ النقاشات الحادة أو المتعاطفة تحولت إلى علامة إستفهام واحدة « أنت مسلمة ؟! » لا أعرف هل كان اتهامًا أم استفهامًا أم مزيجًا منهما؟ الديانات التى أزحناها جانبًا باعتبار أنها خصوصياتنا ، صارت هويات حاسمة فى إطار الليبرالية الجديدة الأكثر عدالة أو عنصرية. والأسرة الواحدة التى كنا نتحدث عنها صارت تعرف أن هناك ابنة متبناة تنتمى ــ للأسف ــ إلى العرب .

البطاقات التى دشنا فيها أسماءنا وعناويننا ، وتعاهدنا فيها على التواصل وربما اللقاء فى مصر أو أيرلندا، أو بولندا أو الهند أو مولودفيا، كانت تعترف بأننا هويات منفصلة ولا يمكن حتى للكتابة أن تصيغنا فى كل متجانس، أول رسالة وصلتنى كانت من « كارى » و«شون»، قالا: إنهما متعاطفان جدًا مع الشعب الأفغانى، والناشر الإنجليزى يعتذر ــ رغم إعجابه بالرواية ــ فالأدب العربى سيظل إلى فترة طويلة غير مستحب أو مقبول فى الخريطة الأدبية للعالم الليبرالى المتفهم.

فى زيوريخ، كانت طاولة فى ڤيلا صغيرة هى مقر دار « أونيون فرلاج »

الـتى تخصَّصت فى الآداب الأجنبية والثقافات العديدة. كانت كتب رشيد بوجدر ، نجيـب محفـوظ ، آسـيا جـبار ، يَشَّار كمال والكثير من الكتَّاب من الهند والسند والـبـاكستان وإيران والصين، كتابى يجاور كتبهم فى خجل ، قال الناشر إن علىَّ مقابلـة بعض الصحفيين ، ونظرًا للظروف السياسية وكما تعلمين ، لابد أن يسألوكِ عـن الحجـاب والشرق الأوسط والتيارات الدينية ، خصوصًا وأن روايتك الثانية «الـبانجانة الـزرقاء» بهـا تجـربة دينية، ولَن عليك ألا تجيبى عن الأسئلة التى تحسين أنها غير موضوعية.

قـالوا نبدأ بالتيار الدينى ، وقلت نبدأ بالكتابة؛ لأن كل ما لدىَّ كتبته. النقد الذى حملـته كثيرًا وبحت به عن الحركة الإسلامية واليمين واليسار، بدا لى إغواء بعيدًا لا يمكنـنى الـبوح به فى سياق معاد وعنصرى، « هل كنت محجبة، ولماذا خلعت الحجاب ؟!» قلت: كنا نحاول استعادة دولة دينية إسلامية فى مواجهة الدولة الدينية الـيهودية الـتى وجدناها فى صيغة يمين حاخامى، يحلم بوطن قومى ليهود العالم، ويحـيى حائط المبكى وهيكل سليمان. لم أكن أعرف أن الضاحية التى تقع فيها دار النشـر ، وهـى مـن أرقى أحياء زيوريخ هى الحى اليهودى ، وأن المعبد المحاط بسـياج من الحراسة وكاميرات التصوير يقف لـه ترام زيوريخ يوم السبت والأحد كى لا يزعج الأثرياء الحقيقيين وأصحاب أضخم رؤس أموال فى الشطر الألمانى. كـان على أى كاتب يبحث عن موقع على خريطة النشر والثقافة العالمية أن يحدد بوضـوح موقعه من الدولة اليهودية والتيارات الدينية الإسلامية ، وكنت على يقين أن الحوار لن ينشر وأنى فشلت فى كشف الهيئة ولم أنل صك البراءة.

« صـائب عـريقات » فـى التلـيـفزيون الألمانى: أنتم مع الإرهاب أم ضد الإرهاب؟!» لا نستطيع أن نكون مع ضرب أية دولة ؛ لأننا ننادى بالسلام.

إجابـة غير واضحة المعالم ، « أنت إذا مع الإرهابيين » « أنا مع السلام الذى أطالـب بـه للجميع وفى مقدمتهم الإسرائيليون ». إذن أنت ضد أمريكا فى حربها علـى الإرهـاب .. !! صورة البنايتين المخترقتين بالطائرات فيديو كليب تتوسطه آلاف الشموع فى حلبة تتسع لكل الدورات الأولمـبية ، بعض الكتَّاب الألمان سألوا «لمـاذا ألمانيا أكثر حزنًا من أمريكا نفسها !!» التليـفزيون الألمانى يبث الضربات وبعدهـا صـور لصغار الأطفال فى فلسطين أو العراق، يلقون بأحجارهم الصغير

وينادون «الله أكبر» الترجمة التى تحول الكلمة إلى الموت لليهود، وهى التى تجعل مـــن البث التليـــڤزيونى الألمانى مناحة كبيرة يظهر فيها الهمج البربريون الوحوش يرقصون على جثث الضحايا، وصوت بوش: «لقد قدمنا لهم الطعام، وأسكناهم».

هـــل أطعمونا حقًا بلا فوائد؟ هل فتحوا سوى جحيم المعونات مدفوعة الثمن؟ أم امتصـــت الإمبراطوريات زبتنا وخلنا وعنبنا وقطننا مجانًا، ثم يقولون إنهم أطعمونا وأسكنونا !!.

* * *

الطائـــرة التى كانت تحملنى إلى مصر عائدة، كانت مليئة بالمحجبات والشباب مؤكـــد أنهم لم ينجحوا فى توفيق أوضاعهم أو تم تسريحهم مبكرًا. فتشوا كل شىء، حـــتى القلم تم فتحه وغلقه، كنا جميعًا ساهمين فى الأحزمة المربوطة، هل من أحد يقوده جنونه إلى تحويل مسارها باتجاه أبراج أخرى لنتحول معهم إلى قطع من لحم وحديد مصهور؛ لنراهم يركضون كما نركض ، ويصرخون كما نصرخ من جديد، للطائـــرات الـــتى تحـــط بنا فى مطار القاهرة تاركة وراءنا فى الغربة مياهًا ملونة يســـكبونها على جدران مساجدنا ومطاعم الفلافل والأراجيل ومراكزنا الثقافية، تؤكد أن للوطـــن معـــنى العزوة والانتماء فى مواجهة وحدة وعزلة وتعال؛ لأننا أبناء ثقافـــة تكاســـلت أن تُقَـــدِّم نفســـها، فقدمها الآخرون بما يحلو لهم من تلفيق أو عنصرية.

* * *

١١ سبتمبر ٢٠٠١

مشاهد الحدث وتداعياته: رؤية طبيب نفسى

د. أحمد محمد عبد الله

عاشت أمريكا ــ وهى دولة حديثة النشأة ــ على قناعة كاملة لا يتسرب إليها أدنى شك بأنها آمنة منيعة ولا يمكن قهرها أو التنكيل بها، وبأنها قادرة على فعل أى شىء فى العالم دون أن تخشى من ردود أفعال قاصمة، وتضاعف هذا الشعور بالعظمة والمنعة بعد السقوط المروع للقوة المنافسة التقليدية لأمريكا ــ فى عالم ما بعد الحرب ــ ونقصد بها الاتحاد السوفييتي، لذلك يمكن الحديث عن «الثقة» الزائدة المصحوبة بإجراءات سيادة «إمبراطورية» شاملة[1] كطابع رئيسى لمشهد ما قبل ١١ سبتمبر.

وبالرغم من هذا الاطمئنان، فإن الأجهزة والمؤسسات العسكرية والمخابراتية قد اجتهدت فى تحليل ووضع تصورات لبدائل أخرى مرعبة عن ردود أفعال موجعة وغير متوقعة على مسلك السيطرة الأمريكية، ولكن يبدو أن هذا الجهد كان مجرد نشاط أكاديمى ومؤسسى يمارس نوعًا من الرياضة الذهنية أكثر منه خطة عمل حقيقية تأخذ هذه التهديدات الكامنة ــ فى عالم محتقن بمتناقضات ومظالم كثيرة ــ على محمل الجد، ويبدو هذا هو التفسير الوحيد الممكن لذلك التخبط الواضح الذى طبع تحركات الإدارة الأمريكية، بصورة أكثر تركيزًا كلما اقتربنا من قارعة ١١ سبتمبر، رغم أن الأجهزة العسكرية والمخابراتية كانت قد توقعت شيئًا مما حدث[2].

---

(١) انظر :
Michael Hardt and Antonio Negri,"Empire", Boston:Harvard University Press, 2001

(٢) راجع: مقال محمد حسنين هيكل فى مجلة " الكتب.. وجهات نظر" ــ العدد الثالث والثلاثون أكتوبر ٢٠٠١.

وبـدءًا مـن مشـهد الضربة وما تلاه من صدمة واضطراب، توالت المشاهد وتداعـت الصـور، وانفتحت عشرات الملفات، وبرزت إلى ساحة التفكير والنقاش تـنويعات من القضايا المهمة بعضها كان موجودًا ومزمنًا، وبعضها صار مستحدثًا وحادا.

وفـي السـطور التالية، نحاول رصد مجموعة من الملاحظات نابعة من خبرة صـاحبها فـي المساحة الخاصة بالعلاقة بين علم النفس والطب النفسي من جهة، والواقـع السياسـي والاجـتماعي والثقافي من جهة أخرى، وهي مساحة نفتقد إلى الكتابة فيها على أهميتها البالغة.

وسـنعرض هـذه الملاحظات في صورة لقطات، أو نصنفها على شكل مشاهد يمكـن رؤيـتها علـى نسق متوال، وقد يفيد أكثر أن تتكامل على نحو متداخل أو متقاطع مثل لوحة تشكيلية موحية.

١ـ الضربة

بُعـيد الساعة الثامنة صباح الثلاثاء ١١ سبتمبر بتوقيت شرق الولايات المتحدة اصـطدمت طائرة ركاب أمريكية بأحد برجي مبنى التجارة العالمي في نيويورك، وللوهلة الأولى، ظن الجميع أنه حادث عارض أو خطأ غير مقصود، وفي الضربة الـتي تلت في نفس الموقع بنيويورك، ثم ثالثة على مبنى الـبنتاجون في واشنطن، وضربة أخرى لم تتم، أثبتت الصور المتلاحقة أننا أمام مشهد لم يكن أحد يتوقع أن يـراه واقعًـا، إذ تحولـت طائرات ركاب إلى قنابل أو صواريخ من طراز مروع، تقتحم بركابها أبراجًا شاهقةً لتهدمها فوق رؤوس من فيها.

لذلـك تخيلـتها مـزحة مـن النوع الثقيل حين اتصل بي أحد الأصدقاء هاتفيا ليسألني عن معلوماتي بشأن الحدث، ولم أكن قد سمعت به بعد!!!

وحيـن رأيـت المشـهد على شاشة التليـفزيون، تذكرت مؤلف كتاب «ثورة الإنفومـيديا» وهو يتحدث عن عصرنا حيث يسبق الواقع فيه أقوى خيال لأول مرة

فـــى تاريخ البشرية[1] ومن هذه الصورة التى يقول عنها المخرج الإنجليزى (مايك فيجـــيس) لمجلة «لى أنرو كوبيتل» الفرنسية إنها ستغير كل آليات أفلام العنف فى هولـــى وود، ويتساءل «كلود لانزمان» رئيس تحرير مجلة «لى توم مودرن» عن مغـــزى توقيتها؛ لأنه كان بالإمكان اختيار وقت يوقع عددًا أكبر من الضحايا، ولكن يـــبدو أن التوقيـــت قد راعى ساعات ذروة المشاهدة فى جميع أنحاء العالم، وعلى الهواء!![2].

لقـــد بدأت المعركة بتلك الصورة، واستمرت بعد ذلك «حرب الصور»، ولكننا نتوقف هنا برهة أمام التركيب الذهنى والنفسى للفاعلين. فنحن أمام عبقرية مجنونة تســـتهدف قلـــب العـــدو، وتدمير غطرسته النفسية، وثقته المفرطة بقدراته وقوته، ووضـــعه فـــى حالـــة من الصدمة والعجز تشل حركته وإرادته وتصيبه بخليط من التشـــوش، والهلـــع، وتوقـــف العقل، وهزيمة الخيال، والشعور بالخوف من القادم المجهول غير المتوقع، والوقوع فى أسر حالة من القلق المستمر، والتوتر الدائم.

يقـــول المشـــهد: إنـــنا أمام فاعل غاضب كاره، مصمم على الانتقام مهما كان الثمن، والإعلان عن هذا الانتقام على أوسع نطاق، وبالتالى دفع الخصم إلى أقصى درجـــات الشـــعور بالمهانة والانكشاف أمام الآخرين، وبث الرعب وتداعياته يؤدى إلى تحقيق هذا الهدف.

وربمـــا يكون اختيار الأسلوب ناتجًا عن غياب الصلة بين الفاعل وبين الوسائل التقلـــيدية للمواجهة والتدمير، وربما يكون موقنًا بعدم جدواها، وربما لأن هدفه هو إيلام الخصم أكثر عبر التشهير به، وكسر أنفه عبر استهداف رموزه، وربما يكون مســـتهدفًا إرعاب الناس أيضًا، وإشعارهم بعدم الأمان؛ لأن حياتهم مهددة على نحو دموى بدا عبثيًا فى خياله، صارمًا وغير إنسانى فى تنفيذه، وهنا مكمن قوته.

وممـــا لا شك فيه، وبالرغم مما يقال عن الشبكة التى عاونت على الأرض من

(١) انظر:
ثورة الإنفوميديا: الوسـائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك ،الكويت: سلسلة عالم المعرفة ،عدد ٢٥٣، يناير ٢٠٠٠.

(٢) راجع ملف خاص نشرته هذه المجلة الفرنسية عن الهجمات ، ونقلته عنها جريدة أخبار الأدب القاهرية عدد ٤٢٩ بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١.

طاروا فى السماء، وما يقال عن كثافة وإحكام التدريب والتخطيط لهذه العملية، فإن منطق معرفتنا باحتمالات الخطأ والفشل فى مثل هذه العمليات الكبرى يدفعنا إلى القول بأن النتائج كانت أكبر من توقعات وخيال الفاعلين، وأن الخطة التى رسمها هؤلاء المجهولون تتين فى الكثير من نجاحها لعنصر التوفيق، حين تجتمع فى نقطة ما مهارة العقل مع ضربة الحظ ، وتجدر الإشارة إلى أن فاعلاً كهذا لا يبدو منتميا لجهة يمكن الإضرار بها أو الانتقام منها.

وإذا كان نجاح تلك الجريمة مرتبطاً بتحقيقها لأهدافها، وعدم الوصول إلى معرفة مرتكبيها، وتغيير العالم كرد فعل عليها ... نكون إذاً أمام جريمة كاملة.

٢ــ الصدمة

العقلية الغربية عمومًا، والبشرية مؤخرًا، أصبحت تتأثر بالصورة على نحو مختلف عن ذى قبل[1]، حتى إننا نستطيع القول إن واقعنا الحالى يصنع أساسًا على الشاشات ــ وهى كثيرة ــ ما بين تلفاز وشاشة الكومبيوتر.

وإذا كنا قد تعرفنا على المدرسة الواقعية فى السينما حيث التمثيل يقترب من الحقيقة، فإنه قد آن الوقت للتحدث عن واقع يصوغه التمثيل ويشكله، وفى هذا الإطار تحديدًا تداخل الواقعى بالتمثيلى، والخيالى بالحقيقى فى مشهد التفجيرات الصادم بحق.

الرمزية هنا أيضاً كانت مهمة، فوصفت «ساندى روبرت» وهى كاتبة أمريكية صديقة ما حدث فى رسالة قائلة: «..وكأنه يشبه تفجيرًا لأهرامات الجيزة، أو «أبو الهول» فى مصر بطائرة ركاب مصر للطيران !!».

ونجد أحد الأطباء النفسانيين من بوسطن يتحدث إلى قناة ABC التليفزيونية محللاً المشاعر المخزونة للأمريكيين بوصفها تندرج تحت طائلة « قلق الإخصاء ــ Castration Anxiety » ، وهو تحليل وتفسير شهير فى نظرية « فرويد » رآه

(١) انظر مقالاً لكاتب هذه السطور بعنوان " تصورات الجنس والجسد" ، مجلة "الكتب وجهات نظر" ، عدد يناير ٢٠٠٠.

هـذا المحلـل مناسـبًا للحدث بوصف برجي التجارة كانا يحملان ــ في لا وعي الأمريكيين ــ دلالة جنسية رمزية كانت تخترق السماء منتصبة ومتحدية !!!

ورغم طرافة هذا التحليل هنا فإنه لا يخلو من دلالة.

«ريـم كولهـاس» للمعمارى الأمريكى يرى رمزية البرجين تكمن فى كونهما كانـا عنصرى التوازن الجمالى وسط كتل عمارة مانهاتن القبيحة (فى رأيه)، ويرى أن ناطحـات السـحاب عمومًا تحمل معنى العظمة والتجريد، وأنها من أهم رموز القوة، ويتفق «ستفان توناى» الرسام والكاتب مع هذا، ويرى أيضًا أن صورة هذين البرجيـن كانت مستقرة فى خيال الكثيرين على نحو عاطفى وملهم بأكثر من مجرد كونهما مجردى رمز للرأسمالية الأمريكية[1].

الضـربة الثالـثة كانت فى الـبنتاجون أهم رموز القوة فى أمريكا، ذلك المبنى الـذى تحـول دفاعاته دون تحليق الطيور فوق مواقع معينة منه!!ومقر المؤسسة التى تحصل سنويًا على ٢٤٠ بليون دولار من الميزانية الفيدرالية للبلاد.

إنهـا المـرة الأولى فى التاريخ التى تتكبد فيها الولايات المتحدة هذا الحجم من الخسائر المادية والبشرية فوق أرضها، وعلى الهواء مباشرة.

وبالإضـافة إلـى عـدم التوقع، ومكان الضربات وأسلوبها، كان منظر أشلاء الضـحايا وهـى تـتطاير مـن فوق هذا الارتفاع للهائل للأبراج، ومشهد الاحتفال بالضـربة فـى مناطق أخرى من العالم الذى أذاعته CNN ــ وثبت أنه ملفق ــ كفـيلاً بمضـاعفة الصـدمة وتجذيرها فى وعى كل أمريكى تعوّد أن يرى صور الدمـار فى نشرات الأخبار بوصفها لقطات منقولة من ميادين صراعات همجية أو عادلـة، لكـنها لا تعنيه فى شىء، وقد يختار التحويل إلى محطة أخرى تقدم فيلمًا بوليسـيًا، أو عرضًـا للأوبرا.. لكن هذه المرة كان المشهد واحدًا فى كل القنوات، هادئ الإيقاع، مذهلاً فى تتابعه من البدء حتى النهاية.

المفاجـأة شـلت أى رد فعل سريع حتى تمت المهمة دون عقبات تذكر، ولعدة ساعات استمرت آثار الصدمة على أداء الإدارة عامة، والرئيس خاصة فبدا عاجزًا

(١) ملف مجلة أخبار الأدب السابق ذكره.

عـن حسـم أموره، أو تحديد ما ينبغى فعله، أو حتى التحكم فى مشاعره ودموعه، وكـان مـن المفهـوم بالـتالى أن تتسم قراراته بالتسرع والعصبية من قبيل قراره بـإغلاق المجال الجوى الأمريكى كله، وظل القرار ساريًا مدة خمسة أيام كاملة مما كـبد شـركات الطـيران الأمريكية خسائر بعشرات المليارات، ولا نعرف إن كان الرئـيس بوش قد طلب عونًا نفسيًا فى هذه الصدمة التى فاجأته وهزته وكان أحوج مـا يكـون إلـيه، لم أن الأمـر ظـل مـتروكًا للوقت ليداويه، مفتوحًا على شتى الاحتمالات.

وبـناءً علـى الصورة الذهنية التى رسمها الأمريكى لنفسه ولبلاده كانت نوعية وحجم صدمته.

ولأن الأغلبـية كانت تعيش على ثقة عمياء بالعظمة والأمن، و«أمريكا التى لا تقهـر»، فإن شدة الصدمة كانت مضاعفة، وكان الألم هائلاً يبحث عن مخرج... أى مخرج.

ولأن الأغلبـية لا تعـرف شـيئًا عن السياسة الخارجية، ولا تعرف شيئًا عن المظالم التى تورطت فيها بلادهم، فإن قلة هى ــ فقط ــ التى توقفت لتسأل: «لماذا يكرهوننا»؟

الـباقون اكـتفوا بمـثل مـا قالته إحدى الأمريكيات لمحطة الـ CNN: «إن شعورى بالغثيان من شماتتهم لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات».

ومـثلما أنتج قصور الإدراك لأبعاد الحدث وآثاره على ناحية موجة واسعة من الشـماتة، وحالـة من البهجة غير العقلانية كرد فعل سريع على الصدمة، فإن نفس القصـور فـى الإدراك على الجانب الآخر، أنتج حالة من تعميق الشعور بالصدمة والغضـب تجـاه الـراقص المذبوح وسط آلامه ومأسيه هناك بدلاً من الاتجاه إلى الفاعل الحقيقى المجهول، وهذه الإزاحة وهى آلية دفاعية نفسية معروفة، كانت هى بداية التخفيف من صدمة ما حدث بدلاً من مواجهة أسبابه، لأن هذه المواجهة كانت أكبر من طاقة الجميع، حيث البعض لا يريدها، والكل لا يستطيعها فيما يبدو.

لقـد أصـاب الحـادث أغلب الأمريكيين ــ وربما إدارتهم أيضًا ــ بنوع من السكتة العقلية، أصبح بعدها السلوك أسيراً للغرائز البدائية تحركه.

وفـى لحظـة بدت الولايات المتحدة حكومة وشعبًا مصرة على حصد مكاسب

القـوة العظمى، وغير مستوعبة لتبعات هذه المكانة، أو غير مستعدة لتحمل فاتورة ثمنها، وهو ما يساعد على تفسير عدم نضج المسلك.

وفـي غمـرة الألـم، تم استدعاء الدين؛ ليقوم بدور فى تسكين الألم الروحى ، وإثـارة مشـاعر الـتوحد والتماسـك فـي مواجهة «الشر» أو «رموز للشيطان» المعـتدية، ومحاولـة ضـم شظايا النفس المنفجرة، إضافة إلى التغطية بالطقوس، والانغمـاس فـي الغيبـيات علـى صدمة الحقائق الماثلة أمام الجميع عن تقصير الإدارة، وبشـاعة السلوك الخارجى للإمبراطورية الأمريكية، والألم الهائل لاستعادة ذاكرة الأفعال المستفزة ــ على أقل تقدير ــ التى صدرت عن الإدارة طوال نصف قرن، والتى بدا أن نجاحها الأول والمستمر كان فى اكتساب أكبر نطاق من الأعداء والكارهيـن فـي أركان المعمورة الأربعة، فكان من السهل إسقاط الوعى والذاكرة والحقائق، واتهام الآخرين ــ أى آخرين ــ لأن غير ذلك لم يستطعه أحد إلا قلة لا يُقاس عليها.

والمجـال يضـيق هنا عن استعراض كل قائمة الحيل الدفاعية النفسية، والتى اسـتخدمها غالب الأمريكيين، كما استخدمتها إدارتهم بامتياز للانطلاق إلى المشهد الـتالى بسـرعة، فبدلاً من مصارحة النفس بقائمة الأخطاء، جرت عملية «إسقاط» علـى عدو سهل جاهز، وبدلاً من تلاقى القصور فى الأداء الأمنى، جرى «تبرير» هـذا القصور بزعم أن الهجوم كان من طراز غير مسبوق ، وبدلاً من فحص أدلة بمنهج متماسك، جرى «نفى» كل الشكوك وتوجيه الاتهام دون دليل أو سند.

٣ــ القفزة

وجـد الرئيس الأمريكى نفسه إزن فى مربع رهيب مدانا بالعجز والفشل: فشل إدارتـه فـي توقع الضربة وإجهاض مخطط من نفذوها، أو حتى تحديد هوياتهم ــ فضـلا عـن الإمساك بهم ــ وعجزه وإدارته عن توصيف ما يحدث واتخاذ إجراء بشأنه.

ومـن ناحـية أخرى فإن ضغوط الحادث الصادم على أعصاب شعبه[1] مثلت

(١) تعاملت الكثير من الأدبيات مع الهجمات، والمشاعر المصاحبة لها، وعلاج الحالات النفسية الناجمة عنها بوصفها حالة " اضطراب ما بعد الصدمة ــ Post Traumatic Stress Disorder ".

عبئًا إضافيًا جعلته يحسم خياره بالقفز من هذا المربع المشئوم ــ فلم يكن ممكنا الخروج منه إلا قفزًا ــ فكيف تمت هذه القفزة ؟

لكي نفهم هذا لابد من إطلالة سريعة على عينة من مدارس علم النفس وما يستند إليها من طرق علاجية.

لدينا مثلا مدرسة «الجشطالت» الألمانية التى ترى المفردات فى سياقاتها، ولا تتعامل مع الأجزاء بمعزل عن الكل، وتهتم فى علاجاتها بالسياق الذى نشأت وتنمو فيه الأعراض المرضية.

ولدينا مدرسة «التحليل النفسى» التى تهتم بجذور المشكلات والصراعات وتحاول الوصول إلى تحليل للأسباب والبدايات، ومن ثم التعامل معها، وتوعية وتبصير المريض بها، والتعاون معه فى مواجهتها والتغلب عليها.

ولدينا المدرسة «السلوكية» التى ترى المرض بوصفه سلوكًا غير مرغوب فيه، وتستهدف دراسة مظاهره ثم القضاء عليها، بغض النظر عن السياق المحيط به، أو أسبابه التى أدت إليه، أو بعض الآثار التى تترتب على استخدام العقاب لوقف السلوك المرفوض.

ويبدو أن إدارة الرئيس بوش فى اختيارها لنمط الرد على هجمات سبتمبر قد انحازت فورا للمدرسة السلوكية كما سنشرح، وإن كان هذا لا يتنافى مع استخدام أطروحات المدارس الأخرى لاحقًا.

لم يكن لدى الشعب الأمريكى القدرة على الصبر حتى تستطيع إدارته الوصول إلى الفاعل الحقيقى وراء الهجمات، ولكن صوت الانتقام لضحاياه وكرامته وهيبته كان أعلى من أصوات العقل أو العدالة أو حكمة القانون، وفى هذا الإطار الحاكم لمشاعر الأغلبية تمكنت الإدارة الأمريكية من تجاوز ما انكشف من إهمالها، واتهام جهات أخرى غير نفسها ،وبدء حملة جارفة من التعبئة النفسية والإعلامية والسياسية ــ داخليًا وخارجيًا.

وبدلاً من الاعتراف بالخطأ، حصلت الإدارة على صلاحيات شبه مطلقة فى اتخاذ ما تراه مناسبا من خطوات وقرارات دون العودة إلى المسارات المعمول بها

فـــى مـــثل هذه الحالات، وتم تدريجيًا حشد هذا تمهيدًا لفعل قوى لا يحتمل الفشل، ويـــنجح فـــى جذب أنظار الجميع بعيدًا عن الأسئلة الصحيحة إلى مناقشة تفاصيل العرض أو الاستعراض المثير لعضلات القوة الوحيدة.

واســـتقر اختيار الإدارة على تجريد حملة عسكرية تنطلق إلى أفغانستان لتصفية «ابـــن لادن» وتنظيم القاعدة وهو الأول على قائمة الأعداء المستهدفين بغض النظر عن علاقته بهذه الهجمات!!!

تركيـــبة الذهـــن والـــنفس عند المواطن الأمريكى تطمح إلى الإشباع السريع، ولذلـــك بحثـــت إدارتـــه عملاً حاسمًا وعاجلاً يحمل نوعًا من العقاب الدموى يشفى غلـــيل الراغبيـــن فـــى الانـــتقام، ويردع الفاعلين ــ أينما كانوا ــ ويعطى المبرر الجاهـــز، والإمكانية الفعلية للتدخل فى أية بقعة من العالم دون تحديد زمان أو مكان أو عـــدو فصـــرنا أمـــام نمط جديدة من الحروب، ربما أقترح تسميته بـــ «الحرب الفضفاضة».

واتســـاقًا مـــع اختيار الإدارة، فقد تم تصنيف الهجمات تحت تسمية «الحرب» رغـــم أنهـــا مجـــرد جريمة، بالرغم من أن أحدًا لا يجادل فى مدى فظاعتها، وكان طبيعيًا بالتالى أن تدخل أمريكا بل والعالم كله فى «حالة طوارئ» مفتوحة على كل الاحتمالات، وهو أمثل وضع رأته الإدارة لفعل ما تريد بالشكل الذى تريد دون إذن من أحد.

وطـــبقًا للمدرسة السلوكية، فإن مناقشة أسباب الظاهرة المرضية أو تأمل سياقها تـــبدو مضـــيعة للوقت، بينما ينبغى أن يتجه الجهد كله لتصفية السلوك ــ الإرهابى فـــى حالتـــنا هذه ــ وردعه عن الاستمرار باستخدام جميع وسائل العقاب، وتعديل الســـلوك أو وقفـــه أولاً، ثـــم بعد ذلك يمكن التعامل مع أسبابه، والنجاح فى وقف الســـلوك المرضى هو معيار للتقييم، بغض النظر عن الخسائر «الجانبية» المترتبة علـــى اســـتخدام هـــذا الأســـلوب، ولا بأس من تحمل بعض اللوم والانتقادات على «أخطاء» التطبيق فى مقابل تحقيق «النصر»[1].

---

(١) راجع:
By Paul R. McHugh ,"A Psychiatrist Looks at Terrorism: There's only one way to stop Fanatical behavior". (www.goups.yahoo/group/mmh)

وبـدا ذلـك مرضـيا للإدارة من جهة وللشعب الأمريكى من جهة أخرى، ولم يعـترض على ذلك إلا أصوات ابتلعها صراخ الانتقام الأعمى، ولم تكن فكرة عدم تحديد العدو بدقة تكتيكًا، ولكنها كانت استراتيـجية تستهدف حشد الطاقات وتجميع الصـفوف، وإلغاء المسافة بين الناس والإدارة مع تفويضهم الكامل لها فى مواجهة عـدو منتشـر ومجهول الهوية والمكان؛ ليتمحور الحراك حول النشاط العسكري، ويدور التفكير حول أدوات القوة، لا معايير العدالة.

ولـم يكن اختيار مصطلح «الحرب» مجرد مبالغة فى وصف ما وقع، بل كان إحالة لتاريخ قريب، وذهنية متجددة جعلت الحروب فى حياة أمريكا مقدمة لتغيرات كـبرى، ودروس عظمـى، وتمت الإحالة لذكريات الحرب العالمية الثانية والحرب البـاردة، بوصـف مـثل هـذه الحروب هى التى وضعت أمريكا فى المكانة التى وصلت إليها.

ولـم يكـن إطلاق حملة تستهدف تكريس اتهام طالبان و«ابن لادن»، وبالتالى الإسـلام، بارتكـاب الجريمة مجرد ضرب فى الحلقة الأضعف، أو العدو الجاهز طـبقًا للصـور الذهنـية الشائعة، بل كانت تحمل تعبيرًا كامنًا عن نوع من الاتفاق الضـمنى مع اللاوعى الجمعى الغربى بشأن الجهة الأكثر تمييزًا ضدها، والتى من المقـبول منطقيًا أن يصدر عنها هكذا رد فعل عنيف ووحشي، مثل الضربات التى تتلقاها كل يوم.

ولـم يكن ممكنًا لحرب مثل هذه أن تقع دون حملة إعلامية منظمة ترسم صورًا محددة عن المطلوب، وأخرى مشوهة أو مشوشة عن غير المرغوب[1].

والصـور هـنا ذهنية، وأخرى على الشاشة تتحرك.. وهكذا يمكن فهم تكرار

(١) لعب الإعلام ــ وما يزال ــ دورًا أساسيا فى تعديل الإدراك، وتشكيل الآراء، وفى حالة سبتمبر فإن موجات وتظاهرات رفض الحرب، وجهود وقف الانتقام، ودعم السلام ما لبثت أن غرقت فى طوفان الصور والمعانى للتيار الرئيسى للإعلام الذى نجح فى حصار هذه التحركات لتظل محدودة فى إطار النخبة المثقفة، ونشطاء الحريات، والمجتمع المدني.
وكذلك أسبغ الإعلام طابع النبل والشرف على الحملة التى استهدفت أفغانستان حين صورها حملة لتحرير الشعب الأفغاني ــ والمرأة الأفغانية أساسًا ــ من قهر واستبداد، وبدائية نظام "طالبان".. وبالغت الصور فى نقل سعادة «أهل المصابين والقتلى» بانتهاء حكم «طالبان» على نحو يثير الضحك من سذاجته، هذا إضافة إلى العديد من المغالطات الفجة والأكاذيب المفضوحة.

عـرض صـور المبتهجين بالهجمات، وإغفال صور أخرى عن مناسبات للتعاطف فـي القـدس مـثلاً بمسـيرة شـموع حزينة، أو الوقوف دقيقة حدادًا على ضحايا الهجمـات، أو التصريحات والفتاوى التى تنوعت وتكاثرت تشجب الحادث، وتدين مرتكبيه.

فجـأة وجـد المسلمون أنفسهم مطالبين بالاعتذار عن جرم مشكوك تمامًا فى نسـبته إلـيهم، وبـدا واضحًا لهم أن اعتذارهم ــ فى حالة حدوثه ــ غير كافٍ، وربمـا غـير مقبول، ووجد العالم نفسه أمام مفارقة فى سؤال: إما أن تكون مع أمريكا فى حربها الفضفاضة، أو تكون ضدها أى مع الإرهاب!!!

واسـتمرت بعد ذلك الصور: مرورًا بمشاهد الخراب فى أفغانستان، والقتلى من العـزل والمدنيين، ومقابلات «ابن لادن» وكلماته، وظل الإعلام الأمريكى فى تياره الرئيسى إعلام حرب غير منصف، ولا محايد، وتم تنميطه على نموذج الـ CNN حـتى قيل إن هذا مقدمة لأسننة العالم، نسبة إلى اسم القناة الشهيرة، وكان المسرح هكذا مهيأ لأدوار جديدة، وهكذا سيظل، ولو لفترة.

٤ــ ابن لادن

فـي هـذا المناخ ظهر «ابن لادن» من جديد مستندًا إلى تاريخ سابق فى عداء السوفييت ثم الأمريكان، وضرب بعض مؤسساتهم أو مصالحهم حول العالم.

ووفقًـا للرؤية النفسية التى تحركت الإدارة الأمريكية على هداها، فإن ما حدث فـي ١١ سبتمبر هو عبارة عن فعل مقصود ومتعمد لاستهداف مدنيين بغرض بث الخـوف والهلع، وتحقيق أغراض سياسية ودعائية، وهو سلوك صادر عن منظومة مـتكاملة من المواقف والقناعات والمعتقدات، مستقاة من خلفية الفاعل الثقافية التى يشترك فيها مع الجماعة أو الأمة التى ينتمى إليها، وتقوده هذه القناعات إلى تجاهل كافـة الاعتـبارات الأخرى ــ غير فكرته ــ مثل المتعلقة بأمن البشر، أو المشاعر الإنسانية، أو المواءمة السياسية، ودراسة البدائل.

وفـي هـذا السياق يمكن استعادة مفهوم قديم نسبيًّا، ولكنه مهم وصالح لبعض التفسـير، وهـو أطروحة من أطروحات طبيب النفس الألمانى «كارل رينكه» فى

أواخـــر القرن التاسع عشر، ويتعلق بما يمكن تسميته «أفكار مبالغ فيها»..... «Overvalued Ideas».

ويقصـــد «رينكه» تلك الأفكار الشائعة وسط مجتمع أو ثقافة ما، ولكنها تكتسب حـــدة وزخمًـــا وتفعيلاً عند البعض بسبب تركيبهم العاطفى والشخصى مما يجعلهم ملتزمـــين أكثر من غيرهم بتحويل هذه الأفكار إلى برامج وأعمال، وفى هذا السياق فـــإن فارقًـــا مهما يمكن رصده بين تلك الأفكار ونوع آخر منها هو «الضلالات ــ Delusions» يكـــون مخـــتلا، شاذا عن ثقافته، وخاصا بصاحبه فقط، ونوع ثالث هـــو «الوســـاوس المتسلطة ــ Obsessions» وفيه يكره ويرفض الشخص تلك الأفكـــار المتســـلطة علـــيه، ويقاومهـــا، بينما هو يحترم ويضخم وينصاع للأفكار «المـــبالغ فـــى تقديرها»، ومع الوقت يصبح تغيير معتقدات هذا الشخص أصعب؛ لأنهـــا تترسخ وتتشعب أكثر ويبدو صاحبها غير مستعد للتنازل أو التفاوض بشأنها أو الاقتـــناع بـــأى حجج منطقية تحاول إثناءه عما فى رأسه، وبخاصة عندما يرى توافقًـــا واسعًا من البعض مع ما يطرحه، والمثال الشهير المطروح فى هذا الصدد هـــو «أدولـــف هـــتلر»، والســـمات الشخصية لمثل هذا الشخص تبدو ظاهرة فى غـــروره، وتقـــته المفـــرطة فى ذاته سقابل شكه الزائد فيمن حوله، وافتقاده للدفء العـــاطفى، وهـــو ثابـــت الحجة، قادر على تغيير أرضيته وحياته كلها لتتناسب مع أرائـــه الصـــلبة، وميولـــه العنيف، وأحاسيس جنون العظمة التى يشعر بها، وطبقًا لـــنفس الرؤية فإن محاولة مقارعة الحجة بالحجة لتصحيح سلوك هؤلاء الأشخاص حـــتمًا ستبوء بالفشل، لسبب بسيط هو أن عواطفهم هى التى تقودهم، وليس المنطق العقلـــى أو التخطـــيط المستند إلى تحليل مركب، وهناك أمثلة كثيرة على أنواع من الحـــالات المرضـــية الناشـــئة عن «أفكار مبالغ فيها»، ومن أهمها مرض النحافة العصبي Anorexia Nervosa.

وطـــبقًا لهذه الرؤية فى التحليل، فإن الفاعل قرر أن أمريكا هى بأسرها «أمة شـــيطانية وتستحق الموت دون تمييز»، وقد نفذ فى بعض مواطنيها حكم الإعدام بهذه الصورة البشعة، وأن صاحب هذا «السلوك» الإرهابى سيستمر فيه إلا إذا تم القـــبض علـــيه أو قتله؛ لأن خيار هؤلاء الأشخاص يبدو واضحًا منذ البداية، ولا سبيل لتغييره بغير العنف بغض النظر عن النتائج.

بالطبع فإن هذه الرؤية لها العديد من المعارضين وتواجه الكثير من النقد، ويمكن ببساطة استخدامها فى استهداف أى ثورى أو معارض للأمر الواقع، ويمكن أيضًا وببساطة استخدامها فى تفسير سلوك العديد من الزعامات الحالية، والأنظمة والإدارات الحكومية، ومنها الإدارة الأمريكية نفسها، لكننا هنا نريد أن نطل على بقية اللوحة الخاصة بحديث المجالس: «أسامه بن لادن».

فى إطار المناخ الذى أشاعته الدعاية الأمريكية، ومسلك الإدارة المأزومة بعد هجمات سبتمبر، كان ظهور «ابن لادن» بنفسه على شاشات القنوات الفضائية وأهمها «الجزيرة» فصلاً مهما فى العرض الذى أسماه الرئيس بوش «حربًا»، وفى إطار نفس المناخ تشكلت ردود أفعال الأطراف المختلفة:

- مجرد إشارات وإيماءات من «ابن لادن» كانت كافية لتأكيد الاتهام له بأنه الفاعل، وتم استخدام هذه الإشارات العابرة بوصفها «مشروع» أدلة إدانة، وشفرات بهجمات جديدة يرسلها لمعاونيه حول العالم!!!
- وكان تضخيم حجم «ابن لادن» وقدرات تنظيمه، واتساع تمويله، وقاعدة القبول والتأييد الذى يلاقيه، شرطًا أساسيًا لتمرير التقصير فى أداء الإدارة، ثم لتبرير البشاعة التى حدثت فى حملة أفغانستان، وكان سبيلاً لازمًا للتغاضى عن الفظائع بحق المدنيين بوصفها مجرد أخطاء، وأعراض جانبية، وآثار غير مرغوبة، وكان لابد منها فى مواجهة التهديد، ولا بأس عندئذ من خلط الأوراق بين الرفض العالمى عامة، والعربى الإسلامى خاصة، للسياسات الأمريكية، وبين إعجاب البعض بالرجل، الأمر الذى سنشير إليه فى سطور تالية.
- وفى فراغ من خطاب سياسى وتعبوى راشد، وفى غياب من إطار رسمى أو شعبى جامع، وفى افتقاد لمعنى ضام أو قيادة تتوافر لها عناصر التأثير والمصداقية، وفى واقع مظلم وأمام أفق مسدود.
- وتحت وقع الضربات المتلاحقة، والدماء الجارية، «وفى الليلة الظلماء» يفتقد البدر فإن لم يسطع، استهدى الناس بأى نجم، ولو كان نجمًا من صنع الإعلام الأمريكى.
- انقسم المثقفون والسياسيون فى العالم العربى والإسلامى: البعض يرى فى

نمـوذج «ابـن لادن» مـثالا للتسطيح فى فهم العالم وتقسيمه، والاختزال فى توصـيف وتحلـيل واقعه المتشابك المركب، والتسرع فى انتقاء بعض المفاهيم والمصـطلحات الشـرعية للتفسـير والتبرير، وهو بذلك مجرد مناضل بدائى يـتحلى بقـدر كبـير من الرومانسية والنقاء، ولكنه أيضًا لا يكلف نفسه عناء البحـث فى جذور الداء وتشخيصه، ولعله أيضاً يتبنى مدرسة الردع بالقوة ــ حيث أمريكا هى صاحبة السلوك الإرهابى المراد تصفيته.

ــ فريق آخر وجد نفسه غير قادر على القيام بأى دور فيما يجري، ولم يجد وزناً لأى موقـف سيقفه مع أى طرف كان، وراجع ذاكرته بشأن سياسات الولايات المـتحدة التسـلطية، وفظـائع عملياتها فى كل أنحاء العالم من نيكاراجوا إلى العـراق، ومـن الصومال إلى فلسطين، فوجد نفسه ــ مع «ابن لادن» ــ فى مربع العداء للولايات المتحدة.

ــ والـبعض الآخـر يرد: إن الاتفاق مع بعض ما يطرحه الرجل من مقدمات لا يعـنى الموافقـة علـى تحلـيلاته أو النتائج التى يقفز إليها، أو الأساليب التى يسـتخدمها؛ وفـريق قـال: لا نتاقشوه ودعوه يعمل، فلا فائدة من هذا النقاش، وليعمل الجميع بما يرونه مناسبًا وفعالاً فى إطار «الحرب» التى أعلنها الرئيس بـوش، والـتى يبدو أنها ستستمر ما بقى هو شخصيًا فى البيت الأبيض رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية.

ــ أما الشارع فكان لـه رأى آخر ... ولا يمكن تجاهل مشاعر التعاطف والتأييد والإعجـاب الـتى تحولت إلى سيل جارف غطى الجوانب الأولى بالدراسة فى الظاهـرة ، وجاءت قوة العنف الأمريكى التى تحركت دون دليل لتضرب بلدًا مـرهقًا فتزيده وهنًا على وهن، فكان هذا المسلك كفيلاً بمضاعفة التأييد، وزيادة التعاطف والإعجاب بالرجل.

ــ ونحن نتفق مع «يسرى مصطفى»[1] فى أن «ابن لادن» ربما يحاول أن ينسب نفسـه إلـى هجمات سبتمبر بأكثر مما ينسب تلك الهجمات إليه، وإلى تنظيمه،

(١) انظر مقاله بجريدة «القاهرة» ــ العدد التسعون ــ الثلاثاء ١ يناير ٢٠٠٢.

ولكـــن هذا لا يهم فى غمرة «حرب الصور» التى مازالت دائرة، حيث الحقائق هى «ما يظهر على الشاشة، لا ما يحدث بالفعل».

- ولا يكفـــى مســـلك الإدارة الأمريكـــية دعايـــة وعنفًا فى تبرير أو تفسير حجم الشـــعبية الـــذى حازه «ابن لادن»، أوفى تفسير نجاح ورواج أطروحاته على بســـاطتها، وســـهولة دحضـــها، ولكـــن هناك أسبابًا أخرى ذكرنا منها: الفراغ السياسى والفكرى، كما نضيف هنا قوة تأثير البعد العقائدى، وبالتالى الديباجات الدينـــية على الناس، كما نضيف بعدًا لم ينتبه إليه أحد حتى الآن بالقدر الكافى، وهو: قوة تأثير المخيلة الشعبية المتوارثة على وعى الإنسان العربى المعاصر.

- ففـــى إطـــار ثنائية من العجز والألم، ومناخ من التردى والهوان، ينبعث الحلم المجهـــض، والشـــوق العارم المبدد، والعشق اليائس الملتهب للبطولة والفداء، والبحث عن العدل، والانعتاق من الذل.

- فـــى هذا السياق يصنع الناس حلمهم، ويختارون رجلهم بطلاً رومانسيًا متجردًا مـــن مـــتاع الدنـــيا، يقـــف فى وجه جبروت الظالم الطاغوت، وينتقم للبسطاء والعاجزيـــن، ورغـــم أن ثقافة «المهدى المنتظر» هذه تكرس لدى الناس عقيدة إرجـــاء الفعـــل فـــى انتظار المخلِّص طبقًا لتحليلات المثقفين، لكنها تكون حلا مفهومًـــا، ومخـــرجًا معقولاً من قسوة ألم لا يرحم، وخواء بارد قاتل وإجهاض لكـــل محاولة فعل بردع السلاح أو ضغط الصور، فلا تبقى إلا مساحة الأحلام حرة وممكنة.

- هـــل نســـتعيد من ذاكرتنا تعبير «موعد مع القدر» فنقول: إن «ابن لادن» كان صـــاحب الموعـــد هذه المرة كما كان «أبو زيد الهلالى» أو «أدهم الشرقاوى» فى مصر، أو «أبو جلدة» فى فلسطين، أو غيرهما[1].

---

(١) وسط بلورتى لهذه الفكرة فى التحليل، فوجئت بمقال للأستاذ/ صلاح عيسى، وهو كاتب صـــحفى مهتم بالتاريخ الاجتماعي، ولـــه فى ذلك كتابات مهمة أبرزها «محاكمات من دفتر الوطن»، والمقال يتحدث عن ظاهرة البدل/ الشقى هكذا دون منافسة تذكر، ووسط سلسلة من المقالات الأسبوعية لنفس الكاتب تتناول ما يتعلق بأحداث سبتمبر وتداعياتها، وتوافق نشر هذا المقال مع شائعات انطلقت حينها عن مقتل «ابن لادن» وسط جبال أفغانستان، وذكرت بعض تلك الشائعات أنه راح ضحية خيانة.
أغلب الظن أن الأستاذ صلاح عيسى لم يكن يقصد الدلالة التى استخرجتها أنا من نشر هذا المقال فى هذا التوقيت، وسواء قصد أم لم يقصد فإن الدلالة تبقى لدى ناصعة، وإن لم يكن يقصد تكون الدلالة أشد.
انظر مقاله فى جريدة القاهرة - العدد التاسع والثمانون - ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١.

ـ إذا اعـتمدنا هذا التحليل فإنه يفسر التأييد الجارف رغم الثغرات الواضحة؛ لأن الناس تبحث عن أى مشروع بطل؛ لتسقط عليه كل ما تطمح إليه وتبحث عنه، وهـم مسـتعدون حيـنذاك للتغاضى عن «هفواته» فى مقابل أنه ينتمى إليهم، ويقـف حقا أو ـ قولا على الأقل ـ حيثما يحلم العديد من الشباب، وكما تحب العديد من الفتيات.

والمقـام يضيق عن ذكر النكات التى انطلقت شديدة الدلالة على ما نقوله هنا، ولكنـنا نلاحـظ أنه من خلال ثلاث نكات سمعناها عن «بن لادن» ظهر تقدير الـناس لـه، ووصفه بالرجولة والبطولة، وفى اثنتين من تلك النكات كانت هذه الصفات مقابل عجز بوش وفزعه.

ولكنـنا فى غمرة هذا التفسير، لا ينبغى أن نغفل عن الأثر الذى تركته شرائط «ابـن لادن» المذاعـة على قناة «الجزيرة»، فمن ناحية كانت تؤكد أنه مازال حـيًّا، و«يكـيد الأعـادى» كما يقول المصريون، ولكن من ناحية أخرى كان خطابـه يلغـى المسافات التى كان البعض يحاول توسيعها بين رأى قطاع من النخـبة وموقف الإدارة فى أمريكا، فالصور والأخبار كانت تقول: إن البعض هـناك ضد الحرب وسياسة بوش بوضوح بينما «ابن لادن» يضع الجميع فى سـلة واحـدة لخـتار لها من التراث اسم: «فسطاط الكافرين»(!!)، وبدا وكأن إذاعـة كلمـات بـن لادن لا تحمـل سـوى الرغبة فى الرد على الأمريكان وإغاظـتهم، حتى تخيل البعض أننا بصدد حرب إعلامية متبادلة رغم أن الأمر عـندنا لـم يكـن يعـدو السـبق الإعلامى، علاوة على أن الحرب الإعلامية الأمريكـية كانت تساند جيوشًا تتحرك فوق الأرض، أما عندنا فقد كانت تداعب أحلامًـا تـدور فى الخيال، وتدغدغ مشاعر طال كبتها حتى أطلقتها تفجيرات سبتمبر.

٥ـ الغفلة

لـم تتمثل غفلتنا فقط فى خلط الحلم بالواقع، بل شملت عدم استيعابنا لطبيعة ما يجرى، وملامح ما هو آت.

وفـــى مقـــابل حالة الحرب التى أعلنتها أمريكا، ونحن فيها ساحة القتال الأكثر إغـــراءً، والعـــدو الضعيف الجاهز، اكتفت الأغلبية بالطمأنينات الرسمية الأمريكية، ولـــم تقم وزنًا كبيرًا لحقائق كبرى كانت تتحرك على خريطتنا السياسية والجغرافية حتى يبدو أن ردنا على ما يحدث لم يكن سوى صورة «أسامة بن لادن» !!!

دوائـــرنا الأكاديمـــية نائمة، وما تحرك منها كان متواضعًا فى إنتاجه حتى قيل: ليته سكت.

ولأجهزتـــنا السياسية بدت مشدوهة أغلب الوقت، وتتحرك بأسلوب رد الفعل فى أحســـن الأحـــوال، وللمـــنظمات الرسمية للعرب فى جامعة دولهم، وللمسلمين فى مـــنظمة مؤتمـــرهم بـــدت عاجزة وحذرة حتى فى إصدار بيانات الشجب والتنديد كعادتهـــا، فجـــاءت كلماتهـــا مرتعشة مترددة، وهكذا نجح «الإرهاب» وأصبح سيد الموقف فعلا!!!

أمـــا مـــن ناحية تكرس الفراغ الذى نعيشه فلمع «ابن لادن» أكثر، ومن ناحية أخـــرى نجح الإرهاب الأمريكى إعلاميًا وسياسيًا فى حشد التأييد لحملته المستمرة، وحربه الفضفاضة، بل وتسابق الجميع فى عرض خدماتهم أملا فى نيل الرضا، أو علـــى الأقـــل اجتناب الغضب، ومن لم يساهم بالعون شارك بالصمت، فتم للإدارة الأمريكـــية مـــا أرادت: رأى عام داخلى يساندها بجنون، ويحصر أصوات الرفض فى الهامش.

ولـــم نســـتطع رؤية الحدث بفرصه التى يتيحها والتحديات التى يفرضها، ولا أجدنـــا إلا جلـــد للذات، أو تكريس نظرية المؤامرة ، فلم نر مثلاً أن هناك دولاً لا تدور فى الفلك تمامًا، وأن الصامت على الحق أفضل من المشارك فى الباطل؛ لأن الأول شيطان أخرس، بينما الثانى شيطان أخطر.

ولا تحـــرك لدينا أى اهتمام يذكر بالتواصل مع موجات صاعدة ومتنامية تمثلت فى قوى مدنية متعددة تحركت ضد الحرب من أول لحظة، ولا نظرنا إلى إمكانياتنا «ممكنة التفعيل» مثل هذا الجيش السلمى الذى يضم الملايين من العرب والمسلمين فـــى الغـــرب، وكـــيف يمكـــن أن يتحولوا من لعب دور الضحية إلى دور الشريك الفـــاعل، ولـــم نلاحـــظ أنـــه ربما تكون الكتل الصامتة السلبية فى عالمنا العربى

والإســلامى، وفــى أوروبـــا وأمريكا شعرت أنها تتفرج، وتدفع الثمن كل مرة، فتململت، على اختلاف فى نمط تململها، بحسب الثقافة والجغرافيا.

ولــم ندرك أن الحادث قد كشف عن ثغرات هائلة فى أمن القوة الوحيدة، وفى إدراكهم هناك فى الغرب للإسلام والمسلمين، بل لذاتهم وموقعهم ومسئولياتهم، وأن اللحظة تشهد منافذ كثيرة يمكن أن يتسلل منها الأمل:

اخــتل نموذج الأمن المطلق الذى عاشوا يقولون به، واختل مثال بلد الحريات، وتعــدد الثقافات، واختل التوازن الحرج الحاكم هناك بين المُلطات، ولم تبرز غير العضلات التى قد تخيف البعض، لكنها أيضًا تستفز آخرين.

لــم يهــتم أحد بالاستفادة من هذا كله، وربما انشغل من أدركه بمجرد الحديث عــنه، وفى الوقت الذى طرح فيه البعض سؤالا عن «أزمة خيار» للمرحلة القادمة، بدا لى أن الأفدح عندنا هو: «أزمة إطار» يضع أية فكرة موضع التنفيذ.

ورغــم أن «الأنا الأمريكية ــ Ego » بدت محتاجة إلى تعاون لمداواة الجرح الــذى أصــابها، «والأنـــا العليا ــ Super Ego » الغائبة عادت تطل برأسها حين لستدعاها البعض من منفاها الطويل، تركنا نحن هذا وذلك جهلاً أو تجاهلاً، عجزًا أو زهــدًا، ضــعف إرادة أو نقــص إدراك، فــانطلق مستودع الرغبات والمشاعر البدائية الأمريكى ID معربدًا دون رقيب أو حسيب.

وتحليلــنا لهذه الحالة من الذهول يفترض نقصًا فادحًا فى إدراكنا لذاتنا والعالم، واستســلاماً كاملا لمشاعرنا اليائسة والمحبطة، رغم العديد من المعطيات الإيجابية فى الواقع.

ومــن ناحــية أخــرى، تبدو لدينا إعاقات عدة على مستوى السلوك الفاعل فى تــرجمة الأفكــار إلــى أعمال، ونعتقد أن الصور قد فعلت فعلها فينا، وأن العصا الأمريكية التى انطلقت تضرب المربوط فى أفغانستان قد أرعبت السائب من طنجة إلى جــاكرتا.

وإذا كــنا قد غفلنا أو تغافلنا عن الحقائق الكبرى، فلم يكن ممكنًا أن نلتفت بعناية إلــى «فلــتات اللسان» ولها وزنها فى علم النفس، وخاصة التحليلى، ولها فى هذه

الحـرب المعلـنة أمـثلة متعددة من تسمية «بوش» لحملته بالمصطلح الشائع عن الحروب الصليبية، وتصريحات بيرلسكونى العدائية عن الحضارة الإسلامية.

ومـن المفهوم طبعًا أن يحاول البعض دفع التيار بعيدًا عن الانجراف فى اتجاه مـا يسـمى «صراع الحضارات» و«حرب الثقافات»، ولكن تجريد ما يجرى من الأبعـاد الثقافية والحضارية يبدو مأزقًا كبيرًا هو الآخر؛ لأنه بينما يبالغ البعض فى تقديـر قوتـنا، والتهديد الذى نمثله (!) يبالغ البعض فى التقليل من شأن ما لدينا من إمكانـات كامـنة يعرفها الأخرون ربما بأكثر مما نعرف، والأدهى أنهم يحاسبوننا علـيها، وفـى هذا الإطار ومضت لحظة ظهر فيها شعاع أمل فى أن تنحل العقدة الـتى بين النخب وتصوراتها، والناس وثقافاتها، وأخشى أنها ضاعت هى الأخرى بين المال والتململ.

٦ـ العزلة

وعلـى حيـن تكشـفت معالم الغفلة هنا، اتضحت ملامح العزلة هناك، اكتشف الأمريكيون أنهم كانوا يعيشون فى قلعة أسوارها المحيطات التى تعوم فيها أرضهم، وأنهـم خلقـوا أو شاركوا فيما يسمى بالمجتمع الدولي، وما يسمى أحيانًا أو مؤخرًا بالنظام العالمى ثم العولمة دون أن يندرجوا هم أنفسهم بجدية داخل هذا النظام على قدر حجمهم فيه[1].

وتجـرى حـوارات جادة ومناقشات صاخبة فى الإعلام، ودوائر صنع السياسة الأمريكـية حول القدر الذى ينبغى أن يتغيّر به سلوك الولايات المتحدة تجاه قضايا الآخرين بعد أحداث سبتمبر.

كثـيرون فـى أمـريكا شعروا أن «عدم الاكتراث» بما يحدث فى العالم كان خطيئة دفعوا ثمنها دماءً سالت، وأشلاءً تطايرت، وجزءًا من الهوية والذات والهيبة مـات يوم الحادث، ولن يعود أبدًا. ولا يعنى هذا أن الأصوات التى تطالب بالمزيد مـن العـزلة ليست موجودة، ولكنها تبدو فى وضع لا تحسد عليه، ويبدو أن اتجاه الانفتاح والخروج من القمقم الأمريكى الكبير إلى آفاق العالم، والمشاركة الفعالة فى

(١) انظر:

The Death of A Founding Myth News Week Magazine- 2.1.2002

مسئوليات العيش فيه فضلاً عن إدارته، هذا الاتجاه يبدو أنه سينتصر على اتجاه الانكفاء «الفصامي»[1] الذى كان يصبغ الشخصية الأمريكية، وبخاصة فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة. وفى الوقت الذى سينشغل فيه المراقبون والأكاديميون والمثقفون عندنا بحشد وتجميع أطروحات كل فريق، والرهان مسبقًا على أحدهما، ورسم مشاهد مستقبلنا بناءً على ذلك، سينسى الجميع أو يتناسون أن لدينا فى أمريكا أكثر من سبعة ملايين مسلم يمكنهم أن يدخلوا كعنصر ترجيح لأحد هذين الخيارين. المشكلة أنه من اللحظة الأولى تجلت محنة هذه الجموع، وظهرت مبعثرة مذعورة، تبحث مشدودة فى ملفات لم تحسمها مثل: الهوية والولاء، والأطر والتمثيل، والدور والخيارات السياسية والثقافية.

تركيبة غير متجانسة من روافد عرقية، وأجيال عمرية، ومستويات ثقافية وتعليمية شتى، هذه التركيبة اكتشفت "فجأة" أن بداخلها، وبينها وبين النسيج الذى تعتبر نفسها جزءًا منه أسئلة ونزاعات، عداء مستتر وراء جهل متبادل، وتعايش هش فوق براميل من البارود، وحين نشبت النار لم يجدوا لهم أرضًا يقفون عليها بين إدارة تعاملهم بالعصا والجزرة، وجماهير تتحرش بهم وتطالب بطردهم، ونخبة تتحدث بلغة غربية عنهم حين تعارض مسلك الإدارة تحت شعارات لم يتعود المسلمون على توظيفها، ولا النضال فى سبيلها، فبدت المفارقة مضحكة حين غاب عن المظاهرات ضد الحرب والعنصرية أولئك الذى خرج المحتجون ليدافعوا عنهم.

كشفت الهجمات وتداعياتها أن أغلبية الأمريكان لا يعرفون شيئًا ذا قيمة عن دين يعتنقه أكثر من سبعة ملايين من مواطنى بلدهم، ومن الإنصاف أن نعترف أن الخطأ مشترك بين من لم يهتم أن يعرف لتضخم إدراكه لأهمية ومركزية ذاته وتمحوره حولها، ومن لم يبادر بالتعريف، وإذا كان الساكت صاحب قضية فتقصيره يكون أشد، واللوم للموجه إليه أكبر.

• من المسئول عن غموض ــ بل تشوه ــ صورة الإسلام والمسلمين فى إدراك وعقلية الإنسان الغربى العادي؟!!

---

(١) "الانكفاء الفصامي" ترجمة وضعناها للتعبير العلمى Schizoid ، ومعناه ميل إلى عزلة. والانطواء قد يظهر على شكل اضطراب فى الشخصية Schizoid Personality، وقد يظهر جزءًا من فصام كامل Schizophrenia.

* مـن المسـئول عـن ضعف تأثير وحضور الجالية العربية والإسلامية فى الغرب؟!!

ويمكنـنا الاسـتطراد فـى الأسئلة، ولا يكفى ــ إلا لخداع النفس ــ أن نعلق الأخطـاء علـى مشـجب الآخرين، والاكتفاء بالحديث عن دور الإعلام المتحيز، والعنصـرية والتميـيز، ولكـن يمكن الحديث عن عقلية ونفسية الـ «جيتو» التى يعـيش بها أغلب المسلمين فى الغرب، وشعورهم المستمر بعدم الانتماء والاغتراب والتـناقض المحـيط مع الخوف من فقد «الملاذ الأمن» الذى يعيشون فيه ، وعدم قدرتهـم على التعبير عن ثقافتهم الأصلية بلغة يفهمها من حولهم، وهى كلها عوامل تكـرس العـزلة، ولـم ــ ولـن ــ تفلح طريقة الفتاوى «سابقة التجهيز»فى رأب الشـروخ، وتجـاوز العـيوب، وسد الثغرات التى كانت مغمورة فى صقيع الشمال تحت طبقات من جليد التغافل والاستسهال والكسل، وطاحونة الحياة الغربية .

وأذكـر نقاشاً دار مع الأستاذ الكاتب: فهمى هويدى على أثر مقال كان قد كتبه فـى جـريدة الأهرام عن الاعتذار الصادر عن الفاتيكان بشأن الأمم التى تضررت مـن الحـروب الصـليبية، وكانت الأقوال قد تضاربت بشأن شمول هذا الاعتذار للمسلمين أم لا ؟!!

قلـت للأستاذ فهمى : وهل يعتذر الفاتيكان لليهود مثلاً؛ لأنهم أصحاب حق، أو لأن ضـميره قـد استيقظ بعد كل هذه السنوات؟!!طبعًا هو يعتذر استجابة لضغوط مسـتمرة تعرف كيف تحصل على حقوقها الأدبية والمادية، بل وتقلب الحق باطلاً عند اللزوم.

مـا زلت أذكر هذا المقال الذى تحدث فيه الأستاذ هويدى عن اختراق صهيونى للمسيحية، وعن تحيز غربى رسمى ضدنا.. إلخ.. وكان عنوان المقال: «اعتذار لـيس لنا فيه نصيب»، وقد أحسن الأستاذ فهمى إذ أكمل الصورة فى مقال الأسبوع التالى، والذى رأيت عنوانه شديد الدلالة والاختصار: «متقاعسون لا ضحايا».

هـل أدافـع أنا هنا عن الإعلام الأمريكى بتياره الرئيسي، والذى كان دوره فى تلـك الحـرب ــ وربمـا دائمًا ــ صناعة الأكاذيب، وإدارة حرب مفاهيم وصور خبيثـة ؟!!

هـل أقلـل مـن تأثير الأصوات المتطرفة، والضغوط المستمرة داخل أجهزة صناعة القرار الأمريكى والغربي؟!

الحقـيقة أنـنى أقول فقط: إن هذا ما يفعلونه، ونحن ماذا فعلنا؟!! وفى عيادات الطب النفسى فى أمريكا، وبعد هجمات ١١ سبتمبر اشتكى العديد من المسلمين من مشـاعر خـوف مرضـية، وأنهم مستهدفون نتيجة للصورة التى يروجها الإعلام، وعلـى حين اشتكى البعض من أعراض هلع اشتكى آخرون من شعور بالتشوش، وجنون العظمة أحياناً[1].

لقد تحوّل الإسلام إلى وصمة ومبرر جاهزين للتمييز، واستهداف حامله بالعنف المادى أو المعنوي، والمشكلة أن هذا يدعم وضع العزلة وعقلية الـ"جيتو".

٧ـ الخدعة

فـى هـذه الأجـواء يمكن أن نفهم كيف تم تمرير الخدعة الهائلة التى أرادت الإدارة الأمريكية تمريرها.

ـ كـيف أصبحت العصبة المدانة بالتقصير فى حماية الوطن هى النخبة التى تقوده بـتفويض مطلق أو شبه مطلق من أجهزة الرأي، ودوائر صنع القرار، وأغلبية الشارع؟!.

ـ وكـيف تلاشـت الحـدود الفاصـلة بين أشخاص فريق التقصير، وبين الرموز التاريخية لقيادات كانت أحكم وأفضل مثل روزفلت وغيره؟!.

ـ وكـيف تـم اعتساف الإحالة إلى مشاهد تاريخية سابقة مثل: «بيرل هاربر»[2] بوصفها ظروفًا مشابهة رغم أنها كانت مختلفة تمامًا، وأكثر مجدًا وشرفًا؛ لأنها كانت جزءًا من حرب، وليست فصلاً فى رواية مصنوعة؟!.

ـ كـيف تم تحويل مشهد النار والدمار صبيحة يوم ١١ سبتمبر إلى مقدمة لفيلم من

(1) The Aftermath of the World Trade Center Tragedy Making Sense of it together/www.Crescentlife.com (September 2001)

(٢) شاعت المقارنة مع حادثة «بيرل هاربر» على مستويات وفى مناسبات عديدة رغم التباين الشديد بينها وبين تفجيرات سبتمبر؛ لأن اليابانيين فى هاربر استهدفوا قواعد عسكرية استولت عليها الولايات المتحدة فى ظروف الحرب العالمية الثانية، ولم يستهدفوا الأراضى الأمريكية نفسها.

إنـــتاج هوليوود، أصبح عند البعض بوليسيًّا مثيرًا، وعند آخرين دمويًّا مرعبًا، وعند فريق ثالث من نوع للكوميديا السوداء؟!!

ـــ كـــيف تـــم اســـتخدام كل فنون الدعاية والإعلان، والتحايل والخداع فى تحويل الأكاذيـــب المفضـــوحة إلـــى حقائق على الشاشة، وفى الأذهان، ثم إلى وقائع تتحرك على الأرض، وقنابل ـــ قيل إنها ذكية ـــ تحرق الحرث والنسل؟!.

ـــ كـــيف تـــم استخدام الخوف والهلع الذى أصاب المواطن الأمريكى منذ اللحظة الأولـــى؟ وكـــيف تمت مضاعفته بقصة، الأنثراكس وغيرها، وتضخيم قدرات «ابـــن لادن» وتنظـــيمه لدفـــع الناس بعيدًا عن ضمائرهم وتعقلهم للأمور إلى غرائـــزهم البدائـــية حيث لا عقل ولا منطق ولا ضمير، فقط التبرير والتمرير لكل تصرفات الإدارة،والردع العنيف للسلوك «الإرهابى»؟.

ـــ كـــيف تـــم نفخ الروح فى مقولة «صراع الحضارات»، واستدعائها لتشيع مناخًا موالتيا ضد المسلمين يكرس الصورة الذهنية الشائعة عنهم بوصفهم منبع الآثام، فـــى الوقت الذى يتم امتصاص ردود أفعالهم المحتملة على ما يحدث لهم داخل أمريكا، ولغيرهم من المسلمين فى أفغانستان ، وربما فى أماكن أخرى؟.

ـــ وأخيرًا كيف تم استخدام «علم النفس» وأدواته فى تضخيم أهمية مواجهة العنف والإرهـــاب بالإرهاب المضاد بعد تسميته بأسماء أخرى مثل: الدفاع عن النفس أو «النفســـر النبـــيل» أو «العدالـــة المطلقـــة» أو «الحرية الكاملة»، وأيضًا فى اســـتخدام نفـــس العلم فى تهميش قيم كبرى مثل حكمة القانون فى براءة المتهم حـــتى تثبـــت إدانته، وتحرى أسباب الجريمة؛ لأن بعضها يكون بمثابة الظرف المخفف للعقوبة؟.

يمكـــن القول بأن الطب النفسى شارك فى اللعبة بنصيب موفور، وبخاصة حين وضـــع الأمر على شكل شرح يستدمج فلسفة العلاج السلوكى فى الخسائر المحدودة قصيرة المدى فى مقابل المكاسب النهائية بعيدة المدى.

ففـــى إطار العلاج السلوكى يبرز تخوف أن أساليب العقاب والردع المستخدمة لوقـــف السلوك المرضى قد تؤدى إلى التأثير على ثقة المريض بنفسه، أو احترامه لذاتـــه أو علاقـــته بطبيـــبه، والرد على هذا يكون بأن الجهد المبذول فى العلاج قد

يـــؤدى إلـــى بعـــض «الآثار الجانبية» العاجلة فى المدى القصير لكنها تكون ثمن الـــتعافى على المدى البعيد، ولا مفر منها رغم أنها قد تكون فادحة، ولكن كل شيء يهون فى سبيل العلاج!

وبالـــتالى كان النموذج الكامن وراء خطاب الإدارة، وحملة الإعلام المدبرة أن الإرهـــاب ســـلوك نحتاج لوقفه مهما كان الثمن، وبأسرع وقت، ولا يسعنا التمهل؛ لأنـــه يزداد حجمًا وتأثيرًا وثقة بنفسه وبخاصة مع مرور الوقت، وللقضاء على هذا الوحش المخيف فلا بأس من بعض الآثار الجانبية «قصيرة المدى».

ـــ فـــلا بـــأس مثلاً من تقييد حرية التنقل، وفرض المزيد من التدابير التى تناقض الحـــريات المدنـــية؛ لأن العدو يعيش بيننا ،ولا مفر من حرب مواجهة قد نفقد فيها بعض أبنائنا لتصفية قواعده فى أى مكان، وقد يستدعى هذا سياسة تقشفية، وزيادة فى الضرائب مثلاً.

وفـــى الخارج ربما تتحطم علاقتنا ببعض الدول الحليفة أو الصديقة، وقد تتأثر صورتنا بعض الشيء بفعل الانتقادات التى ستوجه لتحركاتنا لحماية أنفسنا، وينبغى أن نكـــون علـــى اســـتعداد لقـــبول هذا كله على المدى القصير فى مقابل المكسب والنصر النهائى الذى سيتحقق فيما بعد.

وفى سياق خدعة بهذا الحجم يواصل النموذج تفسيره وطرح تجلياته فهو أيضًا يعـــرف أن هناك آثارًا غير مرغوب فيها، ولكن لا مفر منها، فيما يتعلق بأفغانستان وغيرها من الدول التى يمكن الهجوم عليها ملاحقة للإرهاب لوقفه، فالناس فى هذه الأماكـــن ســـيعرفون بعد حين أن هذه الهجمات كانت لاستئصال أورام خبيثة كانت تضـــغط على أنفاسهم وعقولهم، وسيدركون ببساطة الثمن حين يحصلون على عائد الحملة بتحررهم من نير الاستبداد والظلام الذى يشيعه الإرهاب.

والصـــور الـــتى ركـــزت وســـائل الإعلام الأمريكية على عرضها لأفغانستان «المدمرة» بعد سقوط «طالبان» تم تحليلها وفقًا لنفس النموذج، فكان حديث الصور يقـــول: آلام القصـــف وآثـــاره تـــم تجاوزها ببهجة «ما بعد طالبان» فها هم الناس يرقصـــون فـــى الشوارع، ويستمعون إلى الموسيقى بعد أن حلقوا لحاهم، وخلعت النساء التشادور الأفغانى الذى كانت «طالبان تفرضه عليهن!!»

طرفا للخدعة كانا الإدارة التى تماهت فى الوطن، والناس المفجوعة فيمن سقط من شاهق، أو احترق وسط اللهب.

والنخبة كان لها أطروحات مختلفة

* جون اسبوزيتو ــ رئيس مركز التفاهم الإسلامى المسيحى فى جامعة جورج تاون قال فى لقاء أجراه معه موقع : Belief.net : «إنه من الخطورة بمكان أن نعزل الأمور عن سياقاتها، وإن للكثير من الأمريكيين الذين رأوا بعض الفلسطينيين على شاشة CNN مبتهجين بالهجمات لا يعرفون أن المدن الفلسطينية محاصرة منذ أسابيع على أيدى القوات الإسرائيلية»، وكان يمكن أن يضيف: إن هذه القوات تمتطى الدبابات الأمريكية، وتقصف قرى المدنيين بطائرات الأباتشى وإف ــ ١٦ القادمة من أمريكا.

ورؤية أسبوزيتو وغيره كثيرون فى قطاع النخبة الأمريكية الرافضة للخدعة يندرج فى إطار تجليات مدرسة الجشطالت فى التفكير والتحليل، مدرسة رؤية الأشياء ضمن سياقها حيث الواقع مترابط ومتكامل، ويترتب بعضه على بعض غالبا.

* نعوم تشومسكى الأستاذ الجامعى الأمريكى المعروف فى محاضرة له بمعهد ماسشوستس للتكنولوجيا MIT[1]، وفى تحليل تاريخى ثقافى يتحدث عن مخزون التعاطف أو التفهم الذى استفادت منه جريمة تفجيرات سبتمبر، ويرى أن هذا المخزون ينبع من دعم الولايات المتحدة لأنظمة شمولية وفاسدة، وأن سياسات الإدارات الأمريكية المتعاقبة طوال العقود الماضية قتلت مئات الآلاف تحت أسماء مختلفة وحتى من بدايات تاريخ أمريكا، ومذابح السكان الأصليين، ومرورًا بالتدخل فى نيكاراجوا خلال إدارة ريجان، وغير ذلك من الحروب القذرة التى كانت فيها الولايات المتحدة فى دور من يقتل، والمعركة دائمًا تدور خارج أرضها.

ويحلل بعض أساليب الخداع، ومنها «محو ذكرى الحوادث المزعجة»، ومنها تداول مفاهيم وأساطير من قبيل: «نهاية التاريخ» و«التدخل الإنسانى» و«دولة

(١) عن محاضرة ألقيت فى MIT بتاريخ ١٨ أكتوبر ٢٠٠١، والنقل عن موقع:
www.mondiploar.com

القانون»، وهو يستخرج تعريفات الإرهاب من الكراسات العسكرية الأمركية؛ ليجد أنـه الأكثر انطباقًا على ما تقوم به هى نفسها، غير أن الأقوياء ــ على حد قوله ــ يهيمنون على الأجهزة الأيديولوجية والثقافية التى تمسح لإرهابهم أن يعتبر شيئًا آخر غير الإرهاب، ويبدى تشومسكى تجليًا واضحًا لمدرسة التحليل النفسى فى صورة أكثر اتساعًا من مجرد تحليل الرموز الجنسية، وعلى عكس المدرسة السلوكية التى يبدو أن الإدارة قد تبنتها يقول تشومسكى: «إن إحدى الوسائل للحد من مستوى الإرهاب يكون فى التوقف عن المساهمة فيه، ومن ثم التأمل فى التوجهات السياسية التى أوجدت هذا المخزون من الدعم الذى استفاد منه فيما بعد مدبرو الاعتداءات».

ونأمل معه حين يقول: «ربما يكون وعى الرأى العام الأمريكى فى الأسابيع الماضية لمختلف الوقائع الدولية التى لم يكن يدرى بوجودها سوى النخب، ربما يكون خطوة على الطريق الصحيح».

الإدارة الأمريكية استخدمت سلاح الدعاية والتوجيه والإعلان لتحديد مسارات تصاعد مشاعر الأمريكيين، وتعديل إدراكهم على النحو الذى يعفيها من المسئولية، ويبرر ما قامت وستقوم به من إجراءات داخل أمريكا، وخارجها لسنوات قادمة.

٨ــ الفرصة

فى نفس أجواء الخدعة وسيالها، والهجمات وتداعياتها حاول البعض الاستفادة من الفرصة، ومارس آخرون هوايتهم أو عادتهم فى إهدارها.

- إسرائيل رأتها فرصة للإجهاز على المقاومة الفلسطينية بوصفها «إرهابًا» مثل هجمات سبتمبر، وحاولت استخدام نفس أساليب الخداع، والقفز فوق الوقائع، وتكثيف الأكاذيب لمحو الذاكرة، ولكن الدماء الساخنة التى تسيل يوميًا، وضحايا الرصاص الإسرائيلى عرقلت هذا «ولو إلى حين».
- أنصار أطروحة «صدام الحضارات»، و«نهاية التاريخ»، والرعب من الإسلام (الإسلاموفوبيا) وجدوا لأنفسهم، وأطروحاتهم سوقًا رائجة، ومنابر تطلبهم للحديث والنشر.

ـ دول مثل روسيا والصين وجدت فى الحادث مناسبة للمشاركة فى الحملة صمتًا أو دعمًا بغض النظر عن مشكلات داخلية لديهم يمكن تسميتها «إرهابًا» عند اللزوم، وأخذ تفويض بتصفيتها بنفس صيغة:

«اضرب أولاً، ثم ابحث عن الفاعل»!!

ـ أنظمة تسلطية وقمعية أخرجتها الأحداث من حرج الفشل الاقتصادي، ومهدت لتبييض صفحتها السوداء في انتهاكات حقوق الإنسان، وحريات التعبير والتنظيم والنشر، وهي في ذلك تحتج بمسلك فى أمريكا بلد الحريات والقوانين، وهى توقف العمل بهذا كله فرارًا من المحاسبة، وتحت دعوى مواجهة الظرف الاستثنائى الحالى!!

ـ ومن قبل هؤلاء وبعدهم كانت نخبة الإدارة الأمريكية تتطلع إلى ملاذ مناسب من ركود الاقتصاد، وغياب المنافسة التى تشعل التحدي، وتدير عجلات مصانع السلاح، وتبحث عن خطط لنشر قوات جديدة فى أماكن تراها حساسة لتحجيم الصين، أو استمرار إخضاع روسيا، أو تهديد إيران، وإرعاب الآخرين أكثر وأكثر.

ـ و«الأذكياء» فى كل ميدان ومجال دخلوا فى اللعبة مسخرين كفاءاتهم على شاشات الفضائيات، وصفحات الجرائد والمجلات، وشبكات المعلومات والأخبار ليحصلوا على نصيبهم من هذا السوق الواسع الذى انفتح.

وآخرون كان نصيبهم مجرد «الفرجة»، وأحاديث المجالس بندب الحظ، أو الغرق فى أحلام اليقظة، أو الاستسلام للتردى فى مهاوى اليأس، وفى الوقت الذى كانت فيه الحادثة فرصة للعمل لدى البعض كانت مناسبة لزيارة الطبيب النفسى لدى آخرين، وقد رأيت جانبًا منهم:

اشتكى البعض من كوابيس مزعجة يرى فيها مناظر الأشلاء والدماء «فى الحلم هذه المرة»، ويبدو أن تأثير الصور على الوعى فى اليقظة والمنام مبحث يحتاج إلى تفصيل أكبر.

واشتكى البعض من أعراض اكتئابية منها: العزلة عن الناس، وتمنى الموت، ونوبات بكاء متكررة دون سبب واضح.

واشـــتكى آخـــرون مـــن أوجاع جسمانية دون اضطرابات عضوية، وآخرون اشتكوا من هجمات أنواع مختلفة من الوساوس، واضطرابات القلق.

وهـــذه كلهـــا فى تشخيصنا هى تعبيرات عن ثنائية الغضب المكبوت، والعجز المســيطر فـــإذا أضـــفنا إلـــى ذلك تشوش الإدراك، ونقص أو غياب المعلومات، والقصـــف بالصور والدلالات التى تحملها فإننا نكون أمام حالة تشبه الوباء النفسى المتنامى.

ولا ســـبيل لعلاج هذه الحالات بالاعتماد على العقاقير أو العلاج النفسى الفردى فقط، بل إن الحل هو المشاركة فى الأحداث بدور إيجابى[1]، والتدرب على أساليب العمـــل الجمـــاعى فى للنضال المدنى الذى يحمل فى طياته إمكانات العلاج النفسى الجمـــاعى، والعـــلاج بالعمل، فضلاً عن بعض تجليات العلاج السلوكى فى التطبيع مع سلوكيات إيجابية بدلاً من السلبية التى تؤذى وتكرس الأعراض المرضية.

وفى محاولة ميدانية لتجريب هذا المفهوم قمت بالعمل مع مجموعة من الشباب والفتـــيات من مستوى التعليم الجامعى تتراوح أعمارهم بين ٢٠ ، ٢٥ عامًا، واتفق جميعهم تقريبًا فى البداية على الشعور بالتشوش ــ على الأقل ــ وبعد عدة جلسات شـــملت اســـتخدامًا لـــبعض أســـاليب العلاج المعرفى وسط المناقشات الدائرة، كما تطرقـــت إلـــى الاســـتعانة بـــأنواع العلاجات الأخرى التى تحدثت عنها توًا، أشار الـــبعض إلـــى زوال أغلـــب الأعراض المشكو منها[2]، وما تحقق من نتائج أصبح يغـــرى الأغلبـــية بالمواصـــلة، وهـــنا تجـــدر الإشارة إلى أهمية توظيف الفضاء الإلكترونى، وشبكة الإنترنت فى عملية التدريب و«العلاج»، وقد يكون هذا الطرح غريـــبًا حيـــث ما زلنا نعتبر الإنترنت مجرد «أداة» محايدة، أو نتحدث عن سلبياته مثل إدمانه، أو آثاره الأخرى ولكن استخدامه بشكل علاجى ما يزال غريبًا علينا.

---

(١) انظر مقالنا: حزب مناهضة جنون القوة على القسم العربى من موقع www.islam-online.net

(٢) هناك تشابه بين هذه الأعراض للشباب العربى عموماً وتقارير من بريطانيا عن شكاوى مشابهة فى أوساط المسلمين هناك.

انظر:

The Aftermath of the World Trade Center Tragedy Making Sense of it together/ www.Crescentlife.com (September 2001)

وفـــى إحـــدى جلساتنا توصلنا إلى أن شبكة الإنترنت بالنسبة لمن يستخدمونها يمكن أن تكون:

ـــ مصـــدر معلومـــات أكثر اتساعًا وحيادًا: والبعض يتحدث عنها بوصفها إعلامًا مستقلاً أو بديلاً للتيار الرئيسى للإعلام الدعائى الغربي.

ـــ ســـاحة حـــوار وتفـــاعل: تبدو مفتوحة بلا حدود غير وقت الداخل إليها، وحرة تســـمح بطرح كل الآراء، ومناقشة كل القضايا، وكسر حالة الفرجة، والتمكين من المشاركة.

ـــ مجـــال للعمل والفعل : فـــقـــد أصبحت بحق من أهم ساحات النضال فى مجال تصحيح المعلومات، ودحض الأكاذيب، وتعبئة الطاقات بجهد بسيط.

ـــ وسيلة اتصال سريعة ورخيصة، ونافذة واسعة للانفتاح على العالم.

ـــ مدرسة للتدريب والتعليم بأشكاله ومستوياته المختلفة، وتطوير المهارات.

وجدنـــا أننا فى حاجة إلى إعادة اكتشاف الإنترنت من جديد، واستطلاع آفاقه، وبخاصة فى هذه اللحظة التى يتساءل فيها الكثيرون عنا وعن الإسلام وثقافته.

إن النضـــال المدنى والنشاط الإلكترونى على الإنترنت تعد آفاقًا جديدة يمكن أن تســـاهم فى حل مشكلة العجز والغضب المكبوت، وتصلح استثمارًا للطاقات، وترفع مـــن قـــدرة الفرد على الفعل بدلاً من الاكتئاب والعزلة، وقد تعلمنا أننا لن نستطيع نفى السلبيات التى يمكن أن يشيعها الإنترنت إلا بالاستخدام الإيجابى له.

٩ـــ الخطة

عـــندما جاءت إدارة بوش الثانى إلى البيت الأبيض بدا واضحًا أن لديها عزمًا أكـــيدًا علـــى تحجـــيم اهتمام الولايات المتحدة بما يحدث فى نقاط كثيرة من العالم، ومـــنها الشـــرق الأوسط، فى مقابل الاهتمام بتأمين الداخل ضد أى عدوان خارجى محـــتمل، ولكـــن هـــذا الاتجاه انقلب تمامًا، وسقط بين ركام أنقاض مركز التجارة العـــالمى حتى قيل: إن لوبى المصالح الذى يهمه أن يتعدد التواجد والدور الأمريكى فـــى الخـــارج هو صاحب المصلحة والمستفيد الأول من التفجيرات، ولم يعد هناك

بعد الهجمات صوت يعلو فوق صوت الانتشار الواسع فى العالم، والقيام بعملية «إعادة هيكلة ــ Re-structuring » لأوضاعه على حد التعبير الذى استخدمه الرئيس بوش فى أحد تصريحاته نهايات العام ٢٠٠١.

والبعض يقول: إن الانسحاب من أية بقعة فى العالم تتواجد أمريكا فيها يعنى تركها للإرهاب يعمل فيها!!

المدرسة التى يبدو أن الإدارة قد تبنتها تقول إن التفجيرات كانت «عبارة عن تنبيه وتحذير بأننا على وشك ولوج مرحلة جديدة وخطيرة فى تاريخ أمريكا».

«مرحلة يهاجم فيها أعداؤنا الجدد مدننا وشعبنا بأسلوب فريد ومفاجئ، مرحلة بات فيها الخصوم يمتلكون أسلحة تسمح لهم بنقل الحرب إلى داخل أمريكا».

ويـنطلق «رامسفيلد» ليصف ملامح الخطة العسكرية فى المرحلة القادمة «ما بعد النصر» ومن أهم ملامحها:

«أن تؤكد الولايات المتحدة للأصدقاء والحلفاء مدى قدرتها على الوفاء بالتزاماتها الأمنية، وأن تحمل الخصوم المحتملين على التخلى عن تبنى برامج أو عمليات تهدد مصالح أمريكا، مع ردع العدوان بفرض عقوبات شديدة على المعتدين، وإلحاق الهزيمة الحاسمة بأى خصم. ولن يكون هذا إلا باستثمار مواردنا فى أساليب جديدة من التصدى للحرب»[1].

وقف «السلوك العدوانى» هو الهدف القريب إذن، ويكون هذا باستخدام أقصى درجات القوة فى رأى هذه الإدارة، ونجاح هذه السياسة يتوقف ببساطة على قدرتها فى منع تكرار الهجمات بغض النظر عن الأسباب والملابسات والخسائر. ولكن نفس المدرسة تدرك جيدًا أن القوة والتدمير لن تكون كافية للحفاظ على «السلام»، وأمن أمريكا، بل لا بد من علاج الأسباب والروافد التى تمد «الإرهاب» بأسباب الحياة، ولذلك لا بد من استخدام ما هو أكثر وأوسع من القوة، وفى خطة الدفاع الأمريكية حديث عن استخدام كل الوسائل من إعلام وتعليم وتربية وثقافة، من حرب الصور، وبث المعلومات، حتى يصل لكل عدو «محتمل» رسالة واضحة

(١) مقال « ما بعد هذه الحرب ضد الارهاب » ، واشنطن بوست ، نقلاً عن جريدة الشرق الأوسط ، ٢٠٠١/١١/٣م.

عـن قدرة الولايات المتحدة على الردع، وغير ذلك مما يشل إرادته قبل أن تنطلق؛ لأنها حين تنطلق توجع.

تباشـير هـذه المرحلة من الحرب بدأ بالفعل، والحملة الإعلامية المساندة لها انطلقت فى أعقاب سقوط طالبان.

الخطـة الأمريكية كما قلنا هى: الحرب الشاملة الفضفاضة ضد عدو لا تحديد لـه، واسـتعداد للتدخل أو الهجوم على أية بقعة، والضغط لإعادة هيكلة العالم على النحو الذى يكفل للولايات المتحدة أمنها وسلامتها. فهل لدى أحد خطط أخرى؟؟؟

١٠ــ المسئولية

لماذا نجح مرتكبو هجمات ١١ سبتمبر فى تحقيق أهدافهم؟!

ولماذا نجحت ــ حتى الآن ــ المدرسة السلوكية أو مدرسة الردع السريع دون البحـث فـى السـياقات والأسـباب؟! وهل يستمر هذا النجاح طويلاً؟! وهل يتمدد التخطـيط والتنفـيذ لعملية إعادة هيكلة العالم كما تقول إدارة بوش!! وإلى أى مدى سيصل ؟!!

الأمر مرهون بوجود خطط للأطراف الأخرى.

ومن الواضح أننا كعرب ومسلمين ما نزال فى مرحلة الدهشة، أو الانتظار لما سـتفعله أمـريكا لنقـبله أو نرفضه أو نتحفظ على بعض بنوده. نحن فى وضع لا نحسـد علـيه: أمامنا تحديات كبرى لم نكن مستعدين لمواجهتها، وأمامنا فرص لا بـأس بهـا لـم نفكر من قبل فى استثمارها. ما نزال فى المشاعر مشوشين، وفى الإدراك مضطربين، وفى السلوك متعثرين.

الأنظمـة منكمشـة ــ فى أحسن الأحوال ــ والنخب متشاغلة كعادتها، والناس تائهة متغافلة أو غافلة.

نحـن محتاجون إلى مراجعة جسورة لأساليب التفكير والتسيير التى نعمل بها، وإلـى إصـلاحات جذرية لطرق التواصل، وسبل الإدراك الذى نحن عليه لأنفسنا وللعالم.

نحـــن نحتاج إلى تحول فى «نموذجنا المعرفى ــ Paradigm shift» ومنهجنا السلوكى، الأمر الذى يمكن أن يلعب فيه علم النفس، والطب النفسى دورًا كبيرًا.

ربمـــا نقطة البداية تكمن فى الفهم والمصارحة والمبادرة، ولَرجو أن تكون هذه السطور خطوة جادة على هذا السبيل.

• • •

إخناتون وأحداث أمريكا

أحمد عثمان ــ لندن

يوم ١١ سبتمبر كنت فى شقتى بوسط لندن، أشاهد البرامج الإخبارية على قناة سي إن إن. وتركت زوجتى لأستريح فى فراشى بعد الظهر، وطلبت منها ألا توقظنى مهما كان السبب؛ لأننى أحتاج إلى الراحة. ومع هذا فلم تمض دقائق والنعاس يداعب أجفانى، حتى دخلت زوجتى غرفة النوم مسرعة، وطلبت منى الحضور لمشاهدة الأخبار. قالت: إن طائرة ارتطمت ببناية فى نيويورك.

وجلست أتثاءب وأفرك عينيّ أمام التليفزيون، وهم يحاولون التعرف على ما حدث، وإذا بطائرة أخرى نراها على الشاشة ــ مسرعة .. تتجه عمدًا إلى بناية مجاورة، ثم ترتطم بها عمدًا.

هذا ليس حادثًا عارضًا، بل هو تدبير مقصود. ترى من الفاعل ولماذا؟

ولم يمض وقت طويل حتى أذاعت السلطات الأمريكية تفاصيل الحوادث، وأكدت المعلومات أن الذين قاموا بتدمير البنايات فى أمريكا كانوا جميعًا من المسلمين العرب ــ قتلوا عمدًا آلاف المواطنين، وهم ينتحرون بالطائرات التى خطفوها. بل إن البيانات التى أذيعت بعد ذلك قالت: إن هؤلاء المنتحرين فعلوا فعلتهم دفاعًا عن الإسلام والمسلمين، وهم على استعداد لتكرار مثل هذه الهجمات فى أماكن أخرى.

أنا مسلم أعيش فى العاصمة البريطانية منذ سبعة وثلاثين عامًا، لم أواجه خلالها أية مصاعب بسبب ديانتى. إلا أننى أصبحت لأول مرة فى حياتى لا أجد فخرًا فى الإفصاح عن انتمائى الدينى، فقد أصبح كل مسلم فى بلدان الغرب متهمًا ضمنيًا بعمليات الإرهاب التى وقعت فى أمريكا. قررت ألا أغادر منطقة إدجواروود التى أقيم بها، والتى تعتبر بمثابة الحى العربى فى لندن ــ إلا لسبب ضرورى.

كمـا تحاشيت قراءة الجرائد العربية فى المواصلات والأماكن العامة كما كنت أفعـل كـل صـباح. لكن المشكلة الحقيقية هى أننى كنت قد قبلت دعوة قبل بضعة أشـهر للـتحدث فى ندوة ثقافية يوم ١٥ سبتمبر. إذ نظمت جمعية الفكر الحر يومًا ثقافـيًا فـى أحد مسارح لندن، يتحدث فيها بعض الكتاب عن أعمالهم، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ والموضوعات الفلسفية والروحية.

كـان موضـوع حديـثى هو أثر ثورة إخناتون وملوك العمارنة الذين حكموا مصـر لثلاثيـن عامًا، فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، على الحضارة البشـرية. كـيف أتحـدث أنـا المصرى المسلم إلى هؤلاء المسيحيين واليهود والعلمانييـن عن التفوق الحضارى للمصريين، بينما نحن جميعًا أصبحنا متهمين بقتل الأبرياء فى مكاتبهم؟

أدركت أننى لا أستطيع التحدث عن إخناتون والتاريخ القديم، وأتجاهل الأحداث الـتى أصـبحت موضـوع الساعة وفرضت نفسها على جميع وسائل الإعلام. لا يمكنـنى الاعتذار عن مصريتى أو إسلامى، فهذا هو ما أعتز به ــ وعلى أن أكون صـادقًا مع نفسى ومع هؤلاء الناس الذين حضروا من أماكن بعيدة وتجشموا مشقة الانتقال، ودفعوا ثمن الدخول، من أجل محاولة فهم العالم الحديث بصدق وحرية.

بدأت بقولى: إن قدماء المصريين حرموا قتل النفس البريئة، مئات السنين قبل نزول الوحى ورسالة الأنبياء. كان المصرى القديم عندما يدخل قاعة أوزوريس وبها ٤٢ قاضيا، يقسم أنه لم يقتل أحدًا ــ حتى يسمح لـه بالمرور إلى شاطئ النجاة ــ وينجح فى ميزان الحساب. ثم جاءت توارة موسى التى نزلت عليه فى سيناء المصرية، ومن أهم وصاياها العشر: «لا تقتل». وجاء الإسلام خاتم الرسالات السماوية ليعلن أن:

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].

المشكلة التى نواجهها الآن ــ قلت للجالسين أمامى ــ هى أن الحضارة الغربية الحديـثة، حقـقـت نجاحـات كبيرة خلال القرن العشرين، سواء فى المجال العلمى الطبـيعى أو فـى مجالات التكنولوجيات وتطوير الآلات، إلا أنها فقدت الكثير من

الجوهـر الـروحى. وكـل الشـباب الذين قاموا بخطف الطائرات وتدمير المبانى الأمريكـية، تعلموا التكنولوجيا الحديثة فى الغرب وأعجبوا بالتفوق العلمى الحديث، لكـنهم اسـتخدموا معـارفهم فى محاولة لتدمير الحضارة وليس فى بنائها. ذلك أن الـبعد الـروحى ــ الـذى يعطـى قـيمة للأشياء وشفاء للنفوس ــ ظل غائبًا فى حضـارتنا الحديـثة، مفقـودًا فـى تعاليمنا. وبدون البعد الروحى ستظل الحضارة الغربية ناقصة، تدمر نفسها وتهدد نجاحاتها.

وحـتى يمكنـنا اسـتكمال طرفى الحضارة، لابد من العودة إلى التاريخ القديم، والـتعرف على جذور الوعى الإنسانى؛ لأننا نموت، فنحن فى حاجة إلى ما يفسر المجهـول ــ ماذا يحيط بنا من ظلام؟ ولقد توصل الإنسان المصرى القديم إلى أن للبشر لهم بعد روحى إلى جانب البعد الجسدى.

ثـم جاء إخناتون ليتعرف على بعد روحى للوجود، يرمز لـه بالنور الذى بدد ظـلام المجهـول من حولنا ــ ثم جاء المسيح ليبين أن روح الإنسان هى جزء من الـروح الكلية للإله ــ وأن الموت هو قيامة ــ حيث تعود الروح البشرية إلى جنة الرب الأبدية.

لـم يكـن المصـريون القدماء فى حاجة إلى شرطة فى بداية تاريخهم، إذ كان الـتزام الـناس بسـلوك سـليم مصـدره عقيدتهم الذاتية التى تمنعهم من ارتكاب المخالفـات، دون الحاجـة إلى وجود قوة خارجية. فدون أن يعرف الشباب القيمة الإنسانية للعلوم ووسائل التكنولوجيا، فهم فى خطر ونحن فى خطر.

وللأسـف فـإن جمـيع الديانـات تحولت الآن: إما إلى عقائد سياسية أو إلى شعارات وطقوس شكلية، يقوم بها الناس دون ارتباط روحى.

كـان الديـن فى الماضى عاملاً إيجابيًا فى تحرير الإنسان من الخوف، يدخل الطمأنينة إلى قلب الإنسان، بينما المذاهب الدينية الحديثة تثير الخوف والرعب، ولا تحقـق الصـفاء النفسى. ورغم أن الأديان السماوية الثلاثة ــ اليهودية والمسيحية والإسـلام ــ تؤمن بوجود إله واحد، إلا أن كلاً منها تعتقد أن هذا الإله لها وحدها ــ فهـناك إلـه لليهود يفضلهم على العالمين، وإله للمسيحيين وإن اختلفت كنائسهم، وإله للمسلمين ــ بل إن الكثيرين يعتقدون بأن البوذيين والهندوس ليس لهم إله على الاطلاق. إذا كان الرب واحدًا، فهو رب للجميع ــ حتى أولئك الذين يكفرون به.

عـندما ندرك أن إلهنا واحد لكل البشر، يصبح علينا أن نتعامل بحب وتفاهم ـــ وأن يحترم بعضنا الآخر ـــ رغم اختلاف العقيدة.

نحـــن فـــي حاجة إلى إعادة الجانب الروحي إلى حضارتنا الحديثة، وحتى يتم ذلـــك، يكون علينا العودة إلى الجذور القديمة والتي أعتقد أنها تبلورت للمرة الأولى فـــي ثـــورة العمارنة، عندما أدرك الإنسان للمرة الأولى وحدة الوجود الروحي ـــ الذي صار بمثابة النور الذي أضاء ظلام المجهول من حولنا.

وبعـــد حوالـــي ساعة وربع لم أتوقف خلالها عن الكلام، بدون ورقة أو إعداد سابق، سكت. وكانت المفاجأة تصفيقـــاً حادًا لبضع دقائق ـــ ثم تعليقات الحاضرين الذين وافقوا على تفسيري للأحداث، رغم اختلاف ثقافاتهم وعقائدهم.

• • •

المسلمون فى أمريكا بعد ١١ سبتمبر

د. صفى الدين حامد

أستاذ العمارة والتخطيط ـ جامعة تكساس

مقدمة

كـــان يـــوم الـــثلاثاء ١١ سبتمبر يوم رعب وفزع فى تاريخ الأمة الأمريكية. ولأول مـــرة مـــنذ عقـــود طويلة، يتم إعلان حالة الطوارئ القصوى فى أنحاء هذه الـــبلاد. ولكـــن هـــذا اليوم كان له وقع خاص على أحوال العرب والمسلمين الذين هاجـــروا واستوطنوا أمريكا خلال الثلاثين سنة الماضية. وكنت واحدًا ممن عاشوا هـــذه الأيـــام القاســـية بكل تحدياتها وإنجازاتها، ولعل سردى لما حدث من موقعى خـــلال الشـــهور الـــثلاثة الماضـــية، وكيف تعاملت الجالية العربية والإسلامية مع الأحـــداث المـــروعة، التى صاحبت الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمى بنيويورك، وعلى مبنى وزارة الدفاع بواشنطن، لعل ذلك يكون مفيدًا لنا وللآخرين. فهـــى شـــهادة علـــى فترة من أصعب ما يمكن مواجهته لمغترب فى بلاد المهجر، وكـــيف يتعامل الإنسان العادى مع محنة الشك والريبة فى نواياه وارتباطه بالمجتمع المحـــيط بـــه، أو حيـــنما يوضع وحضارته وهويته، بل وعقيدته الدينية، فى قفص الاتهام أمام كل مواطنى دولته التى يحمل جنسيتها ويلتزم بمبادئ دستورها.

يوم لا يُـــنسى

وكما هى العادة، فقد استيقظت فى السادسة للصلاة، واستغرقت فى الإجراءات الروتينـــية مـــن تناول طعام الإفطار وارتداء الملابس وحلاقة الذقن وقراءة الجريدة اليومية، وكنت أعلم أن المحاضرة الأولى التى سألقيها بالجامعة ستكون فى التاسعة والنصـــف، وبـــناءً علـــيه، قررت أن أشرب فنجان القهوة أمام التلـــفزيون. لأسمع

نشرة الأحوال الجوية وأستطلع ماذا يحدث فى العالم العربى من خلال قناة الجزيرة الفضـــائية. وفجأة، وجدت المشهد المهول من نيويورك ولحد أبراج مركز التجارة تلـــتهمه النـــيران، وفجأة وعلى الهواء شاهدت طائرة أخرى وهى تتجه نحو البرج الآخـــر مباشرة، وتصطدم به وسط انفجار هائل وكرة نارية تتطاير شظاياها فى كل اتجـــاه ... وأحسست بانقباض مفاجئ ، وتوقعت أنه لا شك فى أن كل ما يحدث هـــو خطة إرهابية مدبرة، ولكن العواقب الأولى والأتهام الأول سيكون ضد العرب والمسلمين، وستقع الجالية الإسلامية العربية فى أكبر تحد قد يقابلها منذ وصل أول مهاجـــر عـــربى فـــى بدايـــة القرن العشرين إلى أمريكا. وحرصت قبل مغادرتى المنزل أن أوقظ ابنى أدهم، وهو طالب بجامعة تكساس التى أقوم بالتدريس بها منذ حوالـــى أربعة أعوام، وأكدت عليه أن يلتزم الحذر والحكمة خلال مناقشته وتعليقه مـــع زملائه على ما يحدث، حتى تتضح الأمور وتتحقق عمن هو مسئول عن هذه الفاجعة.

وتجمد ملايين الأمريكيين أمام شاشات التليـــفزيون طوال اليوم، وقد خيم عليهم الوجـــوم والخوف من هذا العدو المجهول الذى هاجم بلادهم بقسوة ووحشية، دون مقدمـــات ودون معـــرفة هويـــته. وكانت الإهانة أكبر بكثير من مبلغ المائة مليار دولار الـــتى خسرتها مدينة نيويورك وحدها، أو من المائة ألف وظيفة التى خسرها قطاع المال والأعمال خاصة فى شركات التأمين والطيران والسياحة، كانت الإهانة تمـــس ســـيادة القوة العظمى، وتجرح كبرياءها، وتتحدى قدرتها على حماية رموز سطوتها ومراكز الأعصاب الحساسة، العسكرية، والاقتصادية، داخل عقر دارها.

ونزعـــت نفسى نزعًا من أمام شاشة التليـــفزيون، وقفزت فى سيارتى متوجهًا إلـــى الجامعـــة لألقى المحاضرة، ووجدت سكرتيرات القسم وقد التفقن حول جهاز تلـــيـــفزيـــون صغير، يتابعن دقيقة بدقيقة أهوال ما يحدث فى نيويورك وواشنطن، وفجـــأة انتقلت الكاميرا إلى أحد شوارع المدن الفلسطينية، حيث قامت مظاهرة تهلل وتطـــبل فرحًا لما حدث فى أمريكا(*)، وأحسست بغصة فى حلقى .. يالله .. ماذا حـــدث للمسلمين ؟ أهكذا نتعامل مع مشهد موت الآلاف من الضحايا الأبرياء الذين يلقـــون مصرعهم فى هذا الأتون الجهنمى من النيران ! وعلقت إحدى السكرتيرات،

(*) ثبت فيما بعد أن الشريط ملفق من أحداث سابقة للهجوم.

والـتى لم تلاحظ وجودى فى القاعة: « أغلب الظن أن هذه من أفعال ياسر عرفات ورجالـه» ووسط ذهول الجميع، رددت وأنا أتمالك أعصابى: « لا أعتقد هذا، فأنا واثـق أنـه أكثر ذكاءً من التورط فى مثل هذه الحماقات، لأنه يحتاج مساعدتنا ٠٠ وبـدون موافقة ودعم حكومتنا فلن يستطيع انتزاع حقوقه من إسرائيل»، وانسحبت مسـرعًا إلـى قاعـة المحاضرات ودار فى ذهنى وأنا متجه إلى القاعة، أن الأيام القادمـة ستكون امتحانًا قاسيًا لى شخصيًا، فرئيس القسم الذى أعمل به إسرائيلى أمريكى، ورئيس الجامعة الجديد يهودى أمريكى، والقوى المسيطرة على الساحة السياسـية والاقتصـادية فـى غـرب ولايـة تكساس، حيث أعيش، أكثرهم من المسـيحيين الأصـوليين، والذيـن يؤمـنون إيمانًا عميقًا بأهمية دولة إسرائيل، وارتـباط عـودة المسيح ببناء هيكل سليمان على أرض القدس٠ وعلى الجانب الآخـر مـن المعادلة، فإن الجالية العربية والإسلامية فى هذه المدينة لا تزيد على مائتى شخص، ولم ينجحوا خلال خمسة وعشرين عامًا من تواجدهم فى هذه المدينة مـن تنظـيم صفوفهم أو إقامة مؤسسات أو جمعيات تقوم بتمثيلهم، اللهم إلا مسجدًا يتـيمًا كـان يفـتح أبوابـه مرة فى الأسبوع لتأدية صلاة الجمعة، أو فى الصلوات الموسـمية كالأعـياد أو التراويح، وكان هذا المسجد مدعومًا من عدة أطباء عرب أثـرياء ممن توصلوا إلى قناعة كاملة وغير قابلة للمناقشة، إن الجالية المهاجرة مـن أمثالـنا، يجب أن تبقى فى الظل ولا تفصح عن آرائها أو تحاول الظهور أو التفاعل فى المجتمع الأمريكى، لأنه يرفضها لأسباب عدة، أهمها العنصرية الدينية والعرقية٠ والله وحده يعلم ماذا سيكون موقفهم فى هذه المحنة غير المسبوقة٠

المواجهة الأولى

ودخلـت قاعـة المحاضـرات، وعلـى غير العادة، وجدت الطلبة، والطالبات مبعثريـن فـى مجموعـات صـغيرة فـى أنحاء القاعة حول أجهزة الترانزستور الصـغيرة، أو أجهزة التليـفزيون المحمولة، يتابعون الأحداث والمحاولات المؤلمة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآلاف العاملين فى مركز التجارة العالمى٠ وكان الطلاب فى استغراق كامل وذهول وحيرة، لدرجة أنهم لم يلاحظوا دخولى أو تواجدى على المنصـة، واضـطررت فى النهاية أن أنادى عليهم جميعًا كى يعودوا إلى أماكنهم لأنـنى سـأبدأ المحاضـرة فـورًا٠ ونظـرت إلى مذكراتى فوجدت أن موضوع

المحاضرة سيكون غير مناسب لما يحدث حولنا، فقد كان مقرراً أن نناقش موضوع رفض حكومة الولايات المتحدة للتوقيع على اتفاقية كيوتو، والتى تنص على تخفيض كل الدول لكمية إنتاجها من عادم السيارات وغازات ثانى أكسيد الكربون، والذى يؤثر على طبقة الأوزون. وكانت الحقائق تؤكد أن كل دول العالم وعددها ١٧٩ دولة، يقفون إلى جانب هذه الاتفاقية، بينما ترفضها الحكومة الأمريكية وحدها، رغم أن أمريكا هى أكبر مصدر للتلوث الجوى بين كل دول العالم. ومن خبرتى فى الأعوام الماضية من إعطاء هذه المحاضرة، فإن المناقشات في داخل الفصل، وتحليل التقارير الخاصة بالموضوع، يؤدى دائمًا إلى اقتناع الغالبية العظمى من الطلاب أن سياستنا البيئية ومواقفنا في المحافل الدولية، هى التى تولد الكراهية والحقد ضد الولايات المتحدة والشعب الأمريكى عامة. وقررت أن أؤجل هذه المحاضرة إلى يوم آخر، وتكلمت عن موضوع فنى نظرى يتعلق بإعداد المخططات البيئية ونظم إدارتها. وانتهت المحاضرة وحمدت الله، وأسرعت لأتابع ماذا يحدث على الساحة. واتصل بى أدهم ليخبرنى أن طائرة أخرى مختطفة قد اصطدمت بمبنى البنتاجون فى واشنطن العاصمة، وسألنى عن ريما وقال: «هل تعتقد أن ابنة عمى صلاح بخير؟ » ونزل على السؤال كالصاعقة، فقد تذكرت فجأة أن ابنة أخى تدرس فى كلية الحقوق بمدينة نيويورك، ولا أعرف كم تبعد جامعتها أو شقتها عن هذا الجحيم الذى بدأ من هذا الصباح المزدحم. والتقطت سماعة التليفون لأستفسر عنها فى منزل أخى فى مدينة فيلادلفيا، وكما توقعت فقد كان الخط مشغولا باستمرار، حيث كان أخى وزوجته وابنهما يتابعون البحث ويحاولون فى يأس الاتصال بها والاطمئنان عليها. وبعد الظهر، تلقيت مكالمة منهما أنها بخير وبعيدة عن هذه الأهوال بالطرف الآخر من مدينة نيويورك.

وبدأت العاصفة

وخرجت من مكتبى لأستطلع ماذا يحدث فى الجامعة، ووجدت فى عيون الكثيرين نظرات غريبة لم أعهدها من قبل، كأنهم يرونني لأول مرة، وكانت العيون مليئة بخليط من الحيرة وعدم الفهم، والترقب المريب، ولكتشفت أن إدارة الجامعة قد قررت إلغاء الفصول بقية اليوم، وأنه فى فترة الساعة ونصف التى

قضيتها فى محاولات مضنية للاطمئنان على ابنة أخى فى نيويورك، وجهت إدارة الجامعة الدعوة للأساتذة والعاملين وبعض الطلبة، لحضور اجتماع موسع فى قاعة الاحتفالات، حيث أقيمت صلوات على أرواح ضحايا الهجمة الانتحارية، وألقيت بعض الكلمات من أطراف عدة للتعبير عن الحزن والاستياء لما حدث. وتساءلت فى نفسى: « لماذا لم أتلق دعوة للحضور مثل بقية زملائى فى أعضاء هيئة التدريس ؟ كيف يكون هذا؟ أهو خطأ غير مقصود فى زحام وهول الأحداث ؟ أم تلميح عن قصد وعمد ؟ » وكان الأغرب. أننى ــ بعكس أغلب الأساتذة المسلمين والعرب الآخرين ــ معروف لدى الإدارة، نظرًا لتحملى مسئولية الإشراف على منظمة الطلبة العرب ومنظمة الطلبة المسلمين فى جامعة تكساس. وغمرنى إحساس بانقباض شديد، فيبدو أن المحنة قد بدأت، ولن ما سيأتى قد يكون أكثر، فالعاصفة قد تمس كل الاتجاهات من الآن فصاعدًا.

وجلست إلى مكتبى ونظرت إلى شاشة الكمبيوتر، ووجدت مجموعة من الرسائل الإلكترونية تصلنى دفعة بعد أخرى من المنظمات الإسلامية والعربية، وكلها تستنكر ما حدث، وترسل تعزيات إلى الشعب الأمريكى عامة وإلى أسر الضحايا خاصة. وكان واضحًا من لهجة هذه البيانات أن القيادات الإسلامية وقيادات منظمات العرب الأمريكيين، تحاول بشتى الطرق احتواء مضاعفات المأساة البشعة، وتقليل ردود الفعل المنتظرة على هذه الجاليات، التى وضعتها الظروف فى موقف لا تحسد عليه. وأحسست أن من واجبى أن أنبه الجالية العربية والإسلامية فى المدينة التى أعيش بها بما يحدث على مستوى القيادات، والتوجيهات التى توصى بها مراكز الجمعيات الإسلامية والعربية فى واشنطن من جميع العرب الأمريكيين والمسلمين الأمريكيين تحسبًا لما قد يحدث فى الأيام القادمة. وشكرت الله أننى وجدت قائمة بعناوين البريد الإلكترونى لأكثر الموجودين فى هذه المدينة، فأخذت فى توزيع الرسائل القادمة من اللجنة الإسلامية الأمريكية، مثل تشجيع الجالية على التبرع بالدم، وعلى تنظيم ندوات مفتوحة فى المساجد للتعرف على حقيقة الإسلام، والتأكيد على نبذ الإرهاب وتقديس ديننا الحنيف للنفس البشرية، وحرمة إزهاق أرواح الأبرياء. وكنت فى دوامة من محاولة تجميع المعلومات عما حدث، والتفكير فيما يمكن أن تكون عواقبه على

الجميع. وبين تعبئة الجهود فى جالية لا يوجد بها أى تنظيم أو قيادة فعلية، خاصة فى إدارة الأزمات والكوارث.

ووصلت منزلى حوالى الساعة السابعة مساءً وأنا منهك القوى، وكما توقعت فقد وجدت زوجتى وابنى ملتصقين بشاشة التليفزيون، وفيضان من الأخبار على مئات القنوات ينهمر من شتى محطات البث التليفزيونى. ومن وسط هذا الكم الهائل من التغطية الإعلامية، بدأت بعض الخطوط العريضة تتضح لى شيئًا فشيئًا، وكانت هذه الاتجاهات تشمل الآتى :

١ ــ شعور عام بالحزن والقهر والخوف من المجهول.

٢ ــ إحساس بالإحباط للفشل الذريع الذى تعرضت له كافة أجهزة الأمن والمخابرات الأمريكية على يد مجموعة الإرهابيين.

٣ ــ الإحساس بالمهانة الشديدة، نظرًا لوضوح أن كثيرًا من شعوب العالم تكره أمريكا والأمريكيين.

والواقع أن الهجمات البربرية التى حدثت فى ١١ سبتمبر، كانت أكبر لطمة تلقتها الولايات المتحدة الأمريكية منذ مولدها قبل قرنين من الزمن، وكانت المعاناة والآلام على المستوى القومى والشخصى بالغة الحدة، لدرجة أن أحد مذيعى التليفزيون، والمشهور بصرامته وثباته فى عرض أكثر الأخبار المأساوية برباطة جأش وتماسك، انهار أمام عدسات الكاميرا وتدفقت دموعه على الملأ.

دقات طبول الحقد

وفى وسط هذا الخضم المختلط من المشاعر الإنسانية، بدأت أصوات قبيحة تظهر على السطح، وبدأت بعض وسائل الإعلام ومحترفى السياسات المشبوهة بث سمومهم وإطلاق العنان لحملة كراهية على الإسلام والمسلمين، وعلى الدول العربية، وحتى المواطنين الأمريكيين من أصل عربى. وكانت الإشارة الأولى عندما ظهر آريل شارون على شاشات التليفزيون وبعد ساعات قليلة من الهجمات، ليعلن أن إسرائيل قررت الحداد لمدة ثلاثة أيام حزنًا ومشاركة للشعب الأمريكى الصديق. وكانت المفارقة واضحة، فها هى البلد الصديق تتعاطف مع

للشعب الأمريكى فى محنته، بينما بعض العرب يهللون ويصفقون لما تكبدته أمريكا من خسائر بشرية ومادية.

والحق يقال، إنه بالرغم من ضخامة واتساع حملات الكراهية ضد العرب والمسلمين فى أمريكا، فإن جموع الشعب الأمريكى العريض، رفض هذه النغمات الحاقدة، والتف بتلقائيته المعهودة حول هذه الجاليات، التى وضعتها ظروفها التعسة فى قفص الاتهام، بل ودافع عنها قبل أن تفيق هى من الصدمة لتدافع عن نفسها !.

ولعل الأسابيع التالية لفاجعة ١١ سبتمبر ستظل عالقة فى أذهان كل من يحاول فهم هذا المجتمع الأمريكى الضخم، والذى أصبح يؤثر بل ويتحكم فى كثير من معطيات الأمور فى العالم أجمع. فلا شك أنه من الظلم الشديد، بل من السذاجة المطلقة، أن يحاول المرء تعميم الحكم على خصائص هذا الشعب، ففى وسط هذه المحنة العظيمة، ظهر الشىء ونقيضه فى كل أمر من أمور الحياة. رأينا شجاعة منقطعة النظير بين رجال المطافئ فى نيويورك فى مواجهة ألسنة اللهب المشتعلة وسحابات الدخان الخانق خلال الركام والجثث المحترقة، حتى فقد أكثر من مائة شخص منهم حياته وهو يؤدى وظيفته ببسالة نادرة، وعلى الطرف النقيض، وجدنا الجبن الشديد والخوف الذى ملأ الكثير من القلوب من كل أجنبى، حتى لقى أكثر من عربى مصرعه على يد بعض المتعصبين الحاقدين، ومنهم عامل بسيط يعمل فى محطة وقود فى الجنوب الأمريكى. وقد وصلت الجرائم المسماة بجرائم الحقد فى الأسابيع الثلاثة الأولى إلى أكثر من ألف جريمة مسجلة فى وثائق وكالة المباحث الفيدرالية (FBI) كلها ضد العرب والمسلمين. وكانت هذه الفترة اختبارًا قاسيًا لنوعية وقدرة المسلمين والمسلمات فى أمريكا، وتعبيرًا عن التناقض الصارخ داخل الإنسان الأمريكى والمجتمع الأمريكى. ورغم أننى عشت فى هذه البلاد ما يزيد على الثلاثين عامًا، لكنى لم أشاهد بوضوح شديد هذا التناقض فى الأمزجة والأساليب وطريقة الحكم على الأمور، كما شاهدته بعد أحداث ١١ سبتمبر. وعندما أسترجع فى خواطرى ما حدث فى الشهور الثلاثة الأخيرة، أجد نفسى أتذكر ــ بدون قصد ــ أحد الأفلام السينمائية الأمريكية التى شاهدتها وتأثرت بها عندما كنت طفلا صغيرًا فى مصر. وكان الفيلم من بطولة

الـنجم المشهور سـبـنسر تراسى، وكان عنوانه « دكتور جـيكل ومستر هايد » وكانت قصة الفيلم تدور حول طبيب أمريكى، ونجاحه فى تحضير عقار يؤثر على تكويـن شخصيته، فيتحول من طبيب مثالى ومتميز بمشاعره الإنسانية تجاه مرضاه والمجتمع المحيط به، إلى مجرم تمتلئ نفسه بكل مشاعر الشر والعدوانية. وبالفعل فـإن أمـريكا بعد هجمات نيويورك وواشنطن الإرهابية، قد عكست أسطورة هولى وود القديمـة عن كيف يختلط الخير والشر فى جسد واحد، ولا شك أن سـبـنسر تراسـى قد ارتبط فى أذهان العالم بأنه من العمالقة الذين عبروا عن أمريكا والرجل الأمـريكى والوجـه الجمـيل لأمريكا فى بعض أفلامه، وعلى الأمريكى القبيح فى أفلام أخرى.

الوجه الجميل

لاشـك أن الأعـوام العشـرة الماضـية، والتى قضيت معظمها فى العاصمة واشـنطن، حيـث كنـت أعمـل فى البنك الدولى قبل انتقالى للتدريس فى جامعة تكساس، لا شك أنها كانت من أروع الفترات للإسلام والجالية المسلمة فى أمريكا. حيث شهدت الساحة السياسية والإعلامية والاجتماعية انتشارًا غير مسبوق لهذه الجالـية الجديدة، واعترافًا رسميًا بوجودها. وتمثل هذا فى تنظيم حفلات إفطار رمضـان وحفـلات أعـياد الفطر والأضحى فى داخل البيت الأبيض ومع أعضاء الكونجـرس، وتعيين الكثير من الأئمة فى القوات المسلحة الأمريكية، وكثير من مناصـب الحكومـة المـرموقة. أما على المستوى الجماهيرى، فقد وصل عدد المسـاجد إلى ما يقرب من ١٥٠٠ مسجد فى أنحاء أمريكا، وأنشئ ما يزيد على ١٥٠ مدرسة، تضم ١٢ صفا، وجامعتان إسلاميتان، ووصل عدد المسلمين الذين يعملـون فـى قطاع المال والأعمال والتجارة ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ من واقع الـتعداد العام الذى يعتقد الكثير أنه وصل إلى ما يزيد على ٦ ملايين. ولم يكتف المسلمون فى أمريكا بالدعوة من خلال المساجد والمدارس، بل بدأوا كذلك شبكة إذاعية إسلامية تبث فى الساحل الشرقى، وتصل عن طريق الإنترنت لجميع أنحاء القـارة. كـل هذا يتم ويتواصل بموافقة وتحت سمع وبصر الحكومة الأمريكية، وبهذا أصبح واضحًا لكل مسلم منصف وعادل، أن الحرية الدينية التى يتمتع بها

هو وأهل بيته، تعادل أضعاف أضعاف ما يحصل عليه أخوه وعائلته فى شتى بلاد المسلمين. ألا يدل ذلك على أن المهجر الأمريكى هو دار من دور الإسلام ؟

وحتى بعد الهجمات الإرهابية صبيحة ١١ سبتمبر المشهورة، فقد استمرت روح التسامح والكرم تسطع من هنا إلى هناك، وفى شتى أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية، وأصبح واضحًا فى أذهان الكثيرين من مسلمى أمريكا، معنى الآية الكريمة :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

فقد ظهر اهتمام شديد ومفاجئ للتعرف على الدين الإسلامى وأحكامه، وزاد الطلب على عقد حوارات بين الدين الإسلامى وشتى طوائف الكنائس المسيحية فى أمريكا، فأصبحت العبادات والأركان والمفردات الإسلامية جزءًا من الثقافة العامة للمواطن الأمريكى، يعرفها ويسأل عن تفاصيلها، وكلما تزايدت حدة الحملة الهوجاء التى تظمتها العناصر الموالية لإسرائيل واليمين المسيحى المتطرف، كلما التفت المجموعات الأمريكية المعتدلة والتصقت بجيرانها وزملائها وأصدقائها من الجالية العربية والإسلامية فى أمريكا وكانت هذه الملحمة الرائعة من التواصل والترابط الإنسانى بلسمًا لجرح غائر أحسست به أنا شخصيًا، لارتباطى على مدى ثلاثة عقود بالعمل الإسلامى والعربى فى أمريكا وكندا، حيث حرصت كأستاذ جامعى أن أحاول تقديم الحضارة العربية والإسلامية من خلال دراساتى وأبحاثى ومحاضرات وعشرات المؤتمرات والمقالات والندوات التى شاركت فيها عبر ثلاثين عامًا ــ وأحسست يوم ١١ سبتمبر أن كل ما ساهمت به ضاع سدى، ولكن بمرور الأيام، تنبهت إلى أن الله لا يضيع عمل عامل وأن الكلمة الطيبة مثل الشجرة الطيبة.

وكان رنين التليفون لا ينقطع ليلا أو نهارًا فى مكتبى بالجامعة أو بمنزلى، وانهالت الطلبات على مسجد المدينة من الكنائس والمجموعات النشطة فى المجالات الثقافية والمدارس والمعاهد، وكانت التحديات شديدة، فالشيخ الذى تم تعيينه فى المسجد منذ شهور لا يتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة، ولم يمض عليه فى أمريكا مدة كافية ليفهم هذا المجتمع، والطلبة الوافدين فى رعب من احتمال

ترحيلهم، وبقية المهاجرين القدامى لم يتمرنوا على مواجهة الجماهير، أو على التعامل مع وسائل الإعلام .. ووجدت نفسى ــ فئة قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة ــ أتحرك من لقاء إلى آخر، فمن برامج إذاعية مفتوحة على الهواء، لأكثر من مقابلة تليفزيونية، للظهور أمام مجلس المدينة، واللقاء محاضرة على أكبر تجمع مسيحى فى المدينة، والحوارات الأسبوعية مع مجموعتين من مجموعات الحوار بين الأديان.

رحلة النصف قرن

وكانت قمة سعادتى فى يوم الإثنين ١٧ سبتمبر، عندما شاهدت الرئيس الأمريكى بوش على شاشة التليفزيون وهو يخلع حذاءه قبل دخوله مسجد المركز الإسلامى فى واشنطن، ثم يقف مع جمع من المسلمين الذين كانوا فى استقباله، ويقرأ لهم آيات من القرآن الكريم. ورجعت بذاكرتى إلى سنين طويلة حينما كنت أقوم بكتابة بحث عن المبانى الإسلامية فى أمريكا، واكتشفت أن الرئيس الأمريكى الوحيد الذى دخل مسجدًا هو الرئيس دوايت أيزنهاور، عندما جاء لحضور حفل افتتاح المركز الإسلامى فى واشنطن عام ١٩٥٧م. واستغرقت فى التأمل .. **لقد مضى خمسون عامًا من الزمن، وأمريكا والعرب والمسلمون فى مواجهات وتحالفات وكر وفر ومعاهدات وحروب .. ألم يحن الوقت الآن للتفاهم والفهم والصداقة والاحترام المتبادل ؟** وكانت زيارة الرئيس لمحة مضيئة وتعبيرًا عن الوجه الجميل لأمريكا، بكل القيم الديمقراطية التى كانت من أسس إقامة دولتها وقوة مشروعها السياسى وعقدها الاجتماعى الناجح. وكثرت الجالية العربية والإسلامية هذه اللفتة النبيلة، واقتنعت بحكمة قرارهم ــ منذ عام تقريبًا ووسط حرارة الانتخابات ــ أن يتكتلوا ويعطوا أكثر أصواتهم إلى جورج بوش ضد منافسه العنيد آل جور، والذى كان يعرف أنه صديقٌ حميمٌ للمجموعات المؤيدة لإسرائيل طوال حياته السياسية. وكان من أهم إنجازات زيارة بوش للمركز الإسلامى، أنه أعلن من هناك أنه مقتنع تمامًا أن الإسلام دين سلام ومحبة، وأنه من غير اللائق أن تستمر وسائل الإعلام الأمريكية فى ترديد عبارات فجة مثل الإرهاب الإسلامى أو المسلمين الإرهابيين.

وعلى المستوى الشخصى، فأعترف أن الوجه الجميل لأمريكا زاد إشراقًا

خلال الشهور الثلاثة الماضية من موقعى هنا فى مدينة لوبوك بغرب ولاية تكساس، وهى مدينة لا يزيد تعداد سكانها على مائتى ألف نسمة، وتقوم اقتصاديًا على زراعة القطن، وقطاع إنتاج اللحوم ومراعى الأبقار، وعلى المدينة الجامعية الضخمة، والمجمع الطبى التابع لها. وأذكر أننى تلقيت مكالمة فى الليلة الأولى بعد الهجوم الإرهابى مباشرة من راعى كنيسة سان جون وزوجته، وهى أكبر وأهم كنائس المدينة، ليؤكدا وقوفهما وأعضاء كنيستهما إلى جانب الجالية الإسلامية فى المدينة، واستعدادهما للرد على كل التيارات التى بدأت فعلا فى بث حملات حقد وكراهية ضد الإسلام والعرب الأمريكيين، وشكرتهما بتقدير وعرفان على مشاعرهما. وفى الصباح وجدت رسالة إلى المحرر بالجريدة اليومية، تتضمن نفس المعانى النبيلة بتوقيعهما، وحمدت الله أن هناك من يحمل مبادئه بجدية وعزم مثل هؤلاء الناس.

وفى صباح اليوم التالى، أعلن رئيس الجامعة قراره بتكوين لجنة لدراسة إجراءات مكافحة الإرهاب فى ولاية تكساس، بناء على طلب محافظ الولاية، وزارتنى فى مكتبى رئيسة اللجنة(*)، وهى أستاذة بكلية الحقوق لتستطلع وجهة نظرى، وصارحتها أن أهم خطوات مكافحة الإرهاب من خلال الفهم الصحيح لثقافات وعقائد الشعوب الأخرى التى نتعامل معها أمريكا، وتوعية كافة طبقات المجتمع بآمال وآلام الأمم الأخرى.

أول الغيث قطرة

ويبدو أن هذه المقابلة كانت مفتاحًا لتطورات كثيرة لاحقة، وكما اتضح لى فيما بعد، أن القيادة المسئولة فى الجامعة كانت حائرة، بل فى حالة شلل فيما يجب عليها عمله تحت هذه الظروف القاتمة، وخاصة بعد إعلان الرئيس بوش أن أمريكا فى حالة حرب. وكانت المعضلة أن الحرب معلنة، ولكن غالبية الشعب الأمريكى لا يعلم من هو العدو ؟ وأين ستكون ساحة المعركة ؟ بل إن الكثيرين من القيادات السياسية على مستوى الولايات والمدن، لا يدرون من أى مكان يبدأون تعبئة

(*) الدكتورة فيكتوريا ساتون Vicktoria Sutton، وهى أستاذة للقانون الدستورى وقوانين البيئة، وكانت تعمل فى البيت الأبيض كمستشارة قانونية للرئيس جورج بوش الأب، قبل انضمامها لهيئة التدريس فى جامعة تكساس.

جهودهم لمساعدة وطنهم، وفى أى اتجاه يجب أن يسيروا بهذه الجهود. ومن المؤسف حقا أن المسئولين عن الطلبة الأجانب فى الجامعة، بادروا بإرسال تعميم على المنظمات الطلابية المختلفة ـ بما فيها منظمة الطلبة العرب ومنظمة الطلبة المسلمين ـ تنصحهم بالالتزام بالصمت والجنوح إلى الظل حتى تمر العاصفة بسلام. وقد كان هذا جانبًا من جوانب التسرع الأحمق، فقد كانت هذه الفترة أكثر فترة طالب فيها الرأى العام الأمريكى بمعلومات أكثر وأوضح عن الإسلام والمشاكل الساخنة فى منطقة الشرق الأوسط، مثل فلسطين والحظر الشامل المفروض على العراق، وأهمية المنطقة العربية للسياسة والاقتصاد فى أمريكا، خاصة بعد ما شاهدوا رئيسهم يعلن الحرب فى خطابه بالكونجرس ليلة ١٤ سبتمبر، ثم يعلن وزير العدل فى صباح ١٥ سبتمبر أن المتهم الأول هو «أسامة ابن لادن»، ثم يزور الرئيس فى يوم ١٧ سبتمبر المركز الإسلامى ويجتمع بقيادات المسلمين فى أمريكا. وكانت الأحداث تتلاحق والمواطن الأمريكى البسيط يقف حائرًا بين طوفان من الإعلام المغرض الذى يصور له أن الإسلام والعرب هم العدو الأول والأخير، وبين قيادة سياسية وروحية تصر على أن العرب الأمريكيين والمسلمين الأمريكيين جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع الأمريكى، وأن ما يحدث هو حرب على الإرهاب وليس حربًا على الإسلام. وكانت الطامة الكبرى، ليس خوف الطلبة المسلمين والعرب الوافدين من كل بقاع الأرض لاستكمال تعليمهم فى أمريكا، ولكن الطامة الكبرى كانت فى غالبية العرب والأمريكيين المسلمين الذين اجتاحهم الرعب، وبدأوا فى اتخاذ قرارات حمقاء، فمنعت سيدة أمريكية الجنسية مصرية الأصل أبناءها فى سن المراهقة من تأدية صلاة الجمعة فى المسجد، وخلعت بعض السيدات الحجاب الإسلامى، بينما امتنعت الأخريات عن الخروج من مساكنهن إطلاقًا، وقررت بعض القيادات غلق المساجد لمدة أسابيع، أو تعطيل مدارس القرآن وتعليم اللغة العربية حتى تهدأ الزوبعة، بل امتنع البعض من الاتصال برجال الأمن، بالرغم من تحرش بعض الأفراد المتعصبين بهم وبأولادهم فى الحياة العامة.

ومرة أخرى يشرق الوجه المضيء للمجتمع الأمريكى المفتوح، ويطلب الرئيس بوش من الدكتور مزمل صديقى، وهو من القيادات اللامعة للجالية

الإسلامية، أن يصاحبه مع ممثلى الديانات الأخرى لصلاة جماعية على أرواح ضحايا أحداث ١١ سبتمبر فى الكاتدرائية القومية بواشنطن، ويهدى الدكتور مزمل نسخة من ترجمة معانى القرآن الكريم للرئيس الأمريكى، ويطلب منه أن يقرأ فيها يوميًا كما يفعل مع الكتاب المقدس. وبعد هذه المقابلة بأيام، اجتمعت فى واشنطن النقابة الأمريكية للصحافة الدينية، وحضر الاجتماع ٢٤٠ من رؤساء الصحف وقاموا بالتصويت بالإجماع على الامتناع عن استخدام ألفاظ مثل إرهابى مسلم أو عربى إرهابى فى الصحف والمجلات التى يقومون على إدارتها. وعلى صعيد آخر، فقد نددت قيادات الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية بالتصرفات المتهورة والتصريحات العدوانية التى تصدر عن قلة من المتعصبين والأصوليين المسيحيين واليهود ضد المسلمين والعرب فى أمريكا.

وكما هو متوقع، فقد كانت أكثر الصور إشراقاً بين الشباب الأمريكى، الذى يتمتع بشتى أنواع الحريات فى الرأى والتفكير والعمل السياسى والاجتماعى، كما يمليه عليه عقله وضميره. فقامت مجموعة كبيرة من الطالبات المسيحيات واليهود بارتداء الحجاب الإسلامى تضيدًا للطالبات المسلمات فى جامعة متشجن، وتذكيرًا لكافة طوائف المجتمع أن حرية العقيدة والعبادة هى ركن أساسى وجوهرى من أركان الدستور الأمريكى، وأنه من حق، بل من واجب السيدات المسلمات فى أمريكا أن يمارسن حياتهن العامة والدينية بدون أى تحفظات، وبدون خوف من تحرشات المتعصبين.

أما فى مدينة واشنطن، فقد كانت الساحة الخضراء فى وسط الجامعة الأمريكية مسرحًا لمشهد أكثر إثارة، فقد التف مئات الطلاب المسيحيين واليهود على شكل جدار بشرى لحماية زملائهم الطلبة والطالبات المسلمين أثناء تأديتهم صلاة الجمعة، من أى إزعاج غير متعمد أو تحرش عنصرى.

ولا شك أن تدفق المعلومات قد سهل عملية استيعاب الرأى العام الأمريكى، لأن ضحايا حوادث ١١ سبتمبر، كان بهم عدد كبير من المسلمين قد يزيد على ٤٠٠ شخص. وإلى جانب هذا، فإن الكثيرين من الضحايا كانوا يعملون بدون أوراق رسمية وبدون تصريح عمل وبدون علم وكالات الهجرة والجوازات بهم، وبناءً عليه فلن يتلقى أحد من ذويهم أى تعويض أو تأمين التزست به السلطات

المسئولة تجاه المواطنين الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم. ومازالت برامج الإذاعة والتليفزيون تستعرض أحوال عائلات المسلمين الذين لقوا حتفهم فى مبنى التجارة العالمى من أمثال: طلعت حسين، جمعة حق، تيمور خان، عبد الصمد أفريدى، عمر ناموس، أسعد سمير، نسيمة سيمجى، قاسم على خان، أعظم أحسان، ومحمد شودرى، مما أثار مشاعر الكثيرين من الأمريكيين وقناعتهم أن الإرهابين لم يفرقوا بين أمريكى مسيحى وآخر مسلم عندما انقضوا بهجماتهم على أهداف مدنية بحتة، كأبراج مركز التجارة العالمى.

حلم يتحقق

اندهشت منذ انتقالى إلى جامعة تكساس من خلو المناهج فى شتى كليات هذا الصرح الكبير التعليمى من أى دراسات أو مواد دراسية عن العالم العربى والإسلامى أو حتى عن ثقافة وجغرافية الشرق الأوسط. بل إن قسم اللغات الأجنبية، ويرأسه أستاذ عربى من الجزائر، لا يتضمن أى مادة لدراسة اللغة العربية ! ومما يدعو للعجب أيضاً، أن الجامعة تضم مركز أبحاث لدراسات المناطق الصحراوية، ويُعتبر من أشهر المراكز فى العالم، إلا أنه لا يحتوى على مواد متخصصة عن صحارى الشرق الأوسط وثرواتها النفطية والمعدنية، وما لها من أهمية فى اقتصاديات الولايات المتحدة. وكما يقول المثل العربى : « رب ضارة نافعة »، فقد أفلحت أحداث سبتمبر المؤلمة أن تدق بعض الأجراس، وتنبه الأوساط الأكاديمية، أن زعامة أمريكا للعالم لن تتم إلا إذا وعى الشباب الأمريكى بحضارات وثقافات الشعوب الأخرى، والتى تؤثر وتتأثر بما يحدث فى القارة الأمريكية. وبعد أقل من شهر، دعت إدارة الجامعة بعقد اجتماع لبعض الأساتذة من كليات مختلفة، حيث تم إعلان قرار بتدريس مادة اللغة العربية ابتداءً من الفصل الدراسى القادم، وعن عزم الجامعة على إنشاء قسم خاص لدراسات الشرق الأوسط، حذوًا بالجامعات الأمريكية المرموقة، مثل جامعات هارفارد، بنسلفانيا، جورج تاون، شيكاجو، وبيركلى. وبسرعة غير عادية، صرح عميد كلية العلوم والآداب أن نواة هذا القسم ستكون سلسلة من المواد الدراسية تحت اسم « العالم الإسلامى والغرب » وتم ترشيحى مع نخبة أخرى من أساتذة الاقتصاد، العلوم السياسية، التاريخ، الجغرافية، التجارة، الفنون، الأنثربولوجى، للمشاركة

فـى تدريس هذا العلم الجديد مع بداية يناير ٢٠٠٢م. وعند إعلان هذا الخبر على الجالـية الإسلامية فى المدينة، لم يصدق أكثرهم هذا الخبر، فقد عاشوا طوال الربع قـرن الماضـى تحـت اعـتقاد خاطئ، أن الجامعات الحكومية غير مسموح لها الـتعرض لدراسـة الأديان، عملا بمبدأ الفصل بين الدين والدولة، وتحت اعتقاد أن الشـعب الأمريكى لا يكترث بما يحدث فى الشرق الأوسط، ولا يرغب فى معرفة أى شـىء عن الإسلام أو المسلمين. وكانـت الأرقام القياسية لأعداد الطلبة الذين طلـبوا تسجيلهم فى هذه المادة، يفوق كل توقعات المسئولين فى الجامعة، بل إن الكثيريـن من القساوسة ورعاة الطوائف الدينية، طلبوا أن يسمح لهم ــ بطريقة استثنائية ــ بالالتحاق، أيضًا فعل نفس الشىء بعض العاملين بالصحافة ووسائل الإعلام الأخرى

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾

آفاق مستقبلية

تعمـدت فـى هذا العرض السريع لأحداث جمة أن أتفادى التعليق على الوجه القبـيح لفـترة ما بعد ١١ سبتمبر، فقد تناولتها الصحف اليومية كعادتها باستفاضة وإثـارة، بـل ونـددت بعض الحكومات العربية والإسلامية ببعض جوانبها، مثـل سـوء معاملـة المواطنين السعوديين فى المطارات الأمريكية، أو حجز مجموعات كبـيرة مـن المصـريين قيد الاعتقال. واعتقادى أن هذه الإجراءات التعسفية أمرٌ مؤقـت، وأن المجـتمع الأمـريكى بقـدر اندفاعـه وردوده الجامحة، قادربنظامه الديمقـراطى علـى أن يصـلـح عثراتـه ويصحح مساره، بل ويعترف بأخطائه ويدفع ثمنها راضيا وعن قناعة..

والـذى يدور فى ذهنى ويدعو إلى القلق، ليست هذه الفترة التى تسودها ردود فعل عصبية، ولكن ماذا ستجيء به الأيام فى المستقبل ؟

هـل تسـتطيع أمريكا أن تصل إلى صياغة جديدة لعلاقاتها مع العالم العربى والإسلامى ؟ صياغة تقوم على أهمية تحقيق السلام من خلال قناعة كاملة بأهمية العـيش المشـترك والـتعاون بين الأمم القائم على الفهم والوعى بالخصوصيات الحضارية والثـقافية لكل مجتمع؟

وهـل تستطيع الدول العربية والإسلامية أن تساهم بكفاءة وجدية فى عملية صياغة المستقبل ؟

وهل تستطيع الجالية الإسلامية والعربية فى المهجر الأمريكى أن تستفيد من دروس ١١ سبتمبر وما حدث بعده وقبله ؟

كـل هـذه الأسئلة تدور فى آفاق مستقبلية، ولا يعلم المستقبل إلا الله . شىء واحـد قد تأكد لى، وهو أن الشعب الأمريكى شعب ذكى، ويتميز بإحساس إنسانى فـريد، واستعداد فطرى لأن يتقبل الأفكار الجديدة، وأن يتـقبل الآخر. فهو شعب مخـتلط من مهاجرين من كافة الأديان واللغات والأصول العرقية والألوان .. ولذا فـإن السـؤال الـذى يـدور فى قلب وعقل كل أمريكى سيظل عالقًا وسيطفو على السـطح إن عـاجلا أو آجـلا بعـد انفراج الأزمة وانتهاء العمليات العسكرية فى أفغانستان.

وحقـيقة الأمـر، أن هـذا السـؤال هـو مفتاح المستقبل فى القرن الواحد والعشـرين ولا يوجد من يستطيع الإجابة عليه سوى الأمريكى ذو الوجه الجميل عندما ينظر إلى المرآة ويسأل : « لماذا يكرهنى العالم »؟

* * *

ما بعد ١١ سبتمبر ...

د. ماهر حتحوت
مستشار الهيئة الإسلامية
للشئون العامة MPAC

فيما بعد يوم ٩/١١ الفاصل، هناك يومان ذوا أهمية قصوى بشأن التواجد الفعال للمسلمين فى أمريكا، بل ويلخصان الموقف الحالى تلخيصًا بليغًا.

لما أولهما فهو الأربعاء ٢٠٠١/١٢/١٢م. فى صبيحة ذلك اليوم الباكرة، تلقيت مهاتفة من مسئول فى مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI، يطلب مقابلتى بعد ساعة بمكتبى بالمجلس الإسلامى للشئون العامة (MPAC). وخلال هذا الاجتماع الخاص، الذى ضم كذلك رئيس تحرير مجلة المنارة ــ The Minaret Magazine ومدير المجلس، أخطرنا المسئول أنه تم اعتقال رئيس هيئة الدفاع اليهودية بأمريكا ومساعده بتهمة الإعداد لنسف مكتبنا ونسف المركز الإسلامى لجنوب كاليفورنيا الذى يقع غير بعيد من المكتب، كما يظن أيضًا احتمال استهداف عضو الكونجرس « داريل عيسى » وهو من أصل لبنانى، وكذلك مسجد الملك فهد بالمنطقة الغربية من مدينة لوس أنجيلوس. ورغم حرص ذلك المسئول على إبقاء المعلومات فى أضيق الحدود، إلا أننا استخرجنا منه أن موعد الضربة كان مزمعًا حول يوم العيد، وأن المؤامرة كانت مرصودة من أول شهر أكتوبر، غير أن القبض ألقىَ حين تم شراء مكونات القنبلة وتجميعها فى بيت واحد، وأن المؤامرة اكتشفت لأن أحد أعضاء الخلية كان عميلا لمكتب التحقيقات الفيدرالى. وعلمنا كذلك أن عدة أسماء قد ذكرت كأهداف محتملة، وأنه قد تم تسجيل كل ذلك خلال أجهزة إنصات كانت قد أودعت فى بيوت المتهمين.

وهيئة الدفاع اليهودية هذه منظمة صهيونية متطرفة، أسسها الحاخام «كاهانا» المقتول منذ عقد من الزمان، الذى طالما نادى بوجوب طرد العرب من فلسطين أو إبادتهم جميعًا. وهى متورطة فى اغتيال الشاعر الفلسطينى « ألكس عودة »، الذى

اغتيل بقنبلة فى مكتبه فى الثمانينيات، ولها معنا تاريخ عدائى طويل، بل وإن هذا المدعو « روبين » ــ رئيس هيئة الدفاع اليهودية ــ قاطع محاضرة لكاتب هذه السطور فى الجامعة اليهودية، وصرح على الملأ بوجوب قتلى، وعندما أبلغ ذلك للجهات المسئولة على أنها جريمة تهديد بالقتل أمام الجمع الغفير من الشهود .. أخطرنا أن ذلك يندرج تحت بند حرية التعبير التى يحميها الدستور، إذ إنه قال: «إن القتل واجب ولم يقل إن القتل سيقع ! ».

ومنذ أن أعلنت السلطات عن المؤامرة والتداعيات تتوالى، فى الساعات الأولى قيل: إن القبض على المتهمين تم لعلاقتهما بقضية اغتيال « ألكس عودة » التى لم تزل مفتوحة، ثم أعلن أن الهدف الرئيسى كان مكتبنا والمركز الإسلامى واحتمال استهداف مسجد الملك فهد، ثم أضيف مكتب عضو الكونجرس إلى قائمة الأهداف، ثم بقدرة قادر اختفى اسم مكتبنا والمركز الإسلامى من شاشة الرادار ولم يذكر بعد ذلك فى وسائل الإعلام، التى والت التركيز على عضو الكونجرس وعلى مسجد الملك فهد. ورغم أنى لا أجد تفسيرًا محددًا لهذا التطور، إلا أنه تغير حقيقى وملحوظ، ويدل على أن وسائل الإعلام وطرق تسويق الأخبار وتوزيع بُؤَر الضوء عليها، ليست عفوية ولا عشوائية، ولكن وراءها ما وراءها.

ولم ينقض اليوم الأول إلا وقد دعت المنظمات اليهودية الرئيسية لمؤتمر صحفى شجبت فيه المؤامرة، وأدانتها، وتنصلت تمامًا من هيئة الدفاع اليهودية وفكرها وأعضائها، بما لا يدع مجالا لصبغ يهود أمريكا بعار أول مؤامرة إرهابية يهودية على الساحة الأمريكية، بل وسارعت بالاتصال بمسجد الملك فهد ومكتب عضو الكونجرس .. مع إغفالنا عمومًا .. للتعبير عن الصدمة والاستنكار.

بل وفكر بعضهم من الاستفادة من هذا الموقف إلى التلميح إلى الفرق بين هذا الموقف مقارنة بتردد معظم المسلمين فى استنكار حوادث « الإرهاب » التى يقوم بها مسلمون !

وفى ظهيرة يوم الجمعة التالى .. وكان يومًا مطيرًا زمهريرًا .. فوجئنا وقت صلاة الجمعة اليتيمة، بمجموعة متعددة الأديان يصحبها قادة من حركات الدفاع عن الحريات المدنية ومكافحة التمييز، تصطف أمام المسجد فى الطريق تحت المطر الهاطل، لتعلن عن تحالفها معنا ضد الإرهاب وأنها ستقف لتمثل

«جـدارًا مـن الحـب » ليحمى المسلمين أثناء الصلاة، من بين الموجودين امرأة عجـوز نحيلة على كرسى المقعدين ذى العجلات ٠٠ لما عرضت عليها أن تدخل إلـى المعبـنى وقاية من البرد والمطر رفضت قائلة: إنها جاءت ليراها الناس فى الشـارع العـام، لا لترى برواد المسجد، وقد تدافعت وسائل الإعلام لتسجيل هذه اللقطـة التاريخية، وألقى مندوب المجموعة، وهو قس من زملاء « مارتن لوثر كنج » زعيم الأمريكان السود الذى اغتيل فى أوائل الستينيات ٠٠ وأعرب القس عن شجبه للمؤامرة الدنيئة٠ وعن محاولة تهميش المسلمين أو إرهابهم من أية جهـة وعلـى أى صـعيد، ثم ألقيت كلمة شكر وامتنان، ذاكرًا أن هذا هو التحالف الحقيقى الذى يستطيع أن يكسب المعركة ضد الإرهاب، وأن هذه السيدة فى مقعدها ذى العجلات أقوى من الـجـنرالات فى الدبابات ومن المقاتلين فى الطائرات ٠٠ لأنها تمتلك قوة الحقيقة والأخلاق٠

وقـد رأيت فى ذلك الموقف أمريكا مغايرة للأمريكة الأخرى التى تصنع القرار وتديـر السياسة الخارجية، ورأيت مجالا للعمل لا يمكن إغفاله أو إهداره ٠٠ لأنه علـى المدى البعيد، هو القادر على كشف الزيف وإحداث التغيير٠ وقد غير ذلك التـيار مكـان السود فى أمريكا، من الجلوس فى مؤخرة الحافلات العامة، ومن الحـرمان من دورات مياه البيض، إلى مقعد وزارة الخارجية، بل والتنافس على مقعـد الرئاسـة٠ وقد استطاع هذا التيار إيقاف حرب فيتنام وسحب القوات من هـناك، ويسـتطيع هـذا التيار ــ لو أحسن الحوار معه والالتحام به ــ أن يغير معادلة السياسة الخارجية لولا كوارث التنفير التى يسببها أعداء الإسلام، وبعض من أتباعه على حد سواء٠

ولـم أستطع وأنا أنظر إلى هذا التجمع أن أمنع نفسى من التساؤل : هل لو كان الحـال خلاف الحال، هل كان منا من سيهرع إليهم كما هرعوا إلينا ؟ بل وساءلت نفسـى هل أنتجت حركاتنا الإسلامية المعاصرة وصيغ التربية والإعلام الإسلامية فـى هذه السنين السود مثل هذه النوعية من البشر ؟ أم أننا منشغلون بتجريم الخلق وتوزيع مقاعد الجنة والنار ؟ !

أما من ناحيتنا، فقد دعونا لمؤتمر صحفى عاجل بالمركز الإسلامى ٠٠ انضم إليـنا فيه مندوبون من القيادات المسيحية٠ وتحدثنا عن الإرهاب وكيف أنه ليس

حكـرًا علـى اتـباع دين واحد، وأن الإرهاب اليهودى يجب أن يتحوط منه، كما تحدثـوا عـن إرهـاب بعـض المسلمين، بل وطالبنا بإغلاق مكاتب هيئة الدفاع الـيهودية وتجمـيد أموالهـا أسوة بما حصل لمؤسسات إغاثة إسلامية لاتهامها بتسريب أموال لجهات لها صلة بالإرهاب.

مـن الواضح أن أحداث ذلك اليوم إذن كانت أحداثًا كاشفة، فمن ناحية أظهرت تعقـيد التركيبة الأمريكية التى تشتبك أجهزتها بشكل محايد مع من يُظنُّ أنها تخالف القانون، غير أنها تصطنع قرارات تتشكل تحت ضغوط من جهات صاحبة مصالح قـد لا تـتفق مـع الصـالح العام للشعب الأمريكى، أو لا تتفق مع القيم الأمريكية المدعـاة، غـير أن هناك شعبًا متعددًا مختلفًا ومتخالفًا .. حاضرًا ومغيبًا فى آن واحـد، يملـك عفويـة وجرأة وحبًا هائلا للمساءلة والاستطلاع وقدرة خارقة على التجديد والتصحيح والتغيير، ويتواجد فى سوق فسيحة للأفكار والرؤى والتصورات والمعتقدات.

أمـا الذين يرفضون أو يعجزون عن التعامل مع هذا الواقع الصاخب المتحرك، فـإنهم يقعـون فى إحدى مصيدتين، الأولى هى مصيدة التبعية، سواء داخل نطاق المجـتمع الأمـريكى، التبعية للخط الرسمى بغير نقد ولا تمحيص، أو اتباع الرأى الـراجح للأغلبـية بغية القبول والانخراط فى المنظومة الاجتماعية العامة، أو فى مصـيدة المعـاداة العامة والرفض المناطح لأمريكا وسيرتها وريحها وكل ما يمت إلـيها من قريب أو بعيد. كلا الاتجاهين لا يؤدى إلى تغيير، ولا حتى إلى أمل فى التغيير يسير.

ورغم استعصاء التغيير السريع، إلا أن التغيير من الداخل هو الأمل الوحيد.

ومـن الأسـف أننا نقع فى سوء تقدير مرتين، أما الأولى فهو سوء تقدير حجم القـوة الأمريكـية وأثرها فى العالم، حيث إننا نميل بدوافع عديدة لتهوين هذا الحجم وتقلـيل شـأنه، وهو خطأ فادح. فهذه القوة ليست فقط قوة عسكرية، ولكنها كذلك اقتصادية وإنتاجية بل واستهلاكية .. فكثير من دول العالم تحتاج للسوق الأمريكية المسـتهلكة بجـنون لتصريف منتجاتها، وحالة الدول المصدرة للبترول شاهدة على ذلـك، ثـم هناك قوة علمية وتقنية وإبداعية، تترعرع فى مناخ حر، هى كذلك قوة

جامحـــة ومغرورة وهاجمة بغير مقاومة تذكر. هذه حقيقة سواء كانت مكروهة أو محبوبة .. فإنها تبقى فى الدورة التاريخية الراهنة غير قابلة للإنكار.

أمـــا سوء التقدير الثانى، فهو فى الإحساس، كأن أمريكا هى قضاء الله وقدره الـــذى لا يمكـــن تغيـــيره. وهذا يخالف قراءة التاريخ الأمريكى، وما مر فيه ويمر خلالـــه من تغييرات كانت دائمًا مدهشة، ويخالف قراءة الواقع الأمريكى وما يعتمل بداخله من حوار وجدل وصراعات تجعل تجميده مستحيلا.

ولابـــد أن يتخصـــص مـــن مثقفى الأمة العربية والإسلامية من يعكفون على دراســـة ذلـــك الواقع، وعلى الدراية بكيفية التعامل معه بغير الطريقة الشعاراتية الساذجة المتبعة الآن.

أمـــا الـــيوم الـــثانى ذو الأهمية الخاصة، فهو يوم السبت ١٢/١٥ حين حبست أمريكا أنفاسها وشهقت من الهول والفزع، ثم زفرت من الحزن والغضب والشارع الأمريكى يشاهد الشريط المشئوم لـــ «أسامة بن لادن».

وقـــد عجـــب الناس وهم يتابعون آراء الشارع العربى الذى أجمع ــ أو كاد ــ على أن الشريط تزييف وخديعة، وكأن شيئـــاً لم يكن وبراءة الأطفال فى عينيه.

ولســـت بصـــدد مناقشـــة مصـــداقية الشـــريط، ففى العالم من أصدقاء أمريكا وأعدائهـــا، وفـــى خارجهـــا وداخلهـــا مـــن الفنيـــين من هم أقدر على ذلك البحث التكنولوجـــى.

مـــا يعنيـــنا كمســـلمين وكعرب فى أمريكا، ليس هو وقع الشريط على الشارع المصـــرى أو الهندى، ولكن وقعه على الشارع الأمريكى، ذلك الشارع الذى نتعامل معـــه صـــباح مســـاء، والذى نتناقس على اجتذابه إلينا مع قوى تريد تحويله ضدنا وضـــد كل ما هو عربى ومسلم، والذى فى عمومه ــ ذلك الشارع ــ هب لحمايتنا ضـــد القلـــة الجاهلـــة أو العصبة الحاقدة فى الأونة الأخيرة، **والذى بدأ بشكل غير معـــبوق، يسأل بجدية عن حقيقة الإسلام، ويتعرف بإيجابية على المسلمين، لهذا** الشـــارع الشريط حقيقة، وهناك مثل هنا يقول : « القناعة حقيقة بصرف النظر ــ Perception is reality » هـــذا الشريط إذن .. هنا : حقيقة انصبت علينا، تنقض غزلنا وتعرقل طريقنا وتتعثر عليها خطانا.

بل وإنى أزعم أن أثر الشريط كان أسوأ من أثر الحادث ذاته.

ومن عجب أن ما نقلته الفضائيات العربية لم يكن أقل غرابة، غرق الجميع فيما نسميه فى الطب « مركب الإنكار »، واحتمى الجميع بنظرية التآمرية .. ولم يتكلف واحد حتى الاحتمال النظرى عما لو كان ذلك حقيقة. ولم نسمع أو نشاهد هنا أى مناقشة جادة بواسطة علماء الدين وأهل الثقافة عن محتويات الشريط، بصرف النظر عن صحته أو تلفيقه، ماذا بشأن هذا الذى رآه الناس وسمعوه، ماذا عن هذه الآيات والأحاديث والاستنتاجات والتبرير.

تُركنا نواجه فوهات الجحيم مسددة إلى ديننا السمح البنّاء العظيم، وما هى إلا دقائق ونهضت قنوات الإعلام تسأل عن قتل المدنيين وعما إذا كانت محاربة الربا تعنى هدم البنوك على رؤوس من فيها، وعن أخلاقية استعمال المدنيين كأسلحة دمار، وعن شرعية إرسال أفراد للموت دون علمهم، وعما إذا كان الأكل على الأرض من شعائر الإسلام، بل وعن دور الأحلام فى الشريعة الإسلامية ! وعندما نقدم صورة مخالفة، فسرعان ما تُرجع هذه الصورة .. لا للإسلام، ولكن للتأثير الغربى المزعوم علينا .. أى أننا بحكم تمديننا فى الغرب، أصبحنا نمثل نسخة منقحة للإسلام، وإلا فما الداعى أن نصدقكم أنتم ونكذب هؤلاء المعممين الملتحين الذين برصعون كلامهم بالآيات والأحاديث !

وها نحن وحتى كتابة هذه السطور، ننبرى لهذه المنافحة الواجبة قدر المستطاع. ورأينا أن أجدى الوسائل هى السعى إلى حيث يكون الهجوم شرسًا أو الشك مربكًا لنتكلم بغير مواربة، ولا إحساس بالحرج، فدين الله أعز من أن يعتذر عنه أو يجد أتباعه فى صدورهم حرجًا منه، ما داموا لا يَجْرِمَنَّهم شنآن قوم على ألا يعدلوا، وما داموا لا يلجأون للتبرير السطحى والدفاع الأبله عما لا يجب ولا يمكن الدفاع عنه. وهو جهد تنوء بحمله العصبة أولو القوة، والله المستعان.

إن كان اليوم الأول الذى ذكرت، يساعد على فهم طبيعة التركيبة الأمريكية ومما تتيحه من فرص وما تستلزمه من جدية فى التعامل، فإن اليوم الثانى يكشف عن طبيعة التحديات وصعوبة العقبات. غير أن النتيجة المحتومة، هى أننا لا نملك أن نتجاهل ذلك الواقع، ولا أن نكتفى بالانزواء أو الملاعنة. لابد من الاشتباك

البناء وخاصة لأن الإسلام والمسلمين فى أمريكا ليسوا ظاهرة موقوتة ولا حضورًا عابرًا، ولكنهم أصبحوا جزءًا من الواقع.

فإن كان المسلمون فى أمريكا فى مساحة الهامش أو فى الموقع الدون، فلن يستطيعوا أن يغيروا الواقع لصالح أجيالهم الجديدة ولا لصالح المسلمين فى العالم ولا لصالح خير للبشرية بوجه عام، أما إن كانوا فى موقع الريادة والقيادة، فسيكون الحال بإذن الله غير الحال. حتى يتم هذا، فهناك ما يلزم عمله بواسطة المسلمين فى أمريكا. وهذا بحث غير البحث ومجال غير هذا المجال.

وهناك عون من المسلمين فى البلدان الإسلامية لابد من تقديمه للصالح العام.

وأحب أن أقرر بادئ ذى بدء ما لا يجب أن يعتبر عونًا. لا يجب أن تقدم الدول العربية والإسلامية عونًا ماديًا ولا ماليًا للحركة الإسلامية فى أمريكا. فهذا العون أولا : يجعل التجمعات الإسلامية عميلة لهذا البلد أو ذاك، وطبيعة البشر تتوخى أن تسترضى اليد التى تدفع، وطبيعة اليد التى تدفع أن تستخدم اليد التى تأخذ، ومصلحة الإسلام وصورته ليست دائما متوائمة مع مصالح هذه الدول، بل وفى أغلب الأحيان تتناقض معها. ثانيًا : يوجد فى البلاد العربية والإسلامية من مصارف العطاء ما هو أولى وأكثر احتجاجًا من الساحة الأمريكية، والمسلمون الأمريكيون فى عمومهم أسعد حالا من إخوانهم وأخواتهم فى بقية أنحاء العالم، ثالثًا: عطاء الحكومات خصوصًا، ينتج حالة من التواكل والكسل لدى هذه الجاليات، مما لا يستخرج منها خير ما فيها من تضحية وكفاءة وعطاء، رابعًا : تصبح هذه المنظمات القابضة قائدة المصداقية لدى صناع القرار فى أمريكا .. فهم على أحسن الحالات موظفو سفارة لدول لا تملك سفاراتها قدرة على الضغط والتأثير، بينما لو نظر إليهم على أنهم جزء حقيقى من النسيج الأمريكى، فسيكون لهم ما للتجمعات الشعبية الأمريكية وتحالفاتها المتشابكة من تأثير.

ومما لا يجب أن يكون من وسائل العون، هو عملية تعيين أئمة وتوريد وعاظ من الشرق، فهؤلاء سامحهم الله .. وبرغم الورع وحسن النية، سببوا فشلا ذريعًا بشأن استنبات شجرة الإسلام فى أمريكا، فهم لا يعرفون اللغة .. وبذلك فقدوا الصلة الأفقية بعناصر المجتمع الأمريكى، وفقدوا الصلة الرأسية مع أجيال المسلمين الجديدة، ولو كانت المشكلة هى اللغة لهانت، ولكن المشكلة هى فى

التكوينة الحضارية والفكرية والمعرفة بطبيعة المجتمع وتفاعلاته ومشكلاته التى تمكن من مخاطبة الناس على قدر عقولهم والقول لهم فى أنفسهم قولا بليغاً.

ومما لا يجب أن يكون من وسائل العون، هو هذا الفيضان من الكتب والمجلات اللامعة الفاقعة الألوان والغريبة المحتوى، التى تتحدث فى أشياء مضى عليها قرون، أو عن واقع لا يمت بصلة للواقع، ولقد قرأت إحدى هذه المجلات تتحدث عن كيفية التثاؤب، وأخرى فى جدل محموم بين الحجاب والنقاب.

إن كان هناك عون يتوقع، فيجب أن يكون فى شكل تعاون فى دوائر عدة وعلى عدة مستويات.

أولا : فى مراكز البحث ومستودعات التفكير، لدراسة الظاهرة الأمريكية فى العالم، وكيف يمكن للإسلام أن يتعامل معها بشكل خلاق.

ثانيًا : فى مراكز بحوث مشتركة لموضوع فقه الأقليات.

ثالثًا: تكوين موقف عصرى عقلانى واضح بشأن وضع الأقليات غير المسلمة فى العالم الإسلامى، وعدم الاكتفاء بتعميم المقولات المعهودة على سماحة الإسلام وحقوق أهل الذمة، العالم المعاصر الذى يقوده غيرنا .. والذى تحتوى مراكز القيادة فيه أقليات مسلمة مهمة لن يقبل هذا التعميم.

رابعًا : لا بد من طرح ملف مكانة المرأة طرحًا جديدًا لا يلتزم إلا بما حلل الله وحرم بشكل قاطع.

إنه من العجب أنه كلما فتح باب ولو صغير لتغيير وضع المرأة فى العالم الإسلامى، تداعت لإغلاقه صيحات الإسلاميين دون سواهم .. حق الانتخاب فى الكويت .. قانون الخلع فى مصر .. قانون الأحوال الشخصية فى مصر الذى وافق عليه العلماء ثم عادوا لتسميته قانون جيهان، طبعًا بعد انكماش سلطانها .. وحتى ختان البنات، اعتبر فى زمننا الجديب من معاقل الإسلام التى هب للدفاع عنها سدنة الدين.

خامسًا: دراسة موقع الإسلام فى ذلك العالم الجديد المختلف غير المسبوق، الذى ذابت فيه الحدود، وبدأ الناس فعلا يحجزون أماكن فى محطات الفضاء.

سادسًا: التعبير عن موقف المسلمين من الديموقراطية بشكل واضح،

الديموقراطية كآلية للحكم ووسيلة للفصل بين السلطات وتمثيل الأمة وحق المواطنة الكاملة للجميع وحق المعارضة ومنابر الرأى وحرية الصحافة.

هذا ما يلزم أن ينشغل به مثقفو الأمة غربًا وشرقًا ..

حتى لا نقضى القرن الجديد .. « وكلنا فى الهم شرق ».

• • •

كلمات من أستراليا

بعد أن طوّفنا فى الكتاب بعقول نخبة من المفكرين، من أقصى الغرب ــ الولايات المتحدة مسرح الجريمة ــ إلى أوروبا، وإيران، ومصر، أضيف ما سمعته من الدكتور إبراهيم أبو محمد ــ مستشار الاتحاد الإسلامى فى سيدنى باستراليا :

« أسفرت أحداث سبتمبر عن نتائج طيبة بالنسبة للإسلام والمسلمين فى أستراليا. فبعد أن ظهرت السلبية بعد الأحداث مباشرة، استطاع قادة الجالية أن يفتحوا حوارًا مع الحكومة الفيدرالية، ومع «الباقى» من رجال الدين المسيحى، والإعلام، وعامة الشعب، وكانت النتيجة انقلاب تلك السلبية إلى تفهم وتقدير وإيجابية، إلا بعض حوادث استثنائية، لا تمثل التيار العام ».

• • •

سمعت ورأيت فى الولايات المتحدة

عادل المعلم

هـناك الآن واقع جديد، فى الولايات المتحدة وأوروبـا، والعالم كله. فالإسلام ــ القـرآن بالطبع بالدرجة الأولى، وإلحمد لله على ذلك[*] ــ فى فكر غالبية الناس، يـريدون أن يعـرفوا تلك الديانة العجيبة، التى، إما أنهم لم يعرفوا عنها شيئًا على الإطلاق من قبل، أو عرفوا معلومات خاطئة .. مثل الدين الذى يعبد الشيطان، أو يعبد صنمًا اسمه محمد، أو الدين العربى .. أو الدين التركى.

وقـد يعجـب القـارئ، إذا عرف أنه، بناءً على أقوال قادة الفكر الإسلامى فى الولايـات المـتحدة، ومـنهم الذين شاركوا فى هذا الكتاب، وغيرهم فى الولايات المـتحدة، وحتى كندا «... فإن عامة الأمريكيين مستعدون لسماع وجهة النظر الأخـرى، فـى الديانـة أو السياسة، وأكثرهم عنده القابلية للاقتناع، بل ولاتخاذ مواقـف إيجابـية، إذا كـان لدى من يكلمهم مهارة اللغة والإلمام بما يتكلم عنه، وأحسوا منه الصدق.

وهـم أيضًـا فى غالبيتهم لا يحبون الظلم والعدوان، ويمكن أن يشفقوا على الضعيف، ولكن لا يحترمون الذليل ولا الكذاب».

وبالنسـبة للإعـلام، فقـد مكثت فى الولايات المتحدة حوالى ثلاثة أسابيع بعد الأحـداث، ثم عدت لها ثانيًا فى منتصف نوفمبر ولمدة أسبوعين، قضيت منها أيامًا ولـيس سـاعات أشاهد محطات التليـفزيون المختلفة، وأشهد الله أن معظم البرامج للـتى تحدثت عن الإسلام، كان أحد المتحدثين فيها من المسلمين، وأشهد الله أيضًا، أن معظـم مـن تكلم، سواء كانوا مقدمى برامج، أو رجال الدين المسيحى، تكلموا

(*) فهناك الكثير من كتب التراث، والكتب المعاصرة، التى تسىء للإسلام، وسأكتفى فى هذا المقال بمقولة مشـهورة لسيد حبيب اللامعى، صاحب دار الغرب الإسلامى : هناك كتب تراث تنشر الجهل وليس المعـرفة. ومقولـة الدكتور صلاح الصاوى فى واشنطن : هناك ترجمات لكتب إسلامية، كفيلة بأن تحول الأمريكى المسلم إلى كافر.

بإيجابية عن الإسلام، وعن المسلمين في الولايات المتحدة(*). بالطبع هناك استثناءات، وبالطبع هناك أصحاب الأجندات السياسية، وأيضًا اليهود، ولكن أيضًا ليس كل اليهود.

وأذكر جيدًا في برنامج « America in the meantime » أن ركزت المذيعة على وجوب حسن معاملة العرب والمسلمين، واستضافت بعض الفتيات والسيدات المحجبات، قالت إحداهن: إنها تخاف النزول للشارع، فاستنكرت المذيعة والحاضرون ذلك، ثم قالت لها :

« We ask you to forgive us. »

فانفجر كل الحاضرين بالتصفيق.

ولقد شاهدت بنفسي إيجابيات كثيرة، ألخصها للقارئ في أسطر قليلة :

تجمع ياسادينا

دعاني الدكتور الألفي(**) وحرمه للذهاب إلى ذلك التجمع أمام مجلس حي ياسادينا، أحد أحياء لوس أنجلوس. ذهبنا سويًا فوجدنا بضع مئات من الأمريكيين، يستمعون لكلمات ألقاها ثلاثة أو أربعة من القساوسة البروتستانت والكاثوليك، وحاخام يهودي، وراهب بوذي، ثم اختتم الكلمات الدكتور حسان حتحوت. كانت كل الكلمات طيبة ورقيقة، وأصر الحاخام وأكد وكرر على الذكرى والتذكر، بالحاح. صفق الحاضرون لكل متكلم ربع دقيقة أو نصف دقيقة على الأكثر. تكلم الدكتور حتحوت عن الإسلام وأفاض في شرحه، ولما أنهى كلمته، إذا بوابل من التصفيق من الأمريكيين ــ الذين أغلبهم مسيحيون بطبيعة الحال ــ لمدة تزيد على دقيقتين.

(*) أذكر في إحدى المرات التي تكلم فيها ممثلو الديانات الثلاث في التليفزيون، أن قال الحاخام: نحن نعرف أنه ليس كل المسلمين إرهابيين، ولكن كل الإرهابيين مسلمين، فرد عليه أحد الأصدقاء: لقد مارس أفراد من الديانات الثلاث الإرهاب، وليس مقصورًا على الدين الإسلامي.

(**) هاجر الدكتور عمر الألفي وزوجته إلى لوس إنجلوس منذ حوالي ثلاثين سنة. أنشأ معمل تحليل سرعان ما أصبح في المقدمة في أمريكا كلها. ساهم في إنشاء المركز الإسلامي في لوس أنجلوس، وساهم وزوجته في إنشاء عدة مدارس إسلامية.

لقاء مع عضوة كونجرس

ذهبت مع أحمد علام، أحد الأصدقاء الفلسطينيين، لزيارة مكتبتين عربيتين فى أورانج كونتى، وفجأة سألنى: هل تريد زيارة عضوة كونجرس صديقة لنا؟ أجبته بأن ملابسى كما ترى، وهى لا تعرفنى، فكيف أذهب للقائها بدون سابق ميعاد؟

قال : لا عليك

ذهبنا للقاء السيدة لوريتا سانشيز فى منزلها.

سألتنى فور رؤيتى : هل أنت مصرى ؟ رددت بالإيجاب.

قالت : لقد عشت ثلاث سنوات من أحلى أيام عمرى فى القاهرة. كنت أسكن فى جاردن سيتى وأعمل فى شبرا.

حضر الاجتماع حوالى عشرة من المسلمين الأمريكيين، رجال أعمال وأساتذة جامعة، وإمام سنى فلسطينى وإمام شيعى عراقى، كلهم يتحدثون الإنجليزية بطلاقة. ومن جانبها، أحضرت راعى أكبر كنيسة فى دائرتها، ومفتشة تعليم بالدائرة، واثنين من مساعديها.

رحبت السيدة سانشيز بالحضور، وأكدت أن أكثر ما يهمها الآن هو سلامة المسلمين فى الدائرة، وخصوصًا تلاميذ المدارس، وقالت: إنها أرسلت لكل مديرى المدارس أن يهتموا بذلك أقصى الاهتمام، ولا يتوانوا فى التحقيق فى أى حدث ولو كان بسيطًا. ثم رجت الحاضرين أن يخبروا الآباء والأمهات بالتنبيه على أولادهم بإبلاغ المديرين عن أى حادث يتعرضوا له، وإذا خافوا أو خجلوا من ذلك يبلغون آباءهم ليعودوا للمديرين بالبلاغ.

أما القسيس فقال بالحرف الواحد: هذه فرصتكم لتخترقوا الإعلام .. تكلموا فى الإذاعة والتليفزيون، أرسلوا للصحف والمجلات. ادعوا جيرانكم لمساجدكم ومنازلكم ومدارسكم ... تكلموا عن دينكم !

تجمع لوس أنجلوس

كان المفروض أن أذهب لذلك التجمع أمام مجلس مدينة لوس أنجلوس، وهى من أكبر أربع مدن فى الولايات المتحدة، ولكن تأخرت فى أورانج كونتى لمقابلة عضوة الكونجرس، ثم علمت من الدكتور الألفى أن ما حدث فى ياسادينا تكرر

بحذافيره أمام مجلس مدينة لوس أنجلوس، مع فارق واحد، أن من اختتم الكلمات كان الدكتور ماهر حتحوت بدلا من حسان، وأنه قوبل بنفس العاطفة والتصفيق من الحضور.

أكبر كنيسة وأكبر مسجد فى أمريكا

حكى لى صديقى الفلسطينى عن عمدة مدينة جاردن جروف فى أورانج كونتى، وأنه تنافس على المنصب مع ضابط شرطة سابق، أيد اليهود الضابط، وأيد العرب العمدة، والذى فور نجاحه، وافق على مشروع بناء جامع، سيكون أكبر جامع فى الولايات المتحدة، وقال : لقد كنت أفخر دائمًا بأن فى دائرتى أكبر كنيسة فى الولايات المتحدة، وسوف أفخر من الآن فصاعدًا بأن فيها أيضًا أكبر مسجد فى الولايات المتحدة !

كذلك حكى لى أحمد علام، عن عدد من المكالمات البذيئة ومكالمات التهديد التى تلقاها مكتبه ــ وهو يعمل فى العقارات ــ ثم سرعان ما انقلب الحال إلى سيل من مكالمات التأييد والتعاطف !

- دكتور ياسر هدارة، أخبرنى أن مسجد سان هوزيه ــ سانتا كلارا، تلقى ٤ مكالمات تهديد بعد الحادث مباشرة، ثم تلقى أكثر من عشرين مكالمة تأييد، وذهب الجيران بالشموع والورود للمسجد فيما بعد.
- مسجد دار الهجرة فى واشنطن، أخبرنى شاكر السيد وجمال عبد المعطى أن الجيران ذهبوا للمسجد، أيضًا بالشموع والورود، وأن عددًا من أعضاء الكونجرس ذهبوا لعدد من المساجد فى واشنطن.

• • •

قد يتساءل قارئ : إذا ما هى أنباء الاعتداءات على المسلمين ومساجدهم، التى تجاوزت الألف حادثة ؟

يجيب على ذلك علاء رامى من منظمة كير: « معظم هذه الاعتداءات هى لفظية مثل : عودوا إلى بلادكم أيها الإرهابيون ! كيف تجرأتم على فعل ذلك ؟ »

وأضيف أنا أن حوادث القتل العشر، ليست بالرقم الهائل فى بلد تعداده يقرب من ثلاثمائة مليون، والقتل فيه ميسور وقائم على قدم وساق، بكل الأشكال

والألـوان. ومن يعلم من هم القتلة ؟ هل هم كوكلوكس كلان ؟ وهم يمكن أن يقتلوا حتى المسيحيين من غير الأنجلوساكسون؟

هـل هم من الصرب ؟ أم الهندوس ؟ أم الصهاينة ؟ أم من غير ذلك أيضًا...؟! **وطبعًا ندين قتل نفس واحدة، كل الإدانة ، فما بالك بعشرة.**

وليس هناك شك ، فى أن ذلك لا يمس إلا استثناء ، فى بلد العنف والجريمة.

ومعـروف أن هناك عدة منظمات إسلامية ــ فى مقدمتها كير ــ ترد على أى اعتداءات على الإسلام أو المسلمين ، سواء إعلاميًا أو باتخاذ الإجراءات القانونية.

أمـا المبالغة فى الشكوى عند البعض، فتذكرنا بقلة من الأقباط المصريين الذين يذهـبون إلـى الولايـات المتحدة، أو حتى بريطانيا، وينطلقون بخيالهم الواسع عن الاضطهاد، بل والقتل، اللذين يتعرضون لهما فى مصر.

ومـن قبـيل ذلـك ما حكته لى السيدة الألفى، من أن إحدى السيدات المسلمات اشـتكت أن جارتها سبتها قائلة : يا بنت الكلب. فأجابتها السيدة الألفى : كيف قالت لك ذلك بالإنجليزية ؟ فهم لا يسبون بمثل ذلك القول !

چيرى فالويل

پـات روبرتسون

وفرانكلين جراهام

أولـئك أصـحاب الأجندات السياسية بين الأصوليين المسيحيين، وأولئك قوى لايُستهان بها.

فلديهـم الإمكانـيات الهائلـة، مـن أموال، لمحطات تليفزيون، لأفلام، وكتب وصـحف ومجلات، وأولئك الذين يبشرون بضرورة قيام دولة إسرائيل حتى يهبط المسيح ثانية. وأولئك يتمتعون بقوة فى الكونجرس، وفى البيت الأبيض(*).

لـم يـتوقفوا عن مهاجمة الإسلام والمسلمين، وصرح فرانك جراهام (ابن بيلى جراهام وخليفته) بأن الإسلام دين كله شر !

دعته كير، وعدد من المنظمات الإسلامية لمناقشة ذلك فى حوار عام، فرفض!

(*) لمن يريد الاستزادة، يمكنه قراءة كتاب « المسيح اليهودى » للكاتب الليبرالى رضا هلال.

بالطبع هذا الرفض فى صالح الإسلام والمسلمين، وهنا فرصة علماء الإسلام فى الولايات المتحدة، وقد سخر الله لهم أمثال هؤلاء الرجال المتعصبين الذين يهاجمون الإسلام من أعلى المنابر، ولأكبر عدد من المشاهدين والمستمعين، مما يثير فضول الأمريكيين أكثر، فيذهبون ليبحثوا عن الرأى الآخر(*)، ولذلك من أعاجيب أحداث سبتمبر، أن التحول من الرؤية السلبية للرؤية الإيجابية للإسلام والمسلمين فى أمريكا كانت نسبته أعلى فى صفوف اليمين المسيحيى، كما بين استطلاع الرأى الذى نشرته كير !

ودعونا لا ننسى أنه برغم كل ذلك، يتزايد عدد الداخلين فى الإسلام فى أمريكا كل عام ، أكبر من الزيادة فى أى دين آخر(**).

مؤتمر مكتبات الشرق الأوسط
فى سان فرانسيسكو

سافرت منتصف نوفمبر ٢٠٠١ لمؤتمر مكتبات الشرق الأوسط، حيث تعرض دور النشر الأمريكية والأوروبية والشرق أوسطية إنتاجها، ويتقابل المهتمون بالشرق الأوسط .. الأكاديميون، العاملون، وغيرهم من الجهات الرسمية وغير الرسمية .. وبالطبع جرت مناقشات كثيرة .. عن أحداث سبتمبر، ومشكلة فلسطين، والإسلام والمسلمين فى الولايات المتحدة.

وفى أحد النقاشات، تساءل أحد المتحدثين (وهو من الشرق الأوسط) كيف يمكننا أن نؤثر على سياسة الحكومة الأمريكية (يقصد فى الشرق الأوسط) ؟

فجاءه الرد عنيفاً من أحد الأمريكيين من أصل عربى :

كيف تؤثرون على الحكومة الأمريكية وأنتم لا تعرفون ولا تستطيعون التأثير على حكوماتكم فى الشرق الأوسط ؟ وإذا كنت تتكلم عن أن تؤثر حكوماتكم على

(*) تحول للإسلام بضع مئات من القوات الأمريكية التى مكثت فى شبه الجزيرة العربية بعد حرب الخليج الثانية.

(**) من يريد الاستزادة ، يمكنه قراءة كتاب « الإسلام فى الألفية الثالثة » ــ د. مراد هوفمان ، وكتاب «حتى الملائكة تسأل ــ قصة الإسلام فى أمريكا » ــ د. جيفرى لانج ، والكتابان من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

للحكومـــة الأمريكية، فكيف تستطيع تلك الحكومات ذلك إذا كانت تطلب يد العون، كل أنواع العون، من الحكومة الأمريكية ؟

فأجبـــته: يا أخى العزيز، الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، تطلب ليس يد العون مـــن أمـــريكا، بـــل المـــاء والهـــواء، ومع ذلك تضغط على الحكومات الأمريكية المتعاقبة، وتأخذ منها ما تريد.

رد الـــرجل متحدثًا : من أعجب الأمور أنكم حتى الآن لا تعرفون أسباب تحيز أمـــريكا لإسرائيل، ولم أر حتى الآن عملا واحدًا صادرًا من الشرق الأوسط يحلل ذلك التحيز بطريقة جدية مقنعة.

علـــى أيـــة حال، أضاف، اليهود هنا فى أمريكا منذ قيام الدولة الأمريكية، بينما الهجرة الكبيرة للمسلمين حدثت فى القرن العشرين.

كـــان اليهود مضطهدين معظم تاريخهم فى أمريكا، حتى بداية القرن العشرين، لذلـــك شـــجعوا (اليهود) العلمانية، حتى لا تؤثر ديانتهم على وضعهم فى المجتمع، وقـــد نجحـــوا لحـــد كبير فى ذلك. ويمكنكم إذا أردتم أن ترجعوا لكتاب « هنرى فـــورد» عن اليهود فى أمريكا واسمه « اليهودى الدولى». وفى نفس الوقت عملوا بـــدأب ومـــثابرة علـــى إقناع المجتمع الأمريكى أنهم يشاركونه نفس القيم والثقافة، ويجـــب علينـــا أن نعترف (بقصد المسلمين فى أمريكا) بأننا استفدنا لحد كبير من مجهـــودات الـــيهود فى نشر العلمانية فى أمريكا، فقد أعطى ذلك كثيرًا من الحقوق للمســـلمين، طبعًا لم يدر ذلك بخلد اليهود فى ذلك الوقت، ولكن هذا ما حدث. ولعل فـــى ذلك رد بعض الجميل من اليهود للمسلمين، على ما هيَّأوه لهم فى تاريخهم فى الشرق الأوسط وفى الأندلس، رغم أن كثيرًا منهم ينكرون ذلك الجميل الآن.

عـــرف اليهود ـــ كأقلية ـــ كيف يصلون إلى رجال الحكم، سواء فى الحكومات المحلـــية فـــى الولايات، أو الكونجرس الفيدرالى بل والبيت الأبيض، وكذلك ـــ كما تعلمـــون جـــيدًا ـــ عـــرفوا كيف يتغلغلون فى الجامعات والمراكز العلمية ومراكز الـــبحوث، ومخـــتلف وسائل الإعلام. وهم يمتلكون الكثير من تلك الوسائل. ولكن يجـــب أن تعـــرفوا أنه يمكن لأى فرد أو مؤسسة أو شركة، أن تصدر ما تشاء من مجـــلات أو صـــحف، تنشر ما تريد من الكتب، تنتج ما تريد من الأفلام، تنشئ ما تشـــاء مـــن محطـــات الإذاعة والتليـــفزيون .. فالساحة مفتوحة للجميع، ويمكنكم

الدخـــول للســـاحة، ولكن تحتاجون لمؤهلات. فالإعلام هنا تجارة وصناعة كبرى، تحـــتاج لكفـــاءات وتمويل، ولن ينفع أسلوب إعلام الشرق الأوسط، الذى هو بمثابة نشرات حكومية عن الإنجازات وما يشابه ذلك من اللغو .. والبطء .. والسطحية .. وكـــل ما يجعل المثقفين فى الشرق الأوسط يتحولون إلى الـــ B.B.C. أو CNN ليعرفوا أخبار العالم.

أجبـــته : ولكـــن قناة للجزيرة تجذب من المشاهدين مثلما تفعل قناة الـــ CNN الآن.

فرد قائلا : ولكنها تخاطب العالم العربى، ونحن نتكلم عن أمريكا.

ثـــم أردف: بالنســـبة للكونجـــرس، سوف أقص عليكم ما قاله عضو كونجرس قابلـــناه: قبل أن نبحث أية مسألة، محلية أو خارجية، يأتى إلينا المهتمون بها، سواء كـــانوا جماعـــات مصالح أو جماعات ضغط، بكل البيانات والاقتراحات والطلبات، ونادرًا ما يأتى أحد من العرب لنا !

فهـــل تطلـــب مـــنهم أن يهـــتموا بمصالح الناس، فى مناطق بعيدة عنهم مثـــل الشرق الأوسط، أكثر مما يهتم أصحاب المصلحة أنفسهم ؟

فأجبـــته : ولكـــن لكـــل رجال الكونجرس مصادر معلوماتهم الشخصية، وأطقم سكرتارية تزودهم بما يريدون معرفته.

سألنى بحدة: منذ متى تعيش هنا؟

أجبته: أنا زائر فقط.

ـــ : كم مرة جئت للولايات المتحدة؟

ـــ : أربع أو خمس مرات.

ـــ : أنا أعيش هنا منذ أكثر من أربعين سنة. السياسة هنا لخدمة المصالح. فمن لا يـــنجح فـــى خدمة مصالح من انتخبوه فلن يبقى على كرسيه ، سواء كان عضو كونجرس، عمدة، حاكم ولاية، أو حتى رئيس الدولة.

ـــ ولكـــن ألا تـــرى أن المصالح الحقيقية للولايات المتحدة هى فى كفة العرب والمسلمين أكثر مما هى فى كفة إسرائيل واليهود؟

أجـــاب: هذا موضوع طويل معقد تصعب الإجابة عليه بنعم أو لا ، بل هى نعم ولا.

فهـــم يؤملون مصالحهم مع العالم العربى والإسلامى بكل يسر، ولا يقابلون فى ذلك أية صعوبات أو ضغط من أية جهة.

ومـــن ناحـــية أخرى، تستطيع إسرائيل، ويستطيع اللوبى اليهودى هنا أن يسبب صداعًا للدولة.

ـــ لماذا لا ينهج اللوبى العربى والإسلامى نفس النهج هنا؟

أجاب: بدأنا ذلك فى السنوات القليلة الماضية.

ولكن لا تنس :

١ـــ اليهود سبقونا فى القدم، وسبقونا فى العمل السياسى.

٢ـــ حضـــر أكـــثر المهاجرين هنا بمشاكل الشرق الأوسط، وإذا لم أقل سلبيتهم فى العمل السياسى، فسأقول عدم تمرسهم عليه.

٣ـــ طـــبعًا لا يخفـــى عليكم التنسيق بين دولة إسرائيل واللوبى اليهودى، ولكن للأســـف أكـــثر الحكومـــات العربية تريد من الجاليات أن تكون رجع صداها على طـــريقة ما أريكم إلا ما أرى، وأساليب التأييد والمبايعة فى الشرق الأوسط، وثق أن من يفعل ذلك هنا، لن يصلح لعمل شيء هنا.

اجتماع مجلس إدارة

المركز الإسلامى ـــ لوس أنـــجلوس

دعانى الدكتور ماهر حتحوت لحضور ذلك الاجتماع.

وجـــدت شبابًا فى الثلاثينيات عدا الدكتور ماهر والدكتور عمر الألفى. كان من بين الأعضاء الدكتور جاسر ماهر حتحوت وأحمد عمر الألفى.

بحـــث الاجـــتماع عـــدة موضـــوعات، وكان يأخذ الأصوات على كل مسألة، ويســـتوى صوت د. ماهر حتحوت مع ابنه، وصوت د. عمر الألفى (أبرز مؤسسى المركز) مع ابنه.

وقســـموا العمـــل بيـــنهم فـــى ظروف الطوارئ الجارية، فإحداهن مسئولة عن

الاتصال بالإعلام، وأحدهم عن الاتصال بالسلطات المحلية، وآخر بمجموعة Inter Faith ، وثالث الاتصال بالبيت الأبيض، وأخرى ببقية المنظمات الإسلامية فى أمريكا.

انتهى الاجتماع، وقال لى الدكتور ماهر: نحن فى صراع طويل، ولكن طمئن الناس فى مصر على أحوالنا، ورجائى ألا يضعوا كل الأمريكيين فى سلة واحدة، فالكثير منهم متعاطف معنا، ونكسب أرضًا جديدة كل يوم.

ثم روى لى أنه حضر اجتماعًا محليًا أخيرًا من عدة أيام، تكلم فيه حاخام يهودى عن الحرب فى اليهودية فقال: لا نهدم منزلاً، ولا نقطع شجرة، فقامت أمريكية مسيحية مستنكرة: ومالذى نراه فى التليفزيون من جرافات وبلدوزرات تهدم منازل وتقلع أشجار الفلسطينيين؟

بعدها غادرت لوس أنجلوس إلى ماليزيا ثم القاهرة فى أوائل ديسمبر ٢٠٠١م.

الإنسان فى أحسن تقويم
وأسفل سافلين

كثيرًا ما ترد هذه الآية فى ذهنى، عندما أقارن بين أمريكا فى الداخل وأمريكا فى الخارج، أو سياسة الحكومة مع مواطنيها، وسياستها الخارجية ، وخصوصًا فى الشرق الأوسط.

كيف تتجاهل الحكومة الأمريكية حقوق الفلسطينيين الواضحة بهذا الشكل؟ كيف تنحاز لإسرائيل بهذه الكيفية المخزية؟ كيف تنكر حق الفلسطينيين فى العودة، ثم تتكلم ــ بكل جرأة ــ عن حقوق الإنسان؟

كيف تجرؤ كوندوليزا رايس أن تتكلم عن « ترك المنطقة (الشرق الأوسط) لقواها » ثم تجاهر فى نفس الوقت بالتزام الولايات المتحدة بتفوق إسرائيل العسكرى على كل القوى المحيط بها؟

كيف تتكلم عن الإرهاب الفلسطينى وليس الإسرائيلى ؟

لقد قال توماس جيفرسون ــ واحد من أعظم رؤساء الولايات المتحدة ــ: «إنى أرتجف خوفًا من الله على بلادى عندما أفكر فى أن الله عادل».

فماذا عساه يقول الآن ؟

بيلما حذر واشنطون، أول رئيس ، وعند الكثير أعظم رئيس، فى خطبة الوداع من :

«الكره الدائم لأمة ، أو الحب الدائم لأمة ».

• • •

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
● مقدمة ــ عادل المعلم	٥
● أصداء وأفكار حول يوم الهول ــ د. حسان حتحوت	١٥
● العنف: من نيويورك إلى كابول ضوابط العنف السياسى وآثار الحدث التاريخى ــ المستشار/ طارق البشرى	٣٧
● الإرهاب ليس لــه دين عالم المسلمين بعد ١١ سبتمبر ــ د. مراد هوفمان	٥١
● الموقف الإسلامى من الحضارات غير الإسلامية ــ د. محمد عمارة	٥٩
● جذور الكراهية ــ د. عبد الودود شلبى	٦٧
● هذا الحدث المريع ــ جمال البنا	٧١
● أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م قراءة هادئة بنظرة موضوعية ــ د. زغلول النجار	٨٥
● المسلمون وميراث القوة والعنف ــ د. خالد أبو الفضل	١١٣
● وماذا بعد الرعب ؟ ــ د. عصام العريان	١٢٧
● الأزمة وحوار الثقافات ــ رؤية إنسانية ــ هبة رؤوف عزت	١٤١
● ١١ سبتمبر الإنصاف والإجحاف ــ محمد صادق الحسينى	١٥٥
● هؤلاء العرب Arab People ــ ميرال الطحاوي	١٥٩
● ١١ سبتمبر ٢٠٠١ .. مشاهد الحدث وتداعياته: رؤية طبيب نفسى ــ د. أحمد محمد عبد الله	١٦٧
● إخناتون وأحداث أمريكا ــ أحمد عثمان	١٩٩
● المسلمون فى أمريكا بعد ١١ سبتمبر ــ د. صفى الدين حامد	٢٠٣
● ما بعد ١١ سبتمبر ٠٠٠ ــ د. ماهر حتحوت	٢١٩
● كلمات من أستراليا ــ د. إبراهيم أبو محمد	٢٢٩
● سمعت ورأيت فى الولايات المتحدة ــ عادل المعلم	٢٣١

رقم الإيداع ١٩٢٦٠/٢٠٠١

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشأت على شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـ ١١٢٣١

منتدى اقرأ الثقافي
---
www.iqra.ahlamontada.com

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

هـذا الكتاب

قرعت أحداث سبتمبر الولايات المتحدة، ومن ثم العالم كله، وأوقعته فى فتن ومفارقات، ليس أقلها أن تغلق باكستان حدودها مع أفغانستان لتمنع هروب الفارين من القصف الأمريكى؛ ثم تطلب إنهاء القصف بأسرع ما يمكن، وإيقافه خلال رمضان، ولا القصف الأمريكى لأفغانستان بالقنابل، ومنها المحرم دوليًا، والطعام فى آن واحد.

هل فعلها بن لادن؟ أم غيره؟

هل هى من عمل جهة إرهابية واحدة أم أكثر؟

النتيجة هى مواجهة جديدة.

عند البعض بين أمريكا والإرهاب... العالم والإرهاب؟

ويراها البعض مواجهة بين الغرب والشرق الأوسط، سواء اغتنم الغرب فرصتها، أم اضطر إليها.

بل ويراها البعض مواجهة بين اليهو/ مسيحية والإسلام.

ولكن لاخلاف فى أنها مواجهة تشمل المجالات الفكرية والسياسية والعسكرية والمالية والتعليمية... وغيرها.

* هى عند البعض فرصة تستحق الاغتنام، تتجاوز إيجابياتها سلبياتها، على المدى الطويل... ورب ضارة نافعة.

* فى حين يراها البعض حلقة جديدة من الصراع المرير بين الغرب والشرق.

* * *

شارك فى هذا الكتاب نخبة من المفكرين، من الولايات المتحدة غربًا إلى أستراليا شرقًا، مرورًا ببريطانيا وألمانيا ومصر وإيران.

- 6.00.